ماجد شيحة

المَعْبَر

رواية

ماجد شيحة

المعبر

رواية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

إلى جمال حمدان، صاحب «عبقرية مصر».. وحسن فتحي، صاحب «عمارة الفقراء».. اللذين سجَّلا بحياتهما حقيقة أن الأسئلة الصحيحة كلها تنتهي بإجابة واحدة.

إهداء خاص

إليهم..

أولادي: «عمر، وعلي، وأروى، وعبد الرحمن».

الفصل الأول
الطابور

مع أن كلمة «كارثة» هي الاكثر ملاءمة لوصف ما حدث، نظل معفيين بأناقة الحياد في استعمال الكلمات الفخمة، لنحمي أنفسنا من تدهور اللغة أمام الأحداث المتتالية، ونبقى في السياق العام لِلُغة الجرائد الرسمية التي لا يمكن أن تُطلِق الألفاظ جزافًا، تجربة شخصية؟! نعم، مناسبة جدًا هذه الكلمة، وحيث إننا بصدد تجربة شخصية سنلتزم الخط البعيد عن الحركة الجماعية، الفوضى بمعنى أصح، قد لا نلتزم الرواية الرسمية بعض الشيء، لكننا لن نتجاوز الشخص الرسمي.

«عبد الرحمن»، مهندس ميكانيكا، غادر قريته الصغيرة والتحق بالعمل لحَامًا في المدينة، سمع كثيرًا مَن يقول إن جزء المدينة الجديد الموجود على الضفة الأخرى للنهر هو الأفضل على الإطلاق، لكنه لم يسعَ للانتقال ولم يفكِّر فيه، حتى التفاصيل الحقيقية عن اختلاف الجزء الآخر لم يسعَ إلى معرفتها، بل يسمع الحكايات والمبالغات ويوطِّن نفسَه على ثبات الحياة، يتحمل كما يتحمل الرجال، ويتعلَّل بأن الوقت ينتهي، وأن الأحوال التي ألقت به في الجزء الأسوأ لن تتغيَّر، لكن بالطريقة التي نعيشها لا يختار المرء الطابور الذي سيقف فيه، يكفي أن تُلوِّح بالفرصة فتتحول الى قدر، مثل مكان ميلادك وموتك.

سمع «عبد الرحمن» أن بعض شركات المدينة الجديدة، حي شرق، تحتاج الى موظفين للعمل، وأن بوابة الحكومة الإلكترونية أعلنت عن مواصفات تنطبق

على الجميع (ذكر، بالغ، لا يُشترط المؤهل، لديه استعداد للعمل بتفانٍ، الإقامة الفردية مجانية) وأن باب التقديم سيُفتح لمدة يوم واحد. لم يتردد، وقام بتهيئة أوراقه.

في الليلة السابقة لما حدث، لم يشعر «عبد الرحمن» ببوادر فارقة في حياته، أرق سرعان ما تغلَّب عليه التعب، في أثناء نومه لم يتقلَّب، لم يحلم، واستيقظ مبكرًا على غير عادته، وصل إلى مكان الطابور قبل شروق الشمس، أضواء الشوارع لم تكُن قد أُطفئت بعدُ، والسكان استيقظوا بسبب الأصوات والحركة ووجود الغرباء، بوَّابو العمارات أخذوا يطلُّون بملابس داخلية وعيون مرهقة، يسألون ويُظهرون دهشتهم، ثم يدعون بالتوفيق للجميع ويعودون سريعًا.

لدى وصوله، وكز قلبَ «عبد الرحمن» ندمٌ خفيف؛ فالمكان الذي استقر فيه بالطابور كان بعيدًا عن مكان التقديم بأربعة شوارع، لكن عزاءً ضمَّد موضع الوكزة؛ إذ تراكم المقدِّمون خلفه بعد لحظات من وقوفه، وعندما حانت منه التفاتة وجد أن الطابور قد امتد إلى الشارع الآخر. قال في نفسه: في أمرٍ كهذا ومهما بكَّرت كنت سأصل متأخرًا.

الشاب الذي يقف أمامه لاحظ نظراته فقال:

- حسنًا، أنت لم تحضر الجزء السيئ في الأمر.

ابتسم «عبد الرحمن»؛ فالجملة جملة طابورية شهيرة لا بُدَّ أن تُقال لكل وافد جديد، فما الأسوأ من طابور أخذ يمتد ويتلوَّى ويحتل شارعًا تلو آخر في وقفة تتجاوز

بكثير خمسين ألف شاب، كانت إحصائية لا تحتاج إلى شواهد، ولا إلى تفسير.

بعد قليلٍ، عرف من حديثٍ تبادله شابان خلفه تفاصيل المأساة، مكان تقديم الأوراق تم تغييره في الصباح الباكر، الحكومة هي ما فعلت، ولسببٍ لا يعلمه أحد، مكان التقديم كان في الاستاد الرياضي، وبعد أن امتلأ الاستاد أعلنوا، بتعليق ورقة صغيرة، أن التقديم سيكون في ورشة إصلاح وصيانة قطارات المدينة بوسط البلد، نتيجة التزاحم الغاضب تمزَّقت الورقة وصار على القادمين الجدد أن يتتبعوا الجمع الغفير.

المسافة كانت أكبر من أن تقطعها الأقدام؛ فالاستاد يقع في طرف المدينة البعيد بعد المساكن، سيارات الأجرة التي هرعت لتقضم أجزاء من كعكة البشر المتلهفين أمام الاستاد لم تكُن كافية، وفي هذا الصراع الأول دُهست أقدام لُمِّعت أحذيتها بعناية، وتمزَّقت ملابس تم شراؤها خصيصًا لهذه المناسبة، قيل إن سائقي الأجرة كانوا يملكون رفاهية رفض الشاب السمين، وإنهم أقلُّوا في مشوارٍ واحد ما يزيد على ثمانية أفراد، وإن شابًا سقط من ميكروباص فخُدش رأسه وحملوه إلى المستشفى.. الأمر باختصار كان عمرًا من المعاناة لمن حضره كاملًا.

لكن هذا كله أصبح مجرد تاريخ للذين أتوا متأخرين مثل «عبد الرحمن»، الطابور عند الورش كان مذهلًا، يتناسل من شارعٍ لآخر من دون ترتيب ولا رقابة، وكأن

الرغبة في حياة أفضل يمكن أن تجعل منك إنسانًا أفضل، طابور مثالي لا يشذ ولا ينبعج، انتشر الباعة الجائلون حوله، وبائعو الخبز الأفرنجي والبسكويت والماء البارد (الذي كان باردًا) والأقلام والدوسيهات والدبَّاسات واستمارات الانتقال وطوابع البريد، التي قيل إن الأوراق لا بُدَّ أن تُزيَّن بها، وعندما اشتدت حرارة الشمس، بزغ باعة المظلات والقبعات. كلُّ تغيُّر في الجو أو شائعة تنشأ في الطابور ويتبادلها الواقفون تُترجم إلى حركة بيع وشراء، حتى بوَّابو العمارات السكنية فازوا بنصيبهم؛ إذ قاموا بتأجير بعض المقاعد بطول الطابور لراحة من يرهقهم الوقوف طويلًا، الساعة بخمسة جنيهات، ثم اضطروا - لكثرة الحالات الإنسانية - إلى تخصيص دورات المياه في غرفهم، البَولة بخمسة جنيهات وخمسة عشر للتبرُّز.

حتى أذان العصر لم يكُن هناك دليل واحد على أن الطابور يتحرَّك، لكنَّه ليس ثابتًا مع ذلك؛ فكل خمس دقائق يتقدَّم خطوة، مع أن المشهد حول الطابور لا يتغيَّر، كأنَّ الجدران تتحرك معهم للأمام، نتيجةً لذلك وفيما بعدُ سيتعرف الواقفون في الطابور إلى بعضهم كأبناء جيلٍ واحد بهذه اللوغاريتمية، بأسماء الشوارع التي ظلُّوا فيها طيلة اليوم.. أين كنت؟ في شارع ٢٥ يناير، وأنت؟ لا، كنت في شارع عرابي، الشارع الذي يليه، لا يهم، كلنا كنا في الهوا سواء، لكنَّك كنت قريبًا مع ذلك، خسارة، لم يصل أحد على أيِّ حال، نعم ولكنك

كنت قريبًا، لا يهم، لا شيء يهم..

أخذ يشعر بالعرق وهو يسيل من ظهره وعنقه، يتسلل إلى أسفل الفقرات القطنية ومنها إلى إليته، و«عبد الرحمن» ليس رجل طابور مبتدئًا؛ فبوسعه أن يعُدَّ من الذاكرة وقوفه في خمسة عشر طابورًا تشبه هذا الطابور بالتاريخ والمكان، وخبرته هذه لم تدفع به فقط لليأس، والعمل لحَّامًا، بل جعلته صلبًا، يقف كوتدٍ ويمرر الوقت كمِزْوَلَةٍ شمسية، مرتديًا قميصًا قطنيًّا على قميص خفيف خارجي من القطن أيضًا، وبنظرة واحدة حوله يرتد إليه بصره بامتنان عميق لخبرة خمسة عشر طابورًا؛ فملابس الطابوريين الجدد تحوَّلت إلى خِرَقٍ تكاد تعصر منها الماء، والروائح والأبخرة تصاعدت منهم بشكل لا يُطاق، وحرارة الجو لم ترحمهم ولم تخفُت حتى بعد أن هدأ شعاع الشمس، كأنَّ جدران البيوت تحبسها وتردها إلى الأجساد، وبسبب الحر بدأ الواقفون يفقدون صبرهم وحرصهم الأول على شكل الطابور، بدأ تدافعٌ بسبب الضيق، وتهيؤاتٌ بالحركة عند السكون والسكون عند الحركة.. ومثل قطار يتوقَّف بشكل فجائي ويسير بشكل مبتسر بدأت المسافات البينية تضيع، في واقع الأمر كان حفاظ «عبد الرحمن» على المسافة بينه وبين الواقف أمامه هو ما جعل التلاصق حتميًا، بدأ يشعر بجسد الشاب الذي يقف خلفه يلتصق به، متعرِّق وحميمي بشكل لا يفسَّر، في المرة الأولى فزع كأنه سمع نخرة في صالة متحف هادئة وفي

الثانية ارتعد، ثم اعتاد الأمر بعد المرة الثالثة.

لحظات الطابور لا يمكن تذكُّرها بتسلسل، الأحداث الكبرى فقط؛ لأنك - في الطابور - ستمتلئ عدَّة مرات بما تظن أنك لن تنساه أبدًا، ثم يأتي حدثٌ كبير ويُنسيك الأحداث الصغيرة كلها، كانت هناك أحداث وحوارات جانبية كثيرة، مليئة بالإحباط، ومن وقتٍ لآخر يظهر بها بعضٌ من أمل، فينتعش الطابور، كانت هناك ضحكات ولم يبكِ أحد، العبوس كان نتيجة الطقس السيئ أو مغالاة البوابين في أسعار الكراسي، يتذكَّر «عبد الرحمن» جيدًا أن شائعة «باب التقديم سيُغلق قبل غروب الشمس» رددها الطابور أكثر من مرة، لكنَّ الطابور ابتلع الشائعة كذبابة في الفم وفي حضور الأمل الجميل، خوفًا من إفزاعه؛ لأنه ضعيف، وهزيل، وربما هرب إذا سمعهم يتحدثون بهذا الطيش في وجوده، لكنَّ تصديق الشائعة لم يكُن مرتبطًا بمرور الوقت ولا تأخره، بل بيقين أن شيئًا لن يحدث مهما حصل، وأن الطابور مستمر ولو انصرف رجال الحكومة، سيظل الطابور منعقدًا للصباح التالي، وسيأتون، حتى لو كان غدًا الجمعة، أو ذكرى ثورةٍ، أو حربٍ انتصرت فيها البلاد، هناك لحظة نؤمن بها بالطابور، بصلابته وقدرته على الوصول بك، وتحقيق الأماني عبر الصبر والدأب، لحظة أن الكل سواسية، وأنه لا ميزة لمتقدِّم على متأخِّر إلا في الوقت، لسنا سلعة، لسنا قفص طماطم، في قاع الطابور ربما يكون الأفضل الذين يريدونهم.

ثم بدأ بوَّابو العمارات في جمع كراسيهم وترددت الشائعة مرة أخيرة: باب التقديم سيُغلق قبل غروب الشمس وسينصرف رجال الحكومة. بعد هذه المرة الأخيرة لم تتردد بعدها، صار الهواء ثقيلًا، عطنًا، أفاق الواقفين على واقع الطابور، الاستغلال والجشع، وعرفوا أن الشائعة الأولى كانت صحيحة: سينصرف رجال الحكومة قبل الغروب ويكتفون بمن استطاع تقديم أوراقه. كانت هذه القشة الأخيرة، بعدها كان الأمر يحتاج إلى صيحة، أو حركة مريبة، أو سبة، لكنَّ هذا لم يحدث، بل صار الطابور أهدأ من ذي قبل، وصارت ريبته أشد، كان الأمل الموجود الآن شيطانيًا وليس إلهيًا، مرتبطًا بالقتل وسفك الدم والكفر البواح، تشبَّع الواقفون بالرغبة في الانفجار، لكنهم انتظروا الإشارة.

أتت لحظة الفوضى من أعلى الطابور، مثل موجة منقلبة، تفككوا قبل أن يصل التدافع إليهم، ليس هربًا من الفوضى، لكن هروبًا فيها، وثار مرجٌ شديد، انضغطت الأجساد إلى شبه عجينة بشرية تعجن نفسها ذاتيًا، ثم تعود لتنفرد من دون أدنى فراغ. بدأ التدافع يحمل «عبد الرحمن» لأعلى، لم تعد قدماه تشعران بالأرض إلا كما يشعر الغريق بالأرض في بداية الغرق، انبعج باب حديدي من أبواب المحلات وخرج عن مساريه وانهار تحت الثقل، وألصق التدافع «عبد الرحمن» إلى بابٍ آخر لمدة لا يعلمها بالضبط، كان الضوء يومض في عينيه وينطفئ، والباب أخضر اللون،

ومن شدة الحرارة والضغط اشتم رائحة الدهان طازجةً، وعندما أخذه التدافع بعيدًا عن الباب لمح قميصه وقد تلطَّخ تمامًا بالدهان.. بالقرب منه، كان هناك فتى مغشيٌّ عليه، لكن المناكب ظلَّت تحمله كعروس «ماريونيت»، رأسه منكسرٌ على كتفه وجفناه يرتعدان، والصراخ والتأوُّهات والشتائم واللعاب والأنين غير كافية لإيقاظه أو إفاقته، وأصوات تمزُّق أقمشة واحتكاك وتلاطم وأجزاء بيضاء عارية من أجساد تلتمع فلا تعرف في أي موضع، أهي إبط أم مؤخرة! كانت الرؤوس رؤوسَهم هم، لكنَّ الحركة التي تحكم الأجساد لا تنتمي إلى الوجوه، حركة قهرية، كأنَّ أسفل الخضم سمكَ قرشٍ يمزِّقهم حتى الموت ثم يلتفت ليقضي على الأحياء ويترك ما تبقى منهم يطفو إلى السطح. لم يغد الأمرُ متعلقًا بالتقاط نفسٍ هواءٍ خانقٍ زفرٍ عطنٍ أعيد تدويره إلى مئات الرئات الملتاعة، بل يتعلق بالكيفية التي ستفرد بها رئتيك في قفص صدري منضغط بعشرات الأذرع والأكواع والرؤوس والأفواه.

في هذه اللحظات، وبإدراك فائق، أيقن «عبد الرحمن» أنه سيظل طيلة ما تبقى له من حياة كارهًا كل ما يمتُّ بصلة إلى الطوابير، والأماكن ذات التجمعات الكبيرة، مواقف الباصات وحفلات الزفاف والحج.. عرف أن خياراته كلها في الحياة ستحكمها هذه اللحظة، الرغبة في عدم تكرارها، والرغبة في التخلُّص منها، وعرف أنه لو نجا ببدنه فلن ينجوَ كليةً، ولو مات فسيموت بكفرٍ

عميق مُسبَّب.

***

المدهوسون.. يبدو أن هذه هي الكلمة الأدق، التي تختصر عبارة الصحفيين الأنيقة التي أطلقوها عليهم بعد الحادث (المضارون في طابور الوظائف).. أدق من دون أن تبدو النبرة أشبه ببكائيةِ ما بعد حدوث زلزال أو حادثة قطار، وشاملة بداية ممن نجا من الدهس ببضعة خدوش نهايةً إلى من مات.. مَن تم تعويضهم بتربيتة على الكتف، ومن دفعوا لأهاليهم في مقابل أرواحهم التي أُزهقت دراهمَ معدودة.. وفي المنتصف: الشريحة التي أُضيرت بشدَّة ضيزًا أقل من الموت، عشرون شابًا تقرر تعويضهم بإيجاد فرص عمل في الجزء الجيد من المدينة، كان «عبد الرحمن» من بينهم.

في المستشفى، عندما أبلغوه بالخبر لم يفرح، وربما لو كان من الذين نجوا – أقول: لو كان - لحسد الذين دُهسوا وفازوا بالختم الحكومي على طلب الانتقال؛ فالأمر لم يكُن يشبهُ حربًا استطاع المنتصر والمهزوم أن ينشد الأناشيد في نهايتها، إنه الحضور الأسوأ من حرب، الجزء المُخزي بعيدًا عن شجاعة الفرار والإقدام، ولو كانت النجاة مُفرِحةً فلن تكون سوى فرحة المبتورين، وما بُتر في «عبد الرحمن» كان فادحًا، في لحظةٍ ما كان ذَرَّةً تطؤها الأقدام، وفي اللحظة التالية أصبح موضعَ حسد.. ما البطولة في ذلك؟

استضافوه عدَّة مراتٍ في برامج تليفزيونية، قائمًا بدور الضحية الجيِّدة على أكمل وجه، التي يمكنها أن توصِّل الرسالة بلا إفزاع، كان هذا يعجبهم، وأصبح

معروفًا، العيون كانت تتعرَّف إلى وجهه في الشارع في أثناء سيره، أكثر ممَّا يتعرف إليه هو في المرآة، خاصةً مع الضمادة البيضاء السميكة والخدوش ولون الكدمات الزرقاء التي سكنت تحت الجلد، وكانت التعليقات تتراوح بين الحسد والشفقة، أما محادثات الشارع العابرة، التي تبدأ بابتسامة وتنتهي بمصافحة، فلا يخرج تدرُّج الأسئلة فيها عن: هل أنت سعيد الآن؟ هل الحالة بالسوء الذي يجعلك سعيدًا بهذا الانتقال؟ هل تعتقد أن مشكلاتك ستُحلُّ بمجرد انتقالك إلى الضفة الأخرى للنهر؟ الحوار جاف، لكنَّ شعورًا بالبلل يتسرب إليه، يبدو الأمر كما لو كان متهمًا في حكاية فتنة، فتنة رجلٍ أحبَّ الوطنَ على حرف وظل على حالة الحب طالما أصابه خيرٌ واطمأنَّ به، فلمَّا أصابه شرٌّ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، لكنَّ الأمر ليس كذلك فعلًا.

عندما بدأ الجميع يتكلمون، محللين ومكتشفين وباكين على ما حدث، ليصير المجتمع فجأة مثقفًا فيما يخص الطابور، ويمتلئ الأفق بعناوين عدة: «آداب الطابور الإسلامية، فوائد الطابور، ماذا لو لم يخترعوا الطابور؟.. كيف تصبح عضوًا فعَّالًا في طابور؟.. حرمة الجسد المسلم».. سمع «عبد الرحمن» أشياءَ يعلمها وأشياءَ لم يكُن يعلمها، من الصحابي الأول الذي قُتل بسبب الزحام، حكايات الشعوب التي تلتزم بالطابور وكيف تقدَّمت، الاختناق وصدمات الرأس والدهس صارت رعبًا مجتمعيًا مؤقتًا، كالرعب الذي ينتاب الجميع

إثر ما يشبه كارثة جماعية كزلزال أو اجتياح طاعون، انتشرت صورٌ تُظهر الأخطاء في ترتيب الطوابير في المدارس ومنافذ المصالح الحكومية، قامت المدراس بتدريبات وقوف في طوابير أشبه كتدريبات الإطفاء، وتمت إذاعتها ليُظهروا للعالم كم أصبحنا حضاريين وبشرًا.

أما «عبد الرحمن»، فلم يعجبه كلام المذيعين والمحللين والخبراء، كل هذا الركام عن آداب الطابور كان يشعر أنه تنكيل، نوع من انتقام الجميع، بعضهم من بعض، في موقف معلن لا مِراءَ فيه، يُتهم الجميع بالصمت، وأنهم بحاجة إلى حادثة ليتكلموا، بلا وعي سابق ولا بصيرة، وعلى رأي الصائح:

- نحن نتحدث عن سوء الخدمة في القطارات فقط إذا انقلب قطارٌ أو دهس أتوبيسَ رحلة مدرسية.. نتحدث عن الفكر المتشدِّد إذا انفجرت قنبلة في مجمع سكني.. نتحدث عن سوء حال المهن المختلفة إذا تعرَّض مُمتهِنوها لحادثٍ غير آدميّ.

مرَّ «عبد الرحمن» بفترة كان فيها مستمعًا جيدًا، صامتًا، يتذكَّر هذا، كان صامتًا، وعندما تكلم وجد نفسه يتكلم مثلهم، وكأنه لا توجد طريقة أخرى لبحث المشكلة، كلما فتح فمه انسابت الكلمات التي تشبههم، ومثل تجرُّع الماء المالح على عطش، يزيدك عطشًا، كلما تكلم احتاج إلى الكلام أكثر وأكثر ليظهر ما يودُّ في الحقيقة أن يقوله، لكنَّ الحقيقة لا تُقال، وصارت الفائدة

من الكلام ليس الشرح ولا التحليل ولا السب ولا الاعتراض؛ فائدة الكلام أن يدخل الهواء إلى الجوف، ويرطّبه، ويقلل من هياج الجروح التي ترقد عميقًا هناك، بلا شفاءٍ ولا دواء.

لكنَّ الذكرى لا تأبه بتابوت الضوء والكلام المنمَّق، كانت تُباغته، رائحة أو صوت أو حركة، تُخدَش الذاكرة، وهو يسير في الشارع، أو في دورة المياه، من دون أن يُغمض عينيه، يسترجع الدقائق التي سقط فيها وكان واعيًا، نعال الأحذية، قسوتها وروائحها وملامحها، ويعاوده الاختناق فيتزحزح إيمانه إلى الحافة المهلكة، يتذكَّر فقدان الوعي وكيف حدث في وقته تمامًا, وكأنَّ كلَّ إنسانٍ فينا تمت معايرته على درجة من القسوة والعذاب يفقد فيها الوعي قبل أن يفقد إيمانه، ويجد نفسه يتساءل ويغرق في أسئلة وجودية.

وليتخلَّص من إيقاع الأحداث الذي يُلهب رأسَه، فكَّر مراتٍ عدَّة أن يعود إلى قريته وإلى بيته، لكنَّه لم يفعل، بل وجد نفسَه غارقًا في حساب الخسائر والمكاسب، الكشف الدوري: ثمن الدواء وأجرة الطبيب اللذان تكفَّل بدفعهما حي شرق، استكمال الإجراءات وانتظار الانتقال، البقاء حتى يتماسك الوعدُ ويتجسَّد، حالة رحيل كاملة أقيمت بداخله مراتٍ عدَّة وانفضت، وفي قاع النفس لم تكُن هناك رغبة للعودة إلى قريته البعيدة التي تركها وسافر إلى المدينة للعمل ظانًّا أنها فترة عابرة، ثم عاد وتزوج من زوجة نهايات الأسابيع

والمحادثات التليفونية الملتهبة والشكاوى العائلية التي لا تنتهي، والبذرة التي سقاها بدأب حتى أنجب «طه»، وفي كل مرة يباشر فيها زوجته كان يعزِّي نفسه بأنها ستكون المرة الأخيرة التي سيفعلها وحقيبة السفر مهيَّأة، ورائحة الملابس المكوية على عجل ومن ابتلال تفغم أنفه، وتقلب معدته المليئة، ثم ماتت أمه، فأقسم أن يكون موجودًا في وفاة أبيه، لكنَّ أباه مات موتًا هادئًا وأبرَّه من قسمه، ست سنوات تبدو له الآن مثل دهر، وليست مجرَّد فترة عابرة، سكن في غرفة صغيرة بشقة يؤجرها طلبة الجامعة، وحيدًا معظم أيام الصيف لا يؤنس وحدته إلا «جاسر»، طالب الإعلام الذي يرسب بمعدل منتظم، وينثر أعقاب السجائر وعيدان الكبريت وحبات الأرز المطبوخة الملتصقة بكل شيء (الوسائد والجوارب والملابس والأحذية).

للتقليل من وحدته، كان يغادر الشقة ويدور في الشوارع؛ نوع من تكسير العظام حتى ينام دفعةً واحدة من دون أرق عندما يعود، ينظر في واجهات المحلات ويصطدم بالناس ويعتذر، يزور المتاحف والمتنزَّهات التي تُباع تذاكرُها بثمنٍ زهيد، ويسير بطول الكورنيش، يسير كثيرًا؛ فالمدينة يشقُّها نهرٌ، ولا فرار منها إلا بالسير عرضًا، أما المتنزهون، أمثال «عبد الرحمن»، فليس لهم إلا طول النهر: كورنيش ورصيف وعمارات شاهقة.. وفي النهر سُفنٌ عائمة تحمل بداخلها فنادقَ ومطاعمَ وملاهيَ ليلية، ضحكات ورنين موسيقى وبكاء أطفال

وصياحهم وهمسات عشق، وصيحات نوتية، يسير وهو يتمثَّل ذكرى الرحَّالة الأوائل، كيف آمنوا بما تحكي عنه كتب التراث! كيف صعدوا مع النهر ولم يكُن هناك كورنيش ولا طريق ولا مدينة، فقط أحراش وبوص وبعوض وأفاعٍ، يبحثون عن الجنة؛ فالنهر - كما تقول كتب التراث - ينبع من الجنة.

كم رحلة صعدت إلى منابع النهر للبحث عن الجنة ولم يعُد رَحَّالتها! ماتوا أو تاهوا أو أكلهم الحيوانات والصقور والتماسيح والبشر، إلا رحلة واحدة، كان بالرحلة اثنان، أو ما تبقَّى منها اثنان؛ فالحكاية ستفسد إن لم يكونا كذلك؛ فالاثنان دائمًا ثالثهما الشيطان، على الرغم من أن الشيطان كثير، يستطيع أن يسكن في حرارة الشمس والبعوض والأفاعي، والبؤس الذي تبدى في الرحلة ككل ليثنيهما، متسللا في الطمي الذي تلوَّن به ماء النهر، ليقفز منه في الشك الذي لوَّث أحد الاثنين دون الآخر، كلما قطعا أميالًا ودبَّ الوهن انحنى الشاكُّ وغرف من ماء النهر وشرب منه وأعلن لرفيقه المؤمن: «نحن نقترب من المنبع، والماء واحد لم يتغير طعمه». فلا يجد رفيقه ما يرد به عليه. تعكَّر النهر أكثر وزادت الحشائش طولًا وظهرت التماسيح والثيران البرية وحيوانات وطيور لا يستطيعان تسميتها ولا وصفها بمجرد أن تغيب عن البصر، كل قُبحٍ في النهر زادت شراسته بينما انمحى أي أثر للوداعة، حتى الماء المسكين، ابن النهر، صارت تعوقه الجنادل وتفتته، لم

يعد الرحّالة الشاكُّ ينحني على النهر ليشرب منه متلمسًا برودة أنهار الجنة وصفاءها قبل أن تختلط بطمي الأرض، لكن من عينه انبجس نهرٌ من الشك لا تعوقه الجنادل، وأخيرًا قال لينهي الرحلة: «إن كان هناك شيء عند منبع هذا الماء فلن تكون الجنة؛ بل جهنم». وكانت هذه المقولة أفدح من أن يبتلعها الرحّالة المؤمن. توقَّف برهةً عن قطع البوص والحشائش الطويلة الاستوائية بمنجله، كانت يداه قد كلَّتا، وفقدت عيناه رؤيتهما الحادة، ووجهه قد مُلئ بالبقع الحمراء والرمادية، ورأسه مدجَّج بضربات الشمس، كان قد شُحذ وشُحذ حتى رقَّ وانكسر، ولا يوجد شيء يمكن أن يجمع قواه المتبقية سوى مقولة كفر، بضربة حاسمة قطع رأس الشاكِّ وعاد.

تقول كُتب التراث: إن من عاد هو من أنشأ المدينة، تتبَّع مسار النهر حتى آخر الذكريات السعيدة وآخر الإيمان المطلق له ولرفيقه؛ فالمدينة بُنيت عند بداية الشك، وكأن هذا جزءٌ من رسالة المدينة التي علَّمتها لأبنائها قبل نشأتها: إن أردت أن تشك، فلا تُحدِّث، ولا تبحث عن برهان.

كُتب التاريخ مختلفة بشكل جوهري، على الرغم من أن الاثنين يحكيان ما حدث لأسلافنا، لكنَّ كتب التراث تمتلك خاصية التصديق المطلق، حتى لو كان تصديقُها متعذّرًا، مثل نهر ينبع من الجنة، والخاصية الإضافية أيضًا، أن كلَّ مَن دافع عن الخاصية الأولى التحق بالخلود حتى لو كان رجلًا يقطع رأس رفيق رحلته

الطويلة. لم ترفق كتب التاريخ بتضحية المؤمن برفيقه، ولا الملكة الكافرة التي احتلت المدينة فيما بعدُ؛ فقامت، أول ما قامت، بإرسال أعوانها لتكسر تعويذة تقديس النهر عند ساكني المدينة، ساروا أكثر مما سار الرحَّالة الأوائل، تجاوزوا النقطة التي توقَّفوا عندها، رسموا الخرائط، قاسوا تغيُّر اتساع النهر في أجزائه كلها، وسجَّلوا حيواناته وحشراته وأفاعيه والأشجار التي تنمو على شاطئيه، وأمراضه المتوطِّنة.. مرُّوا بالشلالات الهادرة والجنادل الصخرية التي يمكن أن تفتِّتَ أكبر مركب من مراكب الأنهار عندهم إلى شظايا، كسبوا ود القبائل ومعونتهم مقابل تبغ وحلوى وزجاج ملوَّن.. وأخيرًا، أخيرًا عندما وصلوا، اكتشفوا أن النهر ينبع من هضاب تمطر عليها السماء طول العام، على الفور أتوا بالعبيد الذين اصطحبوهم شهودًا من جنس سكان ضفة النهر البعيد، أسلافنا المرهقين، ليبهروهم.. انظروا، ها هو النهر الذي تقولون إنه ينبع من الجنة. نظروا، دمعت أعينهم، ثم ركعوا، وبكوا، لم يفهم أعوان الملكة، ليس حرفيًّا، فهموا الكلام ولم يفهموا المنطق، دلف بهم أسلافنا إلى أسطورة أخرى لا يمكنهم تتبعها ولا حتى بعد اختراع الطائرات أو الصواريخ: أليست الأمطار تأتي من السماء، حديثة عهد بربها، وعرش الرب في السماء، وسقف الجنة هو عرش الرب؟! إذًا فالنهر ينبع من الجنة. ضاعت الرحلة سُدًى.

لكن هذه كلها أمور قديمة، سواء عند أهل المدينة الآن

– حي غرب بالذات - إن كانت الجنة عند منبع النهر، أم لا، تشخص أبصارهم للناحية الأخرى من النهر ولسان أعينهم يقول: الجنة هناك، في حي شرق، و«عبد الرحمن» كان على موعد مع الجنة.

***

كرجلٍ يعيش في حي غرب، هناك خطيئة يجب عليك ألَّا ترتكبها، أو تُحدِّث الآخرين بارتكابها، لا تُسمَّى بشكل درامي، كما قد يسميها «عبد الرحمن»: البحث عن حياة أفضل، بل تُسمى تحسين المعيشة؛ ذلك لأنه في مستويات معينة من المعيشة يصبح كسبُ مال زائد إنقاذًا لجزء كبير من آدميتك، وإذا أردت أن تبحث عن حياة أفضل فعليك أن تُخفي ذلك كسوأتك عمَّن اكتفوا بحياتهم، عليك أن تمثل أنك مكتفٍ وراضٍ بمساحتك.. في لعبة الكراسي الموسيقية يجب عليك ألَّا تنتهز الراحة التي جنيتها من جلوسك لتنهض وتسابق المنهكين في اللعبة، وإن فعلت يجب ألَّا تُفصح عن ذلك، وعلاوة على ذلك فإذا أردت أن تكسب الود يجب أن تكون متفاعلًا، هذا بروتوكول تعامُل، عندما يحكي لك أحدٌ عن مديره السيئ يجب أن يكون لديك رئيس عمل أسوأ منه، عندما يحدِّثك أحدهم عن زوجته السيئة يجب عليك أن تتذكر سوآت زوجتك، هذه إهانة أن تترك شقاء أحدهم معلقًا دون أن تتساند.

بعد أن حصل الدهس، انتشرت مقولة على ألسنة المسؤولين الحكوميين في حي غرب، وهي أن معظم أفراد الطابور كانوا مواطنين يعملون بالفعل، بل إن بعضهم مؤمَّن عليهم.. قالوها باستياء وكأن المواطنين يرهقونهم بهذه اللعبة، وكأنهم لا يعرفون أن من يتحدثون عنهم يعملون في مِهَن لا تكاد تكفي لتغطية تكاليف إعداد وجبة واحدة مشبعة لعائلة صغيرة، بداية

من نُذل المقاهي ونهاية بمُعيدي الجامعة، نعم، كان في الطابور معيدو جامعة.

- اعتبر نفسك محظوظًا، غيرُك لا يجد.

هكذا كان موظف مكتب العمل يخبر «عبد الرحمن» كل ستة أشهر وهو يجدِّد تعاقده في العمل، كل ستة أشهر يتم تسجيله كرجل باطل حصل على عمل جديد بينما هو مستمر في عمله القديم، ثم يخرج المسؤولون الحكوميون قائلين بالأرقام: في ظل سياسة الحكومة المجيدة، حصل مِئةُ شابٍّ على عمل جديد، إنهم خمسون في الواقع، «عبد الرحمن» اثنان من هؤلاء المِئة، وسيكون اثنين في العدد المقبل أيضًا، إنه إنجاز الحكومة المتجدد.

لكنه الآن، ولأول مرة، يجد نفسه متفرِّدًا، غير مجبَر على تكرار حكايته، الأخير في دفعة من عشرين شابًا، جميعهم انتقلوا بعد استكمال أوراقهم، ما بين كسر مضاعف ورجة خفيفة في المخ، التأخير أثار ريبته، حتى الطبيب الذي دفعت له الحكومة ليعالجه زاد من تلك الريبة، مظهره وطريقته، صامت كتوم كأنَّ جهةً ما ثالثة تتنصَّت على حديثهما، ولا يتكلم إلا عندما يمسك دفتره وينظر فيه قليلًا، ولا يمسك دفتره إلا بعد أن يرقد «عبد الرحمن» على «الشيزلونج»، كأنه يؤكِّد أن الكلام المتبادَل بينهما كلامٌ طبيٌّ بحت، تساعده ممرضة في تغيير الضمادات، وجهه من أعلى يبدو محتقنًا، يتهدل خدَّاه تهدُّلًا لا يُلحظ فتبدو عيناه أصغر ويلتمع

أنفه التماعًا دهنيًا، لا شك أنه يعيش حياةً مُشبعة؛ فهو من القلة الذين يمتلكون تصريحًا دائمًا للانتقال بين جزأي المدينة، يقال إن الأطباء ذوي التخصصات النادرة فقط هم من يحملون هذا التصريح.

- لماذا أنت متعجل؟

- لست متعجلًا، لكن كل ما في الأمر أن الجميع انتقلوا.

- بقاؤك لغرض الاستشفاء، كلُّ مَن انتقلوا تعهَّدوا بدفع تكاليف العلاج من حسابهم الخاص، هل تريد ذلك أنت أيضًا؟ أتعلم حتَّى كم أتقاضى عن علاج هذه الجروح التي يمكن أن تشوِّه وجهك للأبد؟

تنهَّد «عبد الرحمن»، فزفر الطبيبُ زفيرًا بسيطًا يمكن تفسيره على وجهين، كأنه قرأ شكوكه:

- على كلٍّ، باقٍ من الزمن أسبوع واحد فقط، أول الشهر ستنتقل إلى عملك والسكن الذي أعدوه لك.

جلس «عبد الرحمن»، زرَّرَ ملابسه، تحسَّس ضماداته وتظاهر بالانتباه لما يقوله الطبيب في أثناء كتابته على ظهر ورقة مطبوعة:

- عليك أن تتبع حميةً خاصة في هذه الفترة.

- لإنزال الوزن؟

- سيكون الوزن من ضمن الأشياء التي ستُنزل، لكنَّ الحمية من أجل التوتر والقلق، أنت قلق، وهذا لا يساعد على شفائك بشكل فعال.

- هذه الكدمات توليها اهتمامًا مميزًا.

خطفت عينا الطبيب إلى وجه «عبد الرحمن» سريعًا، وكأنه يخبره: أنا أعرف عملي جيدًا فلا تتظارف، لوهلة ثم عادت وداعته إلى وجهه وعيناه إلى روشتته.

سأل الطبيب سؤاله الروتيني:

- هل تشكو أعراضًا مريبة؟

فتردَّد «عبد الرحمن»؛ هل يذكر له تفاقم النسيان؟! في المرة السابقة قال له إن النسيان عارضٌ طبيعي من أعراض الاختناق الذي تعرَّض له، نسيان ما بعد الصدمة، قال له تحديدًا:

- ستجد صعوبة في تذكر الأشياء القريبة لبعض الوقت.

- الأشياء القريبة؟!

لم يفهم «عبد الرحمن» ذلك إلا عندما وقف في الشارع بشكل فجائي وقد نسي المكان الذي كان ذاهبًا إليه.

نصحه الطبيب:

- ضع في جيبك مفكرة صغيرة، اكتب فيها باستمرار لكي تتذكر، الأطباء يطلقون على هذه الحالة اسمًا دراميًا: فقدان ذاكرة تقدمي، لكن في حالتك لن يستمر النسيان طويلًا من حسن الحظ.

سأله «عبد الرحمن»:

- ما درجة الأشياء التي قد أنساها؟

ردَّ الطبيب مبتسمًا:

- لا تقلق، قد تنسى موعدًا مع سيدة جميلة، لكنك لن تنسى السيدة الجميلة.

ابتسم «عبد الرحمن» للتشبيه؛ فلم تمر في حياته سيدة جميلة أبدًا، إلا زوجته، وهذه مرَّت قسرًا.. واصل الطبيب بجدية:

- حاوِل أن تضع لنفسك جدولًا يوميًا، ترتيب الأمور اليومية وتقييدها بالكتابة أمرٌ جيد، حتى الأصحَّاء يفعلونه.

لكنَّ الأصحاء لا ترتعد أيديهم؛ لهذا فقد أخبره «عبد الرحمن» بالرعشة التي استوطنت يديه من بعد الحادثة، قال الطبيب وهو يزوي ما بين حاجبيه كأنه يجاهد ليرى شيئًا لا يُرى بالعين المجردة:

- ألا تبالغ؟! أنا أرى أنهما لا ترتعدان.

بسط «عبد الرحمن» يديه في الهواء تحت بصر الطبيب، للحظة تبدوان ثابتتين، الارتعاد يظهر لمن يُمعن النظر، يزيد مع الوقت حتى يصل إلى ارتعاد رجل عجوز.

- هل يهمك أن تظل يداك ثابتتين هذا الوقت كله؟ أقصد، هل أنت متيقن أنهما كان بإمكانهما الثبات وقتًا أطول قبل الحادثة.

يكاد «عبد الرحمن» ينطق بجملة شبيهة بـ«نعم، متأكد، فيداي هما برهاني، يداي هما ما أعتمد عليهما

في عملي»، بدلًا من هذا يهز «عبد الرحمن» رأسه، كيف سيفهم الطبيب العبارة لو قالها:

- أنا أعمل لحَّامًا، لحَّام معادن، إذا ارتعدَت يداي أتلفتُ عملي.

- ولكن مكتوبٌ في أوراقك أنك مهندس.

ابتسم «عبد الرحمن»:

- هذه حكاية طويلة.

يقلب الطبيبُ الورقةَ سريعًا وكأنه يتخلَّص من حكاية «عبد الرحمن» المفترَضة قبل أن يشرع فيها، ينهمك في كتابة سريعة وهو يقول:

- يمكنك صرف هذه الأدوية مجانًا من أي صيدلية تحمل الشعار الموجود على الكشف.

لا يرد، يمد الطبيب يده بالروشتة، لكنه يظل ممسكًا بها، بات طرفها في يده والطرف الآخر في يد «عبد الرحمن»، وكأنه يحاول أن يخلق اتصالًا روحيًا عبر ورقة ليخمِّن مدى التزامه بتعاليمه، قال محذِّرًا:

- لا بد أن تتناول هذه الأدوية بانتظام.

قبل أن يغادر «عبد الرحمن» عيادة الطبيب، أخرج المفكرة من جيبه وسجَّل فيها: «الدواء، روشتة الطبيب، صيدلية مدعمة، مجانًا»، ثم أعادها إلى جيبه.

***

العودةُ إلى الشارع الذي دُهس فيه تشبه عودةَ قاتلٍ إلى محلِّ جريمته، يدقُّ القلب حتى ليظن أنه ما عاد بوسعه أن يدقَّ أسرع وأقوى، وفور مروره على المكان الذي وقع عنده يرتج كيانه، يرتفع ضغط الدم للدرجة التي تصبغ الرؤية باللونين الأحمر والأزرق، ويشعر بجلده ثخينًا غبيًا، ثم يزول الأمر تدريجيًا بمجرد أن يمر، ولا يتبقى إلا إنهاك وخدر في الأعصاب والأطراف.

أرسلوا معه صبي بقَّال، قاده إلى بناية قديمة، وليصلا صعدا ثلاث درجات إلى أسفل سُلَّم، ثم توقَّفا أمام باب غرفة ضيِّقة للدرجة التي تجعل دخول اثنين معًا متعذِّرًا، فتح له الفتى الباب وانتظره بالخارج لحين انتهائه، سيسجِّل ما سيأخذه ويجعله يوقِّع باسمه من واقع بطاقته الشخصية، كان عملًا تطوعيًا ويجب أن ينتهي «عبد الرحمن» بسرعة لكي لا يؤخِّر الصبي عن عمله، لكنَّه وقف مذهولًا.

غرفة بدروم، تصعد على جدرانها وتهبط مواسير الصرف الصحي وخطوط ومضخات الماء المنزلية الصغيرة، الأرض مكدَّسة بصناديق من الورق المقوى التي تغصُّ بالأحذية والملابس الممزَّقة والأوراق الثبوتيَّة والهواتف المهشَّمة.. الأشياء التي جمعها الأهالي بعد يوم الطابور، احتفظوا بها لأصحابها، الجهد الذي بُذل كان واضحًا، لم يتركوا شيئًا، حتى الأزرار التي فتقت عُراها وتناثرت جمعوها في ثلاثة برطمانات كبيرة، أقعى على ركبتيه، أخذ ينبش بحرص، المكان

حار وخانق، ورائحة العرق تفوح من الملابس والأحذية فتصيب «عبد الرحمن» بالذعر، تعيده إلى حالة الطابور، ومن وقتٍ لآخر يسمع المواسير وهي تخضُّ ماء الصرف إثر انتهاء ساكن من أداء حاجته، وتسود رائحة مسلخ للحظات، لكنَّها تعيد إليه صوابه.

لم يعثر «عبد الرحمن» على أوراقه، فتغاضى عنها، بحث عن هاتفه، كان مدهوسًا مهشَّمًا، أسوأ من صاحبه، لكنَّ شريحة الخط سليمة، نبش بقايا الهاتف وانتزعها، وخرج بسرعة، تنفَّس هواء الشارع، وأملى على الصبيِّ ما أخذه.

استعاد طمأنينته بعد شارعين، اشترى هاتفًا صغيرًا مستعملًا، وقف في الظل واتصل بزوجته، لا يتذكَّر بالضبط كيف سار الاتصال بينهما، لكنَّها بكت، فوعدها أنه بمجرد أن ينتهي الأمر وينتقل سوف يعود بإجازة طويلة إلى البيت، لم يخبرها عن مضاعفات الدهس، فقط الكدمات التي رأتها على التلفاز، قال لينهي المكالمة:

- أريدك أن ترتاحي، لا أرغب في أن يرى «طه» وجهي بالضمادات، لو أردتِ شراءَ شيءٍ من هنا، اكتبيه وأرسليه في رسالة.

قالت:

- لا أريد إلَّا عودتك.

بمجرد أن أغلق معها، انهالت الرسائل والمكالمات، عرج على مقهى في الطريق وجلس على نضد في زاوية

هادئة، أخرج دفتره الصغير وأخذ يسجِّل الرسائل المرسلة: «متى ستعود إلى العمل؟ زملاء العمل القلقون. إن لم تعُد خلال هذا الشهر سأضطر إلى تكليف لحام بديل بالموقع.. رئيسه في العمل غاضبًا. أخوه الكبير يسأله: أنا في المدينة، كيف أصل إليك؟ وزميل دراسة من أيام الجامعة: رأيتك في التلفاز، ألف سلامة عليك، ورجل (أو امرأة) مكتب شؤون التوظيف والانتقال بحي شرق يتمنَّى لك شفاءً سريعًا (إسرا...)، هل نسي الهمزة على السطر: (إسراء؟)»..

سجَّل «عبد الرحمن» بعض الملاحظات الأخرى، لم يرد على اتصال واحد، فقط اتصل بأخيه الكبير، رد عليه وكان مستاءً، أخبرَه أنه غادر المدينة، وأنه سأل عنه في المستشفى، وفي السكن القديم، ثم سأله:

- متى انتقلت منه؟

فأجاب «عبد الرحمن»:

- منذ سنتين تقريبًا.

- وكيف حالك الآن؟

- الحمد لله، أتنفس، الحمد لله على كل حال.

- أين أنت الآن؟ هذا صوت حجارة دومينو، هل أنت في مقهى؟

- نعم، أستريح من المشي، مَواضِع الكدمات والجروح في وجهي تؤلمني إذا سرتُ في الشمس وقتًا طويلًا.

قال يلومه:

- لم تكُن جيدًا في التلفاز، وجهك شاحب، كأنَّ الكاميرا ستعضك.

قال «عبد الرحمن» مسددًا ضحكة تمريرية:

- أنت تعرف أخاك.

- نعم نعم أعرفك جيدًا.

ثم قال بعد تردد قليل:

- هذه فرصة جاءتك على طبق من فضة، لا تضيعها.

- نعم، عندك حق.

- لماذا لا أشعر بحماسك؟! هل حدث شيء؟

- لا، أنا بخير فعلًا.

- سأزورك. لا تغلق هاتفك مرة أخرى.

- حاضر.

أنهى المكالمة مع أخيه الكبير وهو يشعر بحزن لا يعرف مصدره، لم يعتَد بعدُ على الاستسلام لمضاعفات النسيان، النوافذ المفتوحة في خلفية ذاكرته تفزُ منها الأسباب والأحداث تاركةً الأثر، تصفَّح الأسماء التي اتصل بها واتصلت به حتى وصل إلى رقم زوجته فتذكَّر كيف بدأ الحزن، حزن النساء يبلِّلُ القلب، بالذات ذلك الحزن المضمر الذي يدل ولا يفصح، كتب في دفتره ما سيقوله لزوجته في بداية المكالمة التالية، جملة كاملة، مسهبة:

- لا أريدك أن تبكي مرة أخرى، أنا بخير، البكاء لا يخفف الأمور، أحيانًا الخوف من أشياء يتسبب في

ضرر أكبر مما لو وقعَت.

قبل أن يقوم من مكانه وصلته رسالة جديدة من رقم غريب: «قابلني عند مقهى السعادة بعد نصف ساعة.. مهندس طارق عبد العزيز».

***

«احترس.. الكوبري على وشك الانهيار، لسنا مسؤولين عن سلامتك!».

(حي غرب)

لو أن الموظفين الحكوميين لم يضعوا هاتين اللافتتين على مدخَلي الكوبري الأول والكوبري الثاني لم يكُن الحال ليصبح أسوأ مما هو عليه بالفعل؛ اكتظاظ بالدكاكين وبالأهالي، الرجال وربات البيوت، بأولادهن ومن دونهم، الباعة المتجولين، الشحاذين وتجار الشنطة، وكأنَّ اكتشافَ شروخٍ في الأساسات الخرسانية وإغلاقهما مجرد مزحة، السور الكلاسيكي تم توصيله إلى سقف الكوبري بألواح من الصاج المعرج، والمساحة الداخلية تحوَّلت إلى محلات.. المحلات خشبية، لكنها مدهونة بعناية، الأهالي يقولون: إن الشيء الوحيد الموجود في مكانه الصحيح بالمدينة هو سوق الكوبري؛ فالتجار لا يدفعون للحكومة إيجار الأرضية كما هو الحال في السوق الشرعية داخل المدينة، وبوسع أي تاجر أن يبيع أي شيء وبأي ثمن ما دام زبونه موجودًا ويدفع، لهذا فكل شيء موجود ورخيص، والنكتة تقول: إنك لو سألت عن شيء ولم تجده فسيخترعونه

ويبيعونه لك في المرة التالية. هنا أناس يفكرون في أن الزبون دائمًا على حق.

بمجرد أن تلج الكوبري لا تكاد تصل إلى طرفه الآخر من شدة الزحام، تجد نفسك في رقصة مجنونة من الحركة؛ فالمحلات تتداخل واجهاتها للدرجة التي تجعلك تصطدم بالزبائن وتحتك بالكاونتر ويلسع ذراعَك كوبُ الشاي الساخن الذي يحمله أحدهم، ويثقب أذنيك نداءُ الباعة المتحمسين.

في سوق الكوبري مَن يمارسون الحياة الكاملة، يأكلون ويشربون ويتاجرون ويبولون ويتفكَّهون بصيد السمك وشيِّه وإلقاء عظامه، يشربون روح النهر ثم يعيدونها إليه منهكةً ملوثة، أول ليلة أقامها «عبد الرحمن» بالمدينة كانت هنا، أول طعام كان سمكًا مشويًا، وأول مشروب شاي ساخن وثقيل جدًا على مقهى الصنايعية، مقهى السعادة، وأول عمل حصل عليه كلحَّام غير متدرب، بعدها انطلق في الحياة، لهذا لم يكُن غريبًا أبدًا أن تصله رسالة: «قابلني عند مقهى السعادة»، ويستجيب لها؛ ففي العمل الذي يزاوله ينتقل من مهمة عمل لأخرى بهذه الطريقة، رقم الهاتف والاسم وتزكية ويجتمع فريق عمل، ولا غرابة أيضًا في الاسم الذي يسمعه لأول مرة، مشفوعًا بلقب مهندس؛ ففي مجاله يصبح الجميع مهندسين ودكاترة وأساتذة ومساعدي وزراء إن أمكن.

مقهى السعادة يقع خلف مجموعة محلات الكوبري

الثاني، ومن الصعب العثور عليه ما لم تَتُه فتتعثر به صدفةً أو يقودك أحدُ العارفين به، مثل جيب سحري يدسُّ فيه الكوبري زُوَّارَه المنهكين، ممر مغلق رطب تحتل صدارته نصبة لإعداد أكواب الشاي والسحلب والقهوة، الأكواب الزجاجية المغسولة معلَّقة خلف رأس القهوجي تقطر ماء على ظهره؛ فالمساحة التي يتحرك فيها لا تكاد تكفي ليستدير، والأكواب لا تجف من ماء الغسيل؛ فالمقهى لا يفرغ من زبائنه في أي وقتٍ من النهار.

عندما وصل «عبد الرحمن» إلى المقهى تصفَّح وجوه الناس، وعندما لم يجد وجهًا يعرفه جلس وطلب شايًا، كوبين متتاليين من الشاي الثقيل، منتظرًا قدوم الرجل الذي أرسل له الرسالة، وأن يتحول وجه عابر، على منضدة قريبة، يحتسي شايًا مثله، إلى وجه المهندس «طارق»، لكنَّه لم يأتِ.

اتصل «عبد الرحمن» بالرقم الذي أُرسلت منه الرسالة، كان الهاتف مغلقًا، سدَّد حسابه وانصرف، عاد أدراجه في هواء وقت العصر، الزحام أخف، ما يتيح له رؤية الأرض اللزجة العامرة بالفوضى، عجينة خضراء من الطين والخضراوات النافقة: ليمون فقأه دوس الأقدام الثقيلة، سمك صغير وقشور صفراء وبنية وفاكهة تالفة لم يرضَ بها الزبائن فأُلقيت، والفتحات بين الكمر الحديد والعوارض الخشبية تُتيح رؤية لمحات وامضة من ماء النهر، هناك فتحات أكبر تمت تغطيتها بصاج

خفيف لا يتحمل ثقل إنسان إذا وقف عليه بكامل وزنه، يحفظ رواد الكوبري هذه الأماكن ويتجاوزونها أو يطؤونها بقدم واحدة.

يسير خلف «عبد الرحمن» رجلٌ خمسيني، أصابع طويلة، وشعر أشيب، وهاتف مغلق يعبث به في جيب سرواله، كان يجلس أيضًا على مقهى السعادة، وسدد حسابه بعد «عبد الرحمن» مباشرة وتبعه، يسير خلفه، وأحيانًا بمحاذاته، وقد أوشك أكثر من مرة أن يناديه، فتح فمه وتشكَّل النداء على هيئة صياح، لكن اللسان لم يقدح الزناد.

كان «عبد الرحمن» شاردًا عن تتبُّع المهندس «طارق» له، ثم انتزعه من شروده أصوات وصياح واندفاع تجاه فتحات السور، اندفع مع الناس مقاومًا فزعه الرهيب من أن يُداس، فوق الكوبري الثالث البعيد رأى رجلًا – أو ربما امرأة - يقف على الحاجز، لا بُدَّ أنه واقف هناك قبل وقت طويل كافٍ ليخمِّن الناسُ نيته وليضمن جمهورًا هائلًا، الكورنيش امتلأ بالسائرين، والسيارات توقفت، أفرغت أصحابها وزبائنها، صيحات وتصفيق وصفافير وأبواق سيارات لا يأبه سائقوها بالحدث بقدر اهتمامهم باللحاق بمواعيدهم.

عندما قفز ساد السكون، بدا المنتحر أشبه بكتلة ساكنة سوداء تسقط بثقلها الحر من دون مقاومة، كأنه مات بالإيحاء قبل أن يصطدم بالماء ويصارع الاختناق. لحظة اصطدامه بالماء، شهق الناس شهقةً واحدة، كأنَّ

هدَّافًا شيطانيًا أحرز هدفًا في مرمى الآخرة، وفي هذه اللحظة ارتعد «عبد الرحمن» وتفكك شيءٌ بداخله.

***

الفصل الثاني
الكوبري الثالث

أيقظه «جاسر» عندما عاد في الصباح، قال إن ساعي البريد رفض أن يعطيه الظرف الأصفر، مكتوبٌ على الظرف «يُسلَّم باليد للأهمية»، انتظره الساعي بالخارج ريثما استيقظ «عبد الرحمن»، غسل وجهه سريعًا وخرج إليه، رأى ساعي البريد هُويته وجعله يوقِّع وسلَّمه الظرف، كان خطابًا من هيئة الانتقال والتوظيف بحي شرق، يمكن لأي شخص أن يعرف ذلك، من دون أن يقرأ المكتوب على الظرف، من الختم الخاص والعجيب والشهير: رأس رجل يمسك بُوقًا وينفخ فيه.

«نرجو منك التوجه إلى ٧ شارع الجمهورية لملء الاستبيان الخاص بطلب الانتقال» (التوقيع: إسراء، أو إسرا).

العنوان قريب، بعد ثلاثة شوارع، سبق أن مرَّ به «عبد الرحمن»، مبنى فخم وواجهة من الزجاج العاكس الذي لا يشفُّ عمَّا يدور خلفه، الآن بالخطاب الذي معه صار بالداخل، يرى المارين المتعبين وهم يتأملون الزجاج بدهشة كما كان يتأمله هو، ولعلَّهم يتساءلون كما سبق أن تساءل: أخلف هذا الزجاج المعتم أناس مثلنا؟ فلطالما قيل إن سكان حي شرق من طينة مختلفة!

المكان هادئ، ليس ساكنًا، بل هادئ، متصالح مع أصواته وحركة الناس فيه، وكأن مَن صممه وضع في حسبانه كيف سيتحرك الناس فيه، كيف سيرون بعضهم البعض، وكيف سيتفاعلون بالكلام والإيماءات، كيف

سيقع البصر، ويعمل الفكر، ثم تنطق الشفاه.

كل شيء مفضَّض وناعم ويملأ قبضة الشعور، لكنه لا يُزحمُها، والناس يتحركون في الحد الفاصل بين الراحة المريعة والكسل، الجدران بين المكاتب أيضًا من زجاج، والموظفون يتحركون ويتكلمون ويضحكون ويعبسون كأنهم تدرَّبوا على الوقوف أمام الكاميرا حياةً بأكملها، وفي الحياة التالية جاؤوا للعمل مع مكتب حي شرق.

قالت له الموظفة الفاتنة بابتسامة مشرقة:

- مرحبًا بك سيد «عبد الرحمن»، اسمي إسراء ناظم، المسؤولة عن حالتك.

تأملها.. لا، لم يتأملها، بل اختلس نظراتٍ سريعةً متلصصة.. تأخذ بطاقته الشخصية وتذهب، متجهة نحو الكاونتر الزجاجي، تشبُّ لترتفع وتنحني هناك كسلًا عن أن تدور حوله، تأخذ ورقة من رُزم ورق كثيرة، تنظر فيها وتعود، وهي تتحرك تلوِّن الكادرات، تنثر مغناطيسيتها، تضيف الشيء الناقص في التفاصيل الكثيرة، وتضبط ملح الرؤية المبهجة للذكور، ثم تضع الورقة أمامه على نضد زجاجي، ليس بها إلا أربعة أسطر، ورقة فخمة زبدية ينغرس فيها سن القلم وكأنه سيكتب فيها حسناته التي فعلها في الدنيا ومن ثَمَّ سيُدخلونه إلى الجنة مباشرة، القلم من نوعية فاخرة، به شاشة ساعة رقمية صغيرة وبوصلة، قلم «جيمس بوندي» إن صح القول، متعدد الوظائف.

قالت إسراء ناظم وهي تشير إلى الورقة:

- الاستبيان من أربعة أسئلة، الدرجة النهائية أربعة من أربعة، لو كانت إجابة السؤال بـ«لا» تأخذ درجة كاملة، ولو أجبت بـ«نعم» ستخسر الدرجة، ونصف درجة إن كانت الإجابة بـ«نعم» على أحد أقاربك، نجاح الاستبيان من درجتين فقط، وهناك درجة إضافية على الصدق في الإجابة، هل لديك أسئلة يا سيدي؟

- أشكركِ جدًا.

انصرفت تدقُّ بكعبَي حذائها وأمسك «عبد الرحمن» الورقة وأخذ يقرأ الأسئلة:

١- هل سبق لك – أو لأحد أقاربك من الدرجة الأولى - القيام بعمل إجرامي؟ (نعم - لا).

٢- هل سبق لك – أو لأحد أقاربك من الدرجة الأولى - الانتماء لجماعة مخربة أو إرهابية؟ (نعم - لا).

٣- هل سبق لك – أو لأحد أقاربك من الدرجة الأولى - العمل في مهنة سرية أو مهينة أو خادشة للكرامة؟ (نعم - لا).

٤- هل سبق لك – أو لأحد أقاربك من الدرجة الأولى - أن كان له تاريخ من المرض النفسي؟ (نعم - لا).

استغرق «عبد الرحمن» وقتًا ليفهم الأسئلة، للوهلة الأولى تبدو أسئلة اعتيادية، لا زيغ ولا اختلاط، لكنَّ الذاكرة الآن بالتحديد تملك القدرة على التآمر، القدرة

على أن تشاكسه وأن تطرحه أرضًا. شرد «عبد الرحمن» وأخذ يدير القلم على النضد الزجاجي ويتأمل كيف يطفو مؤشر البوصلة ليشير إلى اتجاه واحد، لو أن السؤال الأول خاص بحيازة مطواة قرن غزال أو الاتجار في الهيروين، فضلًا عن القتل أو السرقة، لكانت إجابته سهلة، لكنَّ العراك في المواصلات العامة، والدفاع الشرعي عن النفس، قطع شجرة أو البناء في أرضٍ بغير تصريح، شكوى كيدية، هذا كله يعتبر جريمة، رسميًّا.. وماذا عن السؤال الثاني: جماعة مخربة، هل هو التفجير أو مهاجمة قسم شرطة، أم التظاهر والتحدث مع ضابط شرطة بحدَّة؟! أن يكون أحد أقاربك قد صلى في المسجد الخطأ أو مر في الشارع الخطأ في الوقت الخطأ، أو حملته الخفة والطيش إلى تغيير العالم بالفكرة! وما المهنة المهينة في السؤال الثالث، قوَّاد، طبَّال خلف راقصة، أم فراش، بواب عمارة، أم نازح خراء من مجاري الصرف العام؟! السؤال الرابع هو السؤال الوحيد الذي يمتلك «عبد الرحمن» ثقة كافية للإجابة عنه: لا، لستُ مجنونًا، لا أنا ولا أحد من أقاربي، رسميًا على الأقل.

في السنوات التي عمل فيها في حي غرب، عاش «عبد الرحمن» حياةً كاملةً حتى رأى، وعاش حياةً أخرى حتى عمي، وهو الآن يفتح عينيه مثل طفل صغير، ليبهره الضوء.. في العام الأول من عمله لحَّامًا

كان يذهب ويعود مع مجموعة عمل ثابتة، حياة مختلطة: يأكلون ويشربون معًا، وينامون في مكانٍ واحد، في كشك متحرك في العراء يسمونه «كَرَفَان»، تعلَّم عند خروجه ليلًا للتبوُّل أن يتمضمض بماء بارد وأن يصنع بأصابعه أمام أنفه كهفَ دفءٍ صغيرًا لكي لا يصاب بالبرد بعد دفء الأنفاس التي كانت في رئتيه منذ ثوانٍ، تعوَّد على الأكل بسرعة وعلى الكلام بغموض، تعوَّد على طعم الشاي المختلط بالقهوة والينسون والسحلب، طعم واحد مراوِغ تحمله الملعقة إلى علبة السكر، وزوايا الكوب غير المغسول جيدًا، تعوَّد أن يُغمِض عينيه ويستسلم للنوم في السفر ولا يُرهق نفسَه بتفاصيل الطريق في ذهابه وإيابه، كانت حياة خشنة لتجعله يظنُّ أنه ليس من السوء أبدًا أن يكون أبوه قد سُجن في قضية صغيرة، وأن أخاه الأوسط قد ضُرب أو اعتُقل في مظاهرة فيها عدد لا يمكن حصره، لم يفكر قط في أن عائلته سيئة الحظ، أو مفرطة في تطرفها؛ فالحياة بلا خدوش كهذه تتطلب أن تظل ساكنًا في مكان لا يمر فيه أحد، ألَّا تتعاطى مع الحكومة ولا تتعاطى هي معك، تفصل الكهرباء عن بيتك لتضمن أن محصل الكهرباء لن يطالبك بالفاتورة، وتقطع الماء لتضمن أنهم لن يتهموك بسرقة الماء، وحتى مع ذلك، قد يأتون يومًا ما ويتهمونك بإشغال حياة يجب أن تكون متحركة.

ولكن الآن ماذا؟ هذه الرقَّة تدينه، هؤلاء البشر حوله، مواطنو حي شرق، يشبهون الملائكة ويمكنهم أن يسقطوا صرعى لو قال كلمة نابية أو نخر بأنفه، أو يتسمموا لو تنفسوا هواءً له رائحة ذكرياته وخواطره.. إنه يفكر الآن فيما ترتديه الملائكة وهي بلا نوازع ولا رغبات، وهذه الفتاة الفاتنة التي ترتدي ملابس قصيرة بأكمام من الدانتيل الوردي، يمكن لهذا الشاب الرشيق مكتمل الذكورة أن يبيت معها في غرفة واحدة دون أن يغتصبها؛ لأنه يظن أن الطريق الأمثل لالتهام امرأة يبدأ من تناول قلبها بشوكة وسكين فضيين.

هذه الرقة تدينه وتفضحه، ولزيادة الفضيحة جاءت إسراء ناظم عندما لاحظت نظراته إليها، سألته في قلق:

- هل تريد السؤال عن شيء في الاستبيان؟

نفى «عبد الرحمن» بهزَّة من رأسه، وأمسك القلم ليشرع في الإجابة لينفي تهمة التردد عن نفسه فابتعدت.

السؤال الأول، قام بالتصليب على «لا»، السؤال الثاني: «لا» أيضًا، السؤال الثالث تردد قليلًا قبل أن يصلب على «لا»، السؤال الرابع: طبعًا «لا»، انتهى.

لم يرفع الورقة ليشير بها، تركها على النضد الزجاجي الملون، بإهمال، وكأنه يؤكِّد أنه لم يُجهَد نفسيًا في إجاباته عن أسئلة هذا الاستبيان الغريب، جاءت

الموظفة بسرعة بمجرد أن وقف ومن دون أن تنظر إلى الورقة قامت بطيها ووضعتها في ظرف أصفر ولصقت دفتيه بلاصق دائري عليه طابع المكتب، ثم منحت «عبد الرحمن» ابتسامة عندما انتبهت إلى مراقبته لها..

سألها متصنعًا اهتمامًا لا سخرية فيه:

- هل توجد جائزة لمن يحصل على الدرجة النهائية؟

- لم يسبق لأحد من حي غرب أن حصل على الدرجة النهائية.

- لماذا؟

- لا أعرف، تصحيح الورق ليس من اختصاصي.

- إذًا، كيف أحصل على درجة الصدق؟

- لو أجبت إجابة صحيحة وأنت تعلم أن الصدق يجعلك تخسر درجة السؤال.

قامت بوضع القلم في علبة من القطيفة الزرقاء، وابتسمت وهي تعطيها له.

- القلم هدية من حي شرق، نتمنى لك يومًا سعيدًا.

***

للمرة الأولى ينتبه «عبد الرحمن» إلى أن ملامح الطبيب تصبح مع كل لقاء شاذة وغريبة، الوجه الأبيض الدهني يصبح ناتئ الملامح، والكتفان إحداهما أكثر انخفاضًا من الأخرى، والعين اليسرى تطرف عندما يكون عصبيًا، كل هذه التفاصيل تفاجئ «عبد الرحمن» الذي

اعتاد أن يكون أكثر تسامحًا مع الملامح، كأنه يمرُّ بعلاقة عكسية، تبدأ بالتعرُّف وتنتهي بالاستنكار، يخشى أن يكون هذا عارضًا مرضيًا، لكنه لا يجرؤ على إخبار الطبيب بذلك، بدلًا من ذلك يخبره بتفاقم النسيان:

- أتذكَّر كل ما حدث لي قبل الدهس، كل شيء متصل وقوي وكامل، أما في الحاضر فلم تعد الأسماء كافية لتذكُّر الأشياء القريبة، لا بُدَّ من فعلٍ ومفعول به.

ثم فتح له مفكرة مواعيد السيدة الجميلة، وقد كادت أوراقها تنفد، جعله يرى الأيام التي يزوره فيها للكشف، كيف تحولت كلمة «قهوة» إلى جملة كاملة مثل رسم متتالٍ: «اشترِ.. قهوة»، «اشترِ قهوة لجاسر الحصري»، «اشترِ قهوة لجاسر الحصري من أرابيان كوفي»..

- تصور يا دكتور، ثلاث مرات قبل أن أتمكَّن من القيام بأمر بسيط مثل شراء قهوة لزميلي في السكن.

تصفَّحَ الطبيب المفكرة الورقية وهو يهز رأسه بأسف:

- لماذا تعاند نفسك وتُرهق ذاكرتك بلا طائل؟! المشكلة ليست في كتابة جمل كاملة، بل في كتابة كل شيء تريد أن تتذكره، دع بعض الأمور بلا كتابة لتدرِّب نفسك على التذكُّر.

- تقصد أن أتوقَّف عن كتابة كل شيء؟!

- ليس بالضبط، فقط اكتب الأشياء المهمة جدًا: الأرقام والمواعيد.. ودرِّب ذاكرتك، احفظ أرقام

السيارات التي تمر عليك وأنت تسير في الشارع وحاول أن تتذكرها بعد دقيقة، ونادِ الناس بأسمائهم، انسَ تمامًا كلمات «باشا» و«بيه» و«أستاذ»، استرخِ وخذ الأمر كتسلية.

- كيف يمكن أن أسترخي وليس لديَّ من المال ما يُعيشني، يجب أن أنتقل وأتسلَّم عملي قبل بداية الشهر.

- ومَن لديه مِن المال ما يكفيه يا صديقي؟ كلنا هذا الرجل.

قال هذا وجذب من دفتره ورقة جديدة، وبينما يسرد نصائح لم يعِها «عبد الرحمن»، أخذ يعيد كتابة الروشتة، وبعصبية شدَّد عليه الالتزام بالأدوية، ثم سأله:

- من جاسر الحصري؟

***

كان قد سبق لـ«عبد الرحمن» رؤية عشرات من الذين سقطوا، وسمع صرخاتهم، وارتطامهم بالأرض، رأى الدم والأعضاء التي تحطَّمت والرؤوس والبطون التي انفقأت وخرجت مكنوناتها وصعدت منها الأفكار والشهوات كغازٍ نادر حفظ للحياة طَفوَها واستمرارَها، بل أكثر من ذلك؛ وطَّن نفسه أن حياته قد تنتهي بالطريقة ذاتها، عقدة حبل لم يحكم رباطها جيدًا، حلقة معدن ضعيفة، وضع غير متزن، في الأعلى زلة قدم واحدة تفضح هذا كله، والاستمرار في الخوف من طريقة واحدة للموت يجعلك محصَّنًا – نفسيًا - ضد الطرق الأخرى، وطيلة سنوات عمله لم يذر بفكر «عبد الرحمن» مرةً أنه من الممكن أن يموت في مستوى الصفر، من دون سقَّالات ولا صعود ولا مخاطرة، هل يوجد سقوط من مستوى الصفر؟ لكن عندما دُهس في الطابور تبيَّن له أن الأرض ليست بغدًا مؤتمنًا أيضًا.

مشهد صامت، كالذي رآه قبل أيام عند سوق الكوبري، لم يكُن ليؤثر فيه كثيرًا إلا بمقدار الارتعادة الخفيفة التي شعر بها، لا صراخ ولا دم، دسَّتِ السماءُ المنتحرَ في جيب النهر من دون جلبة، كصدقةٍ لا تُرد، لا علامة ولا إشارة، ومن بين مشاهد الموت التي شاهدها كان هذا أكثرها تواضعًا، قال لنفسه معزيًا: الحياة تستمر.

وهو عائد من ميعاده مع الطبيب، وجد نفسه يسير على الكورنيش قريبًا من موضع الحادثة، سمع المارة يتحدَّثون عن منتحرٍ آخر، فوجد نفسه يسير إلى المكان

الذي أخرجوا منه المنتحر الغريق.. على الرصيف المتاخم للنهر، رأى «عبد الرحمن» كثيرًا من الطحالب والعشب الذي حمله جسد الغريق وجففته الشمس جزئيًا، والسور الذي اتسخ بالطين على هيئة أصابع وأقدام.. وفي النهر، كانت المنطقة التي تمت جرجرة الغريق خلالها مهتوكة، قال أحد المارة لظهر «عبد الرحمن» عندما لاحظ توقفه: «البقاء لله»، اعتقادًا أنه يعرف المنتحر. توقَّف البعض وقال آخر موضحًا بخشونة: «المنتحر كافر»، اعتقادًا أنه مارٌّ مستطلِع، وقال أحد المتعجلين: «أفسِح الطريق»، اعتقادًا أنه متسكِّع، فسار إلى الأمام حتى وصل إلى ظل الكوبري، جلس على طاولة إسمنتية، همس رجلٌ كان يجلس هناك قبله، يستريح وينظر إلى النهر:

- لقد وضعوا واحدًا هناك.

فسأله:

- أين؟

أشار لأعلى:

- فوق الكوبري.

- لماذا؟

- أهذا سؤال تسأله؟! وضعوه طبقًا ليمنع الناس من الانتحار.

- رجل شرطة؟

- لا، موظف عادي، يلبس مثلنا ملابس مدنية، ويقولون

إنه منع ثلاث محاولات انتحار حتى الآن.

***

لا يوجد سُلَّم للصعود إلى الكوبري مباشرةً من أسفله، وللوصول يجب أن تمر بنفق يتفرع إلى اتجاهين، الاتجاه الأبعد يقودك إلى الضواحي وإلى وسط البلد، والاتجاه الأقصر يصعد بك قريبًا من مدخل الكوبري لمن لا تتعدى أشغاله الأماكن المتاخمة للكورنيش.

ينزل الناس درجَ النفق وكأنَّهم ينكفئون من شدَّة الميل، نفق دائري مبطَّن ببلاط أحمر صغير، تومض أضواء النيون من سقفه وتنطفئ، يستقبل أنف «عبد الرحمن» خليطًا من الروائح يلزمه دهرٌ لتمييزها وإعادتها إلى أصولها، لكنَّ الغالب عليها روائح العرق والشاي والتبغ المبلل، وبعضٌ من عطور رخيصة وكتان مصبوغ، كل مكان في النفق يجود برائحته؛ فالباعة يحتلون ببضائعهم ثُلُثَي النفق من الناحيتين: ملابس نسائية وأغطية رؤوس وأحذية قماشية وبلاستيكية، لعب أطفال رخيصة وعلب سجائر متنوعة الماركات، كتب قديمة وقلامات أظافر وأدوات زينة وأجهزة كهربائية مجهولة المنشأ، أقراص كمبيوتر ممغنطة عليها عناوين دروس دينية وأفلام وأغانٍ، بضائع لا حصر لها، وصيحات تُعلن عنها وتصم أذنَي «عبد الرحمن» وهو يسير ويتفادى أيدي الشحاذين وأقدام المشردين كما يتفاداها السائرون مثله، من دون أن ينظروا في وجوههم أو يأبهوا للشكاوى، يمر هنا يوميًا مئاتُ

القادمين من خارج المدينة، وفي رؤوسهم يدور السؤال نفسه: ما الذي يمثله النفق في جغرافية المدينة، غير كونه درسًا، رحلة مفزعة لمن لا تحملهم سياراتهم الخاصة ولا يملكون ثمن سيارة الأجرة ويضطرون للمرور فيه دومًا، يُري الزائر الجديد وجه المدينة الكالح، ويعلِّمه الدروس اللازمة: أن يكون حريصًا على جيبه وألَّا يتوقَّف لأحد ولا يلين القلب لساقٍ مقطوعة أو ذراع تبرز من الأسمال بلا كف؟! ووجد «عبد الرحمن» نفسه يسأل السؤال نفسه: ألم يكُن من الأفضل والأسلم أن يضعوا سُلَّمًا رأسيًا للصعود ملتحمًا بالكوبري أو مؤديًا إلى زاوية من زواياه؟ ما ترتيب وجود النفق في المعادلة الوجودية للمكان؟ هل بنوا الكوبري أولًا ثم النفق، ومن ثَمَّ منعوا سيارات الأجرة أن تُسقط ركابها في الأعلى وصكوا المخالفات الوبيلة ليجبروا المارة على المرور في الأسفل، أم بنوا الكوبري ثم منعوا التوقف عند مدخله وعندما كثرت المخالفات حفروا النفق؟ تبدو هذه الأسئلة وجيهة للغرباء، يحلو لهم أن يطلقوها بسخط وبلا تدبر، وبلا إجابة.

وجد «عبد الرحمن» الممر الأقرب للنفق مغلقًا بلافتة وبعض الجمالونات الإسمنتية، فسار في الاتجاه الأخير حتى خرج إلى الأسفلت العلوي ليعبر الطريق إلى مدخل الكوبري، تدهمه رائحة عشب مائي مسلوق في حرارة الشمس، ورائحة خافتة للغاية كتلك التي تفوح من يد صياد سمك، كثافة المرور على الكوبري لا تليق

بضخامته، سار «عبد الرحمن» حتى صار قريبًا من المتراس الذي أقامته الحكومة على الكوبري لتنظيم المرور، بالضبط عند النقطة التي رأى الرجل يلقي بنفسه من عندها، توقَّف «عبد الرحمن»، ولا يعرف ما الذي دفعه لفعل ذلك! قام بتجربة انتحار، أمسك بالحاجز ووضع قدمَه في أحد تجاويفه، صعد، فصار ثقله مُلقًى بأكمله على السور، بينه وبين أن يجد نفسه في الماء خطوتان للصعود وهواء حُر، صعدهما حتى تجاوز بكتفيه قمة الحاجز، مال بجسده، لم يأبه به أحدٌ واستمر الناس في السير، بصق فتفتَّتَت بصقتُه من شدَّة الهواء واختلطت برذاذ النهر قبل أن تبلغه، حينها أدرك «عبد الرحمن» أن موظف الكوبري شائعة أطلقتها الحكومة.

***

أغلق «عبد الرحمن» الباب خلفه فجاءه النداء من الغرفة التي تقع بجانب المطبخ المشترك:

- لماذا تأخرت؟

كان «جاسر» جالسًا على سريره بملابسه الداخلية، يدخِّن ويُسقط الرماد في علبة سجائر فارغة، أمامه كتاب يستطيع «عبد الرحمن» أن يراهن أنه لم يقلب صفحته منذ غادر السكن في الصباح، منتظرًا الشيء الذي جعله ينظر إلى يد «عبد الرحمن» بفرحة شديدة:

- أخيرًا اشتريت القهوة التي طلبتها منك!

- كدتُ أنساها هذه المرة أيضًا، لولا أنني تكلمتُ مع الطبيب عن هذا الموضوع بالذات.

قال «جاسر» مشفقًا:

- وماذا قال لك الطبيب؟

- لا شيء مهمًا، أعطاني روشتة أخرى مدعمة من صيدلية لا أستطيع العثور عليها، بحثت في أربعة شوارع رئيسية ولم أجد صيدلية عليها الشعار، يبدو أنني سأشتريها هذه المرة أيضًا على حسابي الخاص.

ما الذي قاله «عبد الرحمن» للطبيب عندما سأله عن «جاسر»، طالب الإعلام المقيم معه في السكن؟ لم يصف له شعره المجعد، وحواسه المنفلتة التي جعلته خبيرًا بالصنف السيئ من النساء، خبيرًا بأماكنهن، ماذا يأكلن وهل يشربن أم لا، من نظرة واحدة يعرف كم سيكلفه قضاء الليلة مع إحداهن، وأين يقع الجزء الطري

من قلوبهن ليضغط عليه فتصبح الليلة بلا ثمن، رسب في دراسته ثلاث سنوات، السنة بسنتين، كأنه يحجل على قدم واحدة، مقيم دائم في السكن مثل «عبد الرحمن» وإيجار مخفَّض، بعد أن طلب منه أبوه ألَّا يعود في الإجازة الصيفية لكي لا يذكِّرهم بفشله.

قبل أن يغرق «عبد الرحمن» في النوم، جاء «جاسر» ووقف عند رأسه، مرتديًا ملابسه وتفوح منه رائحة عطره المميز، قال له:

- هات روشتة الطبيب لأصرفها لك، أعرف صيدلية بعيدة.

سيستغرق «عبد الرحمن» في النوم بعد انصراف «جاسر»؛ فلن يعود إلا قرب الفجر، كان هذا مناسبًا لطريقة حياتهما قبل الحادثة، يترك «عبد الرحمن» السكن بالنهار ويترك «جاسر» السكن في الليل، اتفاق أقوى من أي صداقة تقوم على الود.. في بداية تعارفهما، ظلَّ «جاسر» لبعض الوقت مُصرًا على جرجرته معه بدافع إنعاشه من العمل، وأن الحياة لعب وجد، لكنَّه يئس بعد محاولات دؤوب، قائلًا له:

- أنت كائن مثالي، بيتي، لا تحب الليل، ولا المقاهي، ولا التسكُّع.. لو كنتُ مثلَك لأنهيتُ دراستي منذ ثلاث سنوات وأصبحت مذيعًا أقبض بالآلاف.

الليل، النهار.. يصبح «عبد الرحمن» حزينًا لسببٍ لا يتذكره في الحاضر، ولأسباب كثيرة يتذكرها في الماضي، لكنَّه لا يستطيع أن يبكي على التاريخ؛ لهذا

يظل قلبه في القاع، مكرسحًا، لا يصعد، ينظر إلى أعلى، وفي الأعلى ضوء لا يومض، ضوء ينتظر منه أن يفسِّره، ويتعاطى معه، لماذا أنت حزين يا «عبد الرحمن»؟! لا تستطيع أن تنكر أن «جاسر» سعِدَ بحصولك على فرصة، وأكثر ما أسعده أنك حُزتَها عن طريق الضعف لا القوة، لتثبت أن طريقته في الحياة هي الأصلح:

- انظر إليَّ يا «عبد الرحمن»، أنا رجلٌ فشلت في دراسة الإعلام، وأنت مهندس، أنا أسهر طيلة الليل في المقاهي والبارات، أشرب وأدخن وأصاحب النساء، وأنت تنام لتستيقظ مبكرًا لعملك، ولا تشرب الماء البارد حفاظًا على صحتك، كل حواديت الأطفال ونصائح الآباء تقول إنك الأفضل، ستعيش طويلًا، رجل ناجح، رب أسرة مكافح لم ينتظر الوظيفة واشتغل بمهنة أقل بكثير من مستوى شهادته، هذا ما يجب أن تصدقه لتظلَّ مطمئنًا، لكنْ صدِّقني، عندما تأتي الفرصة لا تفرِّق بين رجل يستيقظ في الخامسة ورجل ينام حتى الظهر، وهنا في حي غرب الفرصة هي ما تجعلك تحيا.

بعد دهسه، صحبه «جاسر» من المستشفى إلى استوديو التصوير، وكانت لعلاقاته أثرٌ كبير في الدفع بـ«عبد الرحمن»، عن طريق مُعدي البرامج، ليصبح وجهًا معروفًا، وكثيرًا ما أسبغ عليه النصائح وحرَّك خيوطَه من خلف الستار، وحاول بشتَّى الطرق أن يستثمر اعتياد الناس على وجهه ليجعله نجمًا، لكنَّ «عبد الرحمن» خذله.

- هذه هي الفرصة الحقيقية يا صديقي، لا الانتقال إلى حي شرق، يمكنك أن تؤلِّف كتابًا، أو نبحث عمَّن يؤلِّف لك كتابًا ونضع عليه اسمك، تنشئ حزبًا معارضًا، أو تصبح أيقونة حزب موجود بالفعل، تصعد لتكون نجم إعلانات، أو ممثلًا شهيرًا؛ وجه عبد الرحمن أبو الخير أصبح علامة مميزة، اترك لي نفسك سنة واحدة فقط، وسأجعلك مليونيرًا.

لكن «عبد الرحمن» لم يترك نفسه، دستة العبارات التي كان «جاسر» يلحُّ عليه في كل مرة أن يقولها أمام الكاميرات لم يقُلها؛ خجلًا من عائلته وأصدقائه وزملاء العمل، قبل أن يكون خجلًا من نفسه، خجلًا من الجهد والعرق الذي سفحه طيلة ست سنوات، على الرغم من حكايات «جاسر» الكثيرة عن افتعال المشاهير وألاعيبهم، الانتحار بالحبوب المخدرة وافتعال الشذوذ في الأفعال والآراء، والخيانات الزوجية وأخبار الطلاق والتدين ثم التوبة من التدين، و«كل هذا مفتعَل يا صديقي، لإعادة الأضواء أو تسليطها، وأنت الأضواء مسلطة عليك سلفًا، أنت نَجم، الناس تحبك».

لم يدرك «جاسر» أبدًا أن طريقته في تصوير الأمر هي ما يُنفِّر «عبد الرحمن» من الفعل، وأنه في جزء من حكايته آمَن بقدرة الكلمة والضوء على أن يجعلا العرق والجهد والمعاناة تقع في موضع إثمار، وأنه أبصر أكثر من مرة بابًا أنيقًا يمكن أن يلج منه إلى مرحلة مشرِّفة من حياته يكرِّسها للدفاع عن المدهوسين، لكنَّ «جاسر»

لم ينفك عن تحذيره، وقصقصة الكلمات الصاخبة وترويض حديثه، وإن كان قد رفض أن ينطق بكلمات «جاسر»، فـ«جاسر» أيضًا لم يدعه ينطق بما لذَّ له، وعندما أثمرت كل هذه الحركات البهلوانية أخيرًا كان «عبد الرحمن» قد كفر بكل شيء إلا بالتعويض المناسب لإصابته؛ فقبل أيام عرضت شركةٌ على «عبد الرحمن» أن يقوم بدور في إعلان من إعلاناتها مقابل مبلغ محترم، لكنَّه رفض، كانت القشة الأخيرة في رحلته مع «جاسر».

* * *

المرة الأولى التي سمع فيها صوت «إسرا» عندما اتصل به رقمٌ غير مسجَّل عنده، صوت رجل، جاد وهادئ، عرَّفه بنفسه أولًا:

- «إسرا»، رئيس قسم التوظيف والانتقال بحي شرق.. أرجو أن تفهم أن هذا الاتصال شخصي تمامًا، للاطمئنان والسؤال، بعد ذلك سيكون التواصل بيننا عن طريق الأوراق الرسمية، ولا تقلق على ذلك، هذه الطريقة أسرع وأكثر مهنية.

قال «عبد الرحمن» بحذر:

- تشرفت بمعرفة حضرتك.

لم يرد بـ«وأنا أيضًا تشرفت..»، بل شرع في سؤاله مباشرة بلهجة رجل اعتاد على التفخيم:

- هل الطبيب الذي رشحناه لك يُبلي معك جيدًا أم لا؟ إن كان لديك أي شكاوَى يمكنك تقديمها.

- كلا.. إنه جيد.

- أريدك أن تعلم أنه مُطالَب بتقديم تقرير أسبوعي مفصَّل، وهناك فريق من الأطباء على استعداد ليتدارسوا حالتك معه من وقت لآخر، أرجو أن تأخذ نصائحه على محمل الجد.

قال «عبد الرحمن» بعد تردد:

- هل سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا؟

- أي أمر؟

- الانتقال، تسلُّم العمل.

- نحن نسعى إلى اختصار الوقت، عملك جاهز بالفعل وينتظرك، لكنَّ الطبيب لا ينصح بانتقالك الآن.

لعنة الله على الطبيب.. قالها «عبد الرحمن» في نفسه.

- هذا جيد ومُطمئِن، أشكركم جدًا.

- لا تشكرنا، لقد استحققت ذلك، هل لديك أسئلة يمكنني الإجابة عنها بشكل شخصي؟

- نعم، كنت أريد أن أعرف فقط طبيعة الوظيفة التي سأشغلها.

- في الواقع، نحن لم نرشحك بعدُ لعملٍ معيَّن، لكنَّنا درسنا سيرتك الذاتية جيدًا، نعرف مهاراتك، ونتفهم طبيعة مرضك، وبناءً على هذا سنختار لك عملًا مناسبًا، لا تقلق، ولا أريدك أن تتجاوب مع الشائعات.

- أي شائعات؟

تنهَّد «إسرا» وكأنَّ الأمر أضيقُ من أن يحاصره في كلمات واضحة:

- الفرصة التي حصلتَ عليها يحسدك عليها الكثير، وسيسعى الجميع إلى بث الشك في نفسك، هل تعرف الاسم الذي يُطلقه أهالي حي غرب على الكوبري الثالث؟

- لا، لا أعلم.

- يسمونه «المعبر».

- المعبر!

يردد «عبد الرحمن» مندهشًا، كانت هذه هي المرة

الأولى التي يسمع فيها الكلمة، لكنَّه سيسمعها كثيرًا بعد ذلك، في الشارع وعلى المقاهي والحافلات المارة في الشوارع، يجد الناسُ اللفظَ مختصرًا ومعبِّرًا، يدغمونه ويستبدلون الراء بحرف منزلق، وسيعتاد على نطقه، لدرجة أنه عندما يقابل «إسرا» سيجاهد لسانه عدة مرات لكي لا ينطقه أمامه؛ لأن الكلمة تثير ضيق «إسرا» وتستفزه؛ لذا قال لـ«عبد الرحمن» سريعًا:

- أخبرني، هل سمعت عن حوادث الانتحار من فوق الكوبري الثالث؟

قال «عبد الرحمن» وقد خفق قلبه:

- نعم، رأيت واحدًا منها.

- لا أخفي عنك سرًّا، أحد المنتحرين كان شابًّا من الشباب العشرين، لم نعلن الخبر حتى الآن، والصحافة لا تعرف.

- لماذا انتحر؟

- الانتحار عدوى، فكرة تنتشر، إحباط أو شك، لا أعرف أسباب هذا الشاب، لكنْ لن يخلو الأمر من معلومة خاطئة أو نوبة يأس، ولهذا أتصل بك، كما اتصلت بباقي الفائزين بالمنحة، وأخبرك كما أخبرتهم: نحن لا نقوم بنقلكم إلى حي شرق لامتصاص الغضب الشعبي مما حدث في الطابور أو أي سبب آخر سوى التزامنا بتعويضكم عن المعاناة.

يحتشد فم «عبد الرحمن» بالريق ولكنه لا يبتلعه فيكاد يغصُّ به، يسود الصمت فينخسه «إسرا»:

- باشمهندس «عبد الرحمن»!

- نعم؟

- أريد أن أحذرك، سيأتي مَن يربط هذا الانتحار بالتسمية الغريبة التي بدأ الأهالي يطلقونها على الكوبري.

- المعبر؟

- نعم، ولأن كل الضوء مسلط عليك أنت فأنا أطلب منك طلبًا مهنيًا، لمصلحة الجميع، لا تذهب إلى الكوبري الثالث.

***

تقول إنها «إسراء»، لكنَّ الاسم لا يعني شيئًا في حياة رجلٍ امتلأت فجأة بالغرباء الذين يتصلون للاطمئنان، والزملاء الفكاهيين؛ فمنذ وقوع الحادثة وتلف هاتفه والجميع يمارسون اللعبة نفسها: يرن الهاتف، وبمجرد أن يسأل السؤال المعتاد: من معي؟ لا يجيبه المتصل على الفور، بل يعيد إليه سؤاله بسؤال مرادف: ألا تعرف من معك؟ في البداية كان لديه من حسن النية والفضول ما يجعله مستعدًا أن يخوض حديثًا كهذا: «لا، لا أعرفك. كيف هذا؟ لا تميز الصوت حتى! لشد ما غيرتك الأموال، وعلى سيرة الأموال، كم يقبضونك الآن؟».. وهلم جرًا.

الآن، صار يغلق الخط في وجه المتظارف، فيتصل الرقم مرة أخرى، لا يرد على الفور، وعندما يرد يقول الآخر اسمه غاضبًا وينهي مسألته.

لكنها قدمت نفسها أول ما تكلمت:

- أنا «إسراء».

سأل:

- من؟

فأجابت:

- موظفة مكتب الانتقال التي...

ببطء شديد ارتسمت في ذهنه صورة ملابس قصيرة بأكمام من الدانتيل الوردي، ركبتين مثاليتين، كما في المنحوتات الإغريقية، وذراعين لا يبدو فيهما عِرق واحد كأنَّ خامة اللحم والجلد تتغذى على شيء آخر غير الدم،

على الشغف والرغبة.

- و.. هل تتذكرني؟

- نعم، نعم.

تتنهد في راحة كأنها لم تتوقَّع أن يتذكرها، وتقول:

- نسينا الصور.

- ماذا؟

- صورك الشخصية التي يجب أن نُلحقها بملفك، نسيت أن آخذها منك.

قالت ذلك بلهجة مغموسة بالفجيعة، فقال مخففًا:

- لا عليكِ، سأحضرها غدًا لو أردتِ.

صاحت مفزوعة:

- لا، هذا خطأ لا يُغتفر، عملنا حساس، ولو عرف مديري ستكون مشكلة.

في حديثها اصطناع لا يلحظه إلا رجل عملي، دعوة مفتوحة، لكن «عبد الرحمن» اعتاد في مثل هذه المواقف أن يمعن في البراءة:

- هل أرسلها بالبريد إذًا؟

قالت بعد حيرة قليلة بلهجة مَن نفدت حيلها واضطرت اضطرارًا:

- لا، سأقابلك وآخذها منك، انتظر اتصالي.

***

الفصل الثالث

مواعيد السيدة الجميلة

كان يمكن لليومِ أن يمرَّ من دون أن يغيِّر حياتَه، ذهب «جاسر» في رحلة إلى بلده لطلب الدعم المادي واللوجيستي، استيقظ مبكرًا وحلق ذقنه وارتدى ملابس نظيفة ومكوية، وأخذ بحذائه الملمع يدق في الصالة جيئة وذهابًا حتى غفلت عينا «عبد الرحمن» فعاد للنوم، وعندما استيقظ كان «جاسر» قد انصرف.

ما الخيارات التي يمكن أن تتيحها ذاكرة مراوغة في صباح صيفي هادئ كهذا؟ ثلاثة أكواب من الشاي قبل أن يبلغ النهارُ ظهيرتَه، وإفطار مضاعف، ومرتان ارتدي فيهما ملابسه ثم خلعها، متذكرًا أن ميعاد الطبيب ليس اليوم، لكنَّ القلق لم يتوقف عن دفعه، لديه شيء مهم، مهم جدًّا للدرجة التي تجعله موجودًا في سديم ذاكرته، على الرغم من أنه نسيه، بحث في مفكرته الخاصة بالمواعيد، وفي رسائل الهاتف المحمول، بحث في الأرقام التي ردَّ عليها خلال يومين، ولم يجد شيئًا مميزًا.

ليُطمئن ذاكرته المثارة، سيقوم بعملٍ مرادف، أقرب في الشبه بما نسيه، يجب أن يرتدي ملابس الخروج، نعم، يرتديها للمرة الثالثة، ينزل إلى الشارع، ينظر إلى هاتفه مرارًا وتكرارًا، ما نسيه أقرب شبهًا الآن إلى بالون انفلت من عقال طفل صغير، يطير فوق رؤوس الناس، يصطدم بالشرفات، يعلو ويهبط ينفخه الهواء، يخرج إلى الشارع الرئيسي، يخوض في زحام المراهقين وعَرَقهم النفَّاذ أمام السينما قبل ميعاد الخروج الرسمي

من المدرسة، يعبر أمام واجهات محلات ملابس وخبز أفرنجي وأحذية وإكسسوارات هواتف نقَّالة، ثم يتوقَّف قليلًا أمام محل الزهور ليراقب النحل على زجاج واجهته وهو يحاول النفاذ إلى طعم الرحيق بعد أن رأى لونه، يسير قليلًا، يمل من المطاردة فيقرر أن يشتري لوازم الغداء ويعود.

كان يمكن لليوم ألَّا يغيرَ حياته لو اشترى ما يريده من البقالة التالية وعاد، لكنَّه دفع نفسه وجسده للأمام قليلًا، عشرون خطوة بالتمام مررته أمام واجهة زجاجية لمطعم فخم يطل على الرصيف ويرتفع عنه قليلًا، رأى اثنين جالسين على مائدة، الرجل يمسك بيد الفتاة التي ترتدي حذاءً رياضيًا وملابسَ مدرسية، رجل أربعيني، والفتاة لم تبلغ العشرين، لكنها مصرَّة على دفع الأنوثة غصبًا إلى وجهها من خلال ألوانه الفاقعة، المشهد منمنمة مكررة من مشاهد المدينة، الرجل ألقى صنَّارته فغمزت بسمكة صغيرة لا تملأ المعدة، لكنَّه مُصرٌّ على التهامها بكل الطقوس اللازمة، «عبد الرحمن» لم يفكر في عقدة الحدث بقدر ما لفت انتباهه التناقض الصارخ بين يد الرجل المُحب وحذاء الفتاة الرياضي، كرسم بياني للحب الذي يزيد وينقص من قلبٍ إلى قلب، أي نوع من الفتيات تلك التي تذهب إلى ميعاد رومانسي بحذاء رياضي؟! وأي رجل يمسك بشغفٍ يدَ فتاةٍ ذهبت لتناول الغداء معه بحذاء لن تذهب به إلى محطة باص؟! عندئذ، تذكر فجأة ميعاد اليوم.

***

وهو يسرع الخُطى تجاه المطعم، كان يحارب ضد الضباب الذي يعتم ذاكرته، وفي كل مرة عندما يوشك على السقوط في العتمة يتشبَّث بوجهها، الأنف الدقيق والفم الواسع قليلًا، المتناسب مع شكل الشفتين، الرأس والعنق والشعر الكثيف المجتمع في خصلات وكأنه مبلَّل.. «إسراء». قالت له بعد أن أخذت الصور الشخصية:

- هل تحب الأسماك؟ أعرف مكانًا يعدها جيدًا، أفضل مني شخصيًا.

لم يكتب العنوان والميعاد، بدا له من المستحيل أن ينسى ميعادًا كهذا، لكنَّه نسيه، حرفيًا كما قال الطبيب، وكأنها نبوءة: «ستنسى ميعاد السيدة الجميلة».

عبَر الشارع وهو يتساءل: هل ملابسه مناسبة للذهاب إلى ميعاد كهذا؟! نظر إلى قدمه وكأنه يتوقع أن يجد حذاء الفتاة الرياضي فيهما، لماذا لم يطلب من «جاسر» ملابس مناسبة؟! لكن لا، ليس هذا هو السبب، السبب أنه يعلم أنها ستقابله بعد انتهاء عملها مباشرة، قال لها:

- لا أريد أن أرهقك بعد يوم عمل.

- أنا مُصرَّة على تنفيذ اعتذاري.

هل ستأتي بملابس العمل مباشرة إلى المطعم؟ ملابس جميلة، لكنها لن تكون مناسبة لتناول الغداء في مطعم:

تنورة حمراء قصيرة فوق الركبتين ورابطة عنق، هل

اسمها أيضًا للإناث كما للذكور: رابطة عنق؟ على الرغم من أنها لا تربط شيئًا بقدر ما تنثره، رابطة من الحرير، كثَّة ومنجمعة أسفل ذقنها وكأنها تحذِّر من الوقوع في نهر البياض اللبني الذي تقع بدايته عند صدرها.

لا تقلق على النساء يا «عبد الرحمن»؛ فبوسعهن تغيير ملابسهن في رحم ضيقة، كالزهور عندما ترمي بتلاتها وتنشق عنها البتلات الجديدة بغضِّ النظر عن طبيعة الأرض التي أنبتتها، لكنَّه لم يمنع نفسه من التساؤل: هل ستقوم بتغيير ملابس العمل الرسمية في حمام السيدات، أم في غرفة مكتبها، أم أن لديهم في هذا المبنى الفخم مكانًا خاصًا تخلع فيه النساء ملابسهن للحاق بميعاد بعد العمل؟!

كانت تنتظره، ترتدي سروالًا قماشيًا أبيضَ قصيرًا يُظهر أناقة حذائها (الحمد لله، حذاء بكعب عالٍ) وقميصًا أزرقَ، اختفى الكرافت الأحمر فظهرت دقة عنقها وتشرُّبه بحمرة محببة، وأن النمش لم يكتفِ بتناثره الخجول على وجهها ممتدًا إلى مكانٍ في جسدها لا يعرفه إلا الله، وزوجها، وأمها التي أنجبتها.

دخلا مطعمًا هادئًا، تسوده رائحة عطرية خافتة كرائحة الصندل ولحاء الشجر على كفَّي حطَّاب، أطباق السلطة والطحينة والأرز مرسومة بدقة فنان، وسمكتا بوري مشوي تؤنسهما قبضة من الجمبري الأحمر المقشر.

- الشيء الوحيد الذي يمكن أن تأكله خارج بيتك كوجبة هو السمك.

قالت، فابتسم «عبد الرحمن» وكاد يخبرها أن الوجبة التي هبطت من السماء إلى الحواريين كانت سمكًا أيضًا، وأن أول طعام أهل الجنة سيكون كبد حوت، لكن هل سيكون مناسبًا أن يذكر الجنة وموائد السماء على مائدتها، الثواب والعقاب والقلوب المطمئنة بطعام السماء في حضرة امرأة تنثر القلق في القلب؟! هل تحب النساء ذكر الجنة، كمرادف سماوي لوجودهن على الأرض، كدالٍّ ومدلول؟! اكتمال الحالة بعد ماذا؟ نقصانها!

- «إسراء»!

- نعم؟

- لماذا طلبتِ مقابلتي؟

لا.. لن يكون بهذا الغباء ليبدأ حديثه هكذا، هذا إن استطاع أن يبدأه أصلًا، مقاطعًا إياها وهي تتحدث بإسهابٍ بديعٍ عن المطعم، كأنها تملكه، وتسجِّل فقرة إعلانية مقنعة للغاية حول مميزاته، السمك يأتي من شِبَاك الصيادين إلى هنا مباشرة، والطباخون يعملون بالرتم ذاته مهما بلغ ضغط العمل، أحيانًا قد تنتظر بالساعات وجبةً واحدةً، لكن من يعلم قيمة الأشياء يصبر، وفي الأسفل مكان لتناول المشروبات، البدروم مكيَّف؛ لأن الهواء البارد - كما تعرف - يصعد مع الهواء، أشارت بباطن كفها إلى أعلى، ومطاعم الأسماك لا يصح أن تكون مكيَّفة؛ لأن تدوير الرائحة في منظومة التبريد يؤدي إلى وجود روائح عير مستحبة..

لن يصبح وجهها مألوفًا لعينه أبدًا، حتى لو صار بإمكانه أن يتصفحه بلا خجل شديد، تشجعه على ذلك لهجتها التي تغيَّرت تمامًا خارج نطاق عملها كموظفة؛ فعلى مدى ثلاث مرات تحدثت فيها إلى «عبد الرحمن» بدت مِهنيَّة جدًا وقلقة وحريصة على عدم ارتكاب أخطاء، إصرارها أن يعطيها الصور في مكان بعيد عن المكتب، وفي الميعاد نفسه الذي يجلسان فيه الآن بدعوة منها إلى الغداء كاعتذار بسيط، خلف هذه الفوضى كلها يوجد أمر آخر غير الصور الشخصية والاستبيان، هذا الباب المفتوح على مصراعيه إليها، وهذه الابتسامة الفاتنة التي تطفر من وقت لآخر على وجهها، وتصنع للخيال مضمارًا طويلًا ليرمح فيه حتى يُنهك.

سألته:

- هل أعجبك الطعام والمكان؟

- طبعًا، لدرجة أنني تمنيت أن أكون أنا صاحب الدعوة.

- لا تقلق على هذا الأمر، يمكنك أن تردَّ لي الدعوة بدعوة على العشاء.

- اليوم؟

- هيا، لا تكُن غشيمًا، بل في يوم آخر.

- إذًا لماذا لا تكون دعوة على الغداء كهذه؟

- دعوات الغداء للنساء، والعشاء للرجال.

- هل هذا بروتوكول متبع هناك؟

- أين؟

- في حي شرق.

- لا أعرف صراحة، لكنَّه بروتوكول مناسب لي، لا أحب أن يدعوني رجل على الغداء.

- ألم يسبق لرجل أن دعاك على الغداء في حي شرق؟ أعتقد أن...

- لا طبعًا، كيف يمكن ذلك؟

- وكيف لا يمكن ذلك؟

- لا أملك تصريح المرور، أنت تعلم، على الرغم من عملي معهم هذه المدة كلها، هناك قانون في الواقع، يجب أن تمر خمس سنوات معهم لكي...

- عملك؟ يعني أنكِ لستِ منهم، أقصد أنك لا تقيمين في حي شرق!

دقت على المنضدة بسَلَّاميات يدها وهي تُمعن في الضحك:

- صح النوم يا باشمهندس، أنا من هنا، من حي غرب.

***

انتقلا إلى البدروم المكيَّف، طلبت هي شراب الليمون وطلب «عبد الرحمن» كوب شاي بالنعناع، قالت:

- غير مسموح بعمل مواطني حي شرق هنا؛ لهذا فكل من يعمل بالمكتب من حي غرب، لكنَّ هذا لا يعني أن بإمكان أي شخص أن يعمل معهم، لديهم مواصفات خاصةً جدًا، معظمها تدل على عناية: الوزن والطول، لكنَّ بعضها غبي ولا تستطيع أن تفهم الحكمة منه: شرط الزواج مثلًا، وهو الأهم على الإطلاق، لا بُدَّ أن تكون متزوجًا.

- شرط غريب فعلًا.

- ليس هذا فقط، هناك أسئلة يطرحونها في استبيان مكوَّن من ثلاثين ورقة مكتظة، أتعلم؟ لقد رأيت انزعاجك من الأسئلة الأربعة، لكن لو رأيت الأسئلة التي اضطررتُ إلى الإجابة عنها قبل التوظيف لأشفقتَ عليَّ، والشرط المهم في الإجابة عن الأسئلة هو الصدق، أعرف أناسًا تم رفضهم للعمل لأنهم زوَّروا تاريخهم المرضي أو أجابوا خطأً عن قصد عن أسئلة بخصوص عائلاتهم.

- وما الذي يجبرهم على الكذب؟ أقصد: أليس هو عملًا مثل أي عمل؟

- أنت رجل طيب، الجميع يعرفون أن راتب مكتب الانتقال عالٍ جدًا، كافٍ ليجعلني أعيش كملكة هنا.

سألها «عبد الرحمن» بعد تردد:

- إذًا، هل كنتِ متزوجةً أم تزوجتِ من أجل هذا

الشرط؟

- بل تزوجتُ. زواجٌ ذو طابع خاص جدًّا، زوجي متفرِّغ تمامًا للبيت وتربية طفلنا الوحيد، وأنا أتمتع بمميزات الجنسين في الحقيقة: حلاوة امرأة وسيطرة رجل، والفضل للعمل مع حي شرق.

قالت هذا بلهجة لا تجلب البغضاء، لهجة عادية تمامًا، كأنها تطرح مسألة أخلاقية تم حسمها ولا علاقة لها بذلك، وأخذت تقلِّب الثلج بالماصة البلاستيكية.

- لا أفهم الحكمة من هذا الشرط العجيب، أقصد أن يكون موظفهم متزوجًا، لكن لا بُدَّ أن لديهم أسبابًا.

تنهَّدت، كأنَّ الأمرَ ذو شجون، أو يصعب شرحه وتصديقه، ثم قالت معترفة وبلهجة المجني عليها:

- في الحقيقة، هذا شرط للتحايل.

صاح «عبد الرحمن» مندهشًا:

- التحايل!

- نعم؛ فالموظف إذا أمضى معهم في الخدمة خمس سنوات يكون من حقه أن ينتقل للإقامة في حي شرق.

- أول مرة أسمع عن هذا القانون.

- لأنه ببساطة غير مفعَّل بسبب شرط الزواج، من المتعذِّر أن ينتقل الموظف من دون زوجه أو زوجته.

سأل «عبد الرحمن» في حذر:

- وهذا الانتقال لا يشمل الزوج؟

قالت باعتيادية:

- يشمل الأبناء فقط.

- إذًا زوجك...

- زوجي رجل قوي، يعرف ما يجب علينا فعله من أجل مستقبلنا ومستقبل ابننا، وهناك حالات كثيرة... أقصد: كما يتحايل القانون نتحايل نحن أيضًا.

- كم سنة متبقية لك حتى تتمي السنوات الخمس؟!

- ثلاثة أشهر وثلاثة أيام.

- وبعدها؟

- بعدها سيكون الطلاق، لكنَّها مجرد شكليات، ليس لهم إلا الورق، ولا أحد يعلم ما يدور خلف الأبواب المغلقة، المهم في الأمر هو المفارقة، تزوَّجت لأتوظَّف، وسننفصل لأنتقل.

- هل يمكنكما ذلك؟

- يمكننا جدًّا، أنا لا أعلم كيف هو الحال هناك، لكنِّي أعرف كيف هو الحال هنا، وما أعلمه جيدًا أنه لا يمكنني أن أعيش طول حياتي في هذه القذارة. وصدِّقني، ليست مبالغة.

وارتعد صوتها وهي تقول:

- لكن لا أريدك أن تظن أن الأمر بسيط، وعلى الرغم من اقتناع زوجي التام بالمبدأ فإنه كلما مرَّ عامٌ ازداد شغفًا بي، أنت محظوظ، هل تعلم ذلك؟! كان زوجي متقدمًا عليك في الطابور، يفصل بينه وبين مكان تلقي الأوراق شارع واحد فقط، وعندما حدث ما حدث لم

يُصَب بخدش واحد، كنت أتمنى لو أن... فقط لو كان... مجرد كسر مضاعف كان سيحل كل شيء، وهو على أي حال مقيم في البيت بشكل مستمر، لكن ماذا تقول؟ إنه القدر!

كان الارتعادُ قد بدأ يظهر في صوتها جليًا، ويشوبه بعض الغضب.

- هذا هو السبب في الحقيقة؛ وجوده في البيت جعله قويًا كالثور، بينما شخص مثلك يكدُّ ليل نهار لم يستطِع الصمود فسقط، هناك حكمة لكل شيء..

ثم اعتذرت:

- آسفة، كان هذا غباءً مني.

نادت النادل فأتى بالفاتورة، حاول «عبد الرحمن» أن يدفع بدلًا منها، لكنها رفضت بشدة، خرجا، هواء العصر قد نزع من الشوارع قيظَ الظهيرة وساد في الشوارع جوُّ الترِيُّض، سألها: هل أوقف لك سيارة أجرة؟ فقالت: لا، سأسير معك. لكنَّها سبقته بخطوة، لم يسابقها، سار متأخرًا عنها بخطوة ليتأملها، كانت قد استأذنت لدقيقة قبل الخروج، دخلت حمام السيدات، بلَّلَت وجهها، جففته، ووضعت مرطبًا للبشرة فاحت رائحته وأسكرته، ثم جمعت شعرها ورشقته بدبوس ذهبي ينتهي بيعسوب أجنحته الأربعة بلون العقيق، والآن لاحظ أنها بدَّلت أقراطها، حلقتان كبيرتان ذهبيتان تُظهران دقة عنقها أكثر، ووضعت عطرًا يجعل القلب يخفق، كانت امرأة بوسعها أن تجعل أي رجل يتعلق بها.

***

قالت «إسراء» وهي تصعد الدرج أمام «عبد الرحمن»:

- كنتُ وحيدةَ أبي، علَّمني في مدارس اللغات، لم يبخل بقرش في سبيل أن أكون أفضل من كل ذكور العائلة، كثيرًا ما قال لي إن خطوة واحدة إلى السماء أفضل مليون مرة من السير على قدمك آلاف الأميال؛ لهذا سمَّاني «إسراء»، سماني «إسراء» وكان يقول لي ضاحكًا عندما يحكي عن ذلك:

- الإسراء علينا والمعراج عليكِ.

كانا قد سارا كثيرًا، اخترقا شوارعَ لم يطرقها «عبد الرحمن» من قبلُ في المدينة، «إسراء» تعرف الشوارع جيدًا، لا تدور حولها لتتجاوزها، بل تمر رأسًا، من شارع صغير أو ماركت مفتوح على الجانبين، مبنى سكني، مغسلة سيارات، أو وكالة لبيع الفواكه والخضراوات، تفعل ذلك باعتيادية شديدة وتجذب خلفها أنظار الذكور الذين ينظرون لـ«عبد الرحمن» في حسد، ثم وجدا نفسيهما فجأة أسفل البرج، أعلى مبنى في المدينة، فاقترحت عليه «إسراء» أن يصعدا، اشترى «عبد الرحمن» بعض البسكويت والعصائر كما يفعل المتنزهون، وحملهما المصعد الكهربائي إلى ارتفاع عشرين طابقًا، كان البرج دائريًا، مصنوعًا من الحديد والنحاس، والحاجز عبارة عن شبكة مدهونة باللون الذهبي ترتفع لمتر وبها نوافذ صغيرة تزاحم عليها المتنزهون لمشاهدة المدينة في الأسفل، لم تزاحمهم

«إسراء»، وقادته إلى باب صغير جانبي يُفضي إلى درج ضيق، صعدت أمامه، الريح كانت تثور من دقيقة لأخرى، وتدخل من الباب الصغير صاعدةً لأعلى فتلفحهما في طريقها، تستند «إسراء» إلى الجدار الصدئ الزلق وتتوقَّف عن السير، لم يرَ «عبد الرحمن» وجهها، لكنَّه خمَّن أنها بسبيلها إلى الدوار، سمعها تغمغم:

- صعدت هنا عشرين مرة على الأقل، لكن كل مرة كأول مرة.

ثم ضحكت وقالت إن أول مرة كانت مع أبيها، وذكرت كيف سُميت باسمها.

نظر «عبد الرحمن» إلى أسفل، رأى الشبكة المعدنية التي تفصل الأدوار العشرين عن الدورين المتبقيين من قمة البرج، رأى الظلام الدامس، كيف تومض فيه أجسادٌ صغيرة ملتمعة بالرطوبة، ثم طارت بومة، لمح جناحيها الأبيضين، وصرخ فأر صغير فجفلت «إسراء».

- اصعدي.

قال ودفعها بيده، كان ظهرُها متعرقًا، وملمسُ قميصها الأزرق كتانيًا، والجلد أسفله يتنفَّس، صعدت بجرأة أكبر، وحجب جسدُها الضوءَ الآتي من الباب لثانيةٍ ثم غابت في الوهج، كان هنا حاجز أيضًا، لكنه غير مؤمَّن جيدًا، به فتحات تكفي لولوج طفل صغير منها، وإذا انزلق شخص فلا بُدَّ أن ساقه ستخرج إلى الفراغ، على الحاجز نُصبت عدسة مقرِّبة لمشاهدة المدينة.

- ألا تشعر بالذعر؟

- لا، أنا معتاد على الارتفاعات بحكم عملي.

طلبت منه أن يغلق الباب، دفعه «عبد الرحمن» ببطء، كان ثقله كافيًا لتأمينه، سارت أمامه بحذر، باطن كفها اليمنى قد اكتسب لون الصدأ، والسروال الأبيض به لفحة، لكنَّها سعيدة، انتقلت حرارةُ السعادة إلى وجهها وإلى الدبوس المرشوق الذي مال قليلًا وخرج عن كعكة شعرها وأوشك اليعسوب أن يطير بأجنحته العقيقية، التقطت أنفاسها ثم أشارت بساعدها كله إلى التماع بعيد:

- هل ترى النهر هناك؟ هذه البيوت الملونة في الناحية الأخرى هي حي شرق، هل شاهدتها من قبل؟ أقصد: عن قريب.

- لا، رأيتها فقط من الكورنيش المقابل.

ردت بثقة:

- ليس كافيًا.

ثم انتظرت قليلًا حتى استوعب «عبد الرحمن» اعتراضها وقالت:

- يمكنك أن ترى في هذه العدسة.

- لكن العدسة مثبتة في الجانب الآخر.

ردَّت باستياء:

- عن قصد، وأمن البرج يفتِّش الحقائب أيضًا للبحث عن مناظير مقربة، لكنَّ لكل شيء حلًّا.

قالت هذا وعبثت في حقيبتها، أخرجت منها سلسلة

مفاتيحها، كانت بها قلامة أظفار فردتها بمهارة وأشهرتها في وجه «عبد الرحمن»:

- أنت صنايعي، تستطيع أن تفك قاعدة العدسة، مسماران فقط.

- وما الداعي لذلك؟

- سأتنازل عن وجبة العشاء التي وعدتني بها مقابل هذه الخدمة الصغيرة.

- دعي وجبة العشاء لحالها، وسأفعل ما ترغبين فيه.

أخذ «عبد الرحمن» قلامة الأظفار، كان الصدأ الخفيف فوق المسمارين مخدوشًا يُشي بمحاولات كثيرة للفكّ، ضغط عليه ودار بالقلامة فلم يتحرَّك وكادت تنثني.

- معكِ قداحة؟

- لا، لماذا؟

- يمكنني تسخين مكان المسمارين، المعدن يتمدد.

ظهر على وجه «إسراء» خيبة أمل شديدة وسألته:

- هل سيفلح هذا؟

- دائمًا ما يفلح.

استندت إلى الحاجز بكلتا ذراعيها وقالت بحزم وثقة:

- إذًا سآتي بقداحة في المرة المقبلة، لكن لا تنسَ وعدك لي.

***

قبل أن يهبطا، عدلت «إسراء» ملابسها، أعادت تشبيك شعرها ومسحت لفحة الصدأ بمنديل ورقي مبلل، نزلا الدرج، ثم أخذا المصعد إلى الدور السفلي، وخرجا إلى الشارع.

متكدرة المزاج سارت بسرعة، بقعة البلل على ركبتها تُظهر لون بشرتها، حاول «عبد الرحمن» اللحاق بها فتوقفت ومدت يده لتصافحه وتعفيه من السير معها:

- شقتي قريبة من هنا، شكرًا لك.

فيما بعدُ سيعرف «عبد الرحمن» أن شقتها لم تكُن قريبة..

***

في الصباح، اتصلت به فتاة الاستقبال في عيادة الطبيب قبل ميعاده بساعتين وأخبرته بأن الطبيب لن يكون موجودًا اليوم وأن الميعاد تأجَّل للغد، اتصل بـ«جاسر» وسأله كيف يُبلي مع أبيه، صوت خوار البهائم وبطبطة البط وصياح ديك هو الخلفية لعالَمٍ من الإحباط رسمه «جاسر» حول حياته، قال لـ«عبد الرحمن» إنه سينتحر، فلم يستطِع منع ضحكة من الانفلات، ثم تدارك نفسه واعتذر فقال له «جاسر» إنه قليل الذوق وأنهى الاتصال على الفور، بعد قليل اتصل واعتذر (عن إغلاق الخط وليس عن السُبَّة - يجب أن أكون واضحًا معك)، وأصرَّ أن يغلق «عبد الرحمن» الخط هو هذه المرة.

عندما رنَّ الهاتف مرة أخرى، وقبل أن يلتقطه، ظن «عبد الرحمن» أنه «جاسر»، لكنَّه كان رقمًا غير مسجَّلٍ عنده، تردد «عبد الرحمن» ثَمَّ ردَّ قبل انتهاء الرنة الأخيرة، قال له الصوت في الهاتف:

- نحن ننتظرك لتتناول الغداء معنا.

لم تبدُ جملة مناسبة لتأسيس عداوة صلبة، لكنَّ «عبد الرحمن» شعر أنها كذلك، خاصةً مع اللهجة التي قيلت بها: «نحن ننتظرك»، ليس «أنا»، ليس «أنتظرك»، تعطي انطباعًا متذمرًا، كأنك أخلفت ميعادًا ضروريًا لم يكُن ينبغي أن تُخلفه، تنشأ ضرورية الميعاد من تفاوت الطبقات بين الداعي والمدعو، وليس المناسبة، ولو أراد «عبد الرحمن» أن يفرد الجملة بمعانيها الكامنة ستكون:

الآن، نحن في انتظارك، نتضوَّر جوعًا، الأكل مُعَدٌّ، سيبرد، الأطباق على المائدة، فراغها يثير المعدة بتشابه الحال، من أنت لننتظرك على الغداء؟! ومن نحن سوى عائلة مجنونة قررت أن تنتظر شخصًا مجهولًا للغداء لمجرد أنه...

- من معي؟

- أنا.....

يقول اسمًا، يخدش بالاسم ذاكرته، لا يثير فيها ولا حتى غبارًا خفيفًا، يجرِّبه على لسانه، لكنَّ لسانَه ثقيل به:

- عفوًا، لا أتذكر أنني...

- أجهِد نفسك قليلًا، من غير المعقول أنك لا تتذكَّر صوتي، مَن تحسبني؟

- أحسبك واحدًا من زملاء العمل.

- هل تعرف واحدًا من زملاء العمل اسمه...

- لا، لكنَّ صوتك قريب منه.

بشماتة يضحك الرجل على الطرف الآخر، وكأنَّ لعبته آتت ثمارها، ولدهشة «عبد الرحمن» كانت شماتته أكثر ظُرفًا من ضيافته، انكتم صوته وكأنه يخفي السماعة بيده ليستمع إلى شخصٍ ما بجانبه، ثم رفع يده من فوق السماعة وقال بجدية:

- أنا زوج السيدة إسراء ناظم، مكتب شؤون الانتقال.

يتنهَّد «عبد الرحمن» هاتفًا.

- أهلًا بحضرتك.

- أهلًا بك، اعذرني على عفويتي، ها ها، كنت أريد أن أرى رد فعلك، والآن، لا «نريد» أعذارًا، الغداء سيبرد، هيا تعالَ.

- لكني تناولتُ غدائي.

بعض المناورة بين رجلين يكره أحدهما الآخر بلا سبب، لإظهار الجدية ليس إلا وليمنحه ذريعةً للتراجع عن دعوة قد يكون مُجبَرًا عليها، لكنَّه قال مصرًّا:

- لا يوجد رجل لا يمكنه تناول غداء إضافي، لا أعذار كما قلت لك، لا «تؤخِّزنا» أكثر من ذلك.

يملي العنوان. استغرق «عبد الرحمن» كل الوقت في ارتداء ملابس مناسبة، وأقل من عشر دقائق اخترقت فيها سيارة الأجرة وسط المدينة بسهولة وصولًا إلى طرفها، تصله رسالة «إسراء» على الهاتف في منتصف الطريق، وقف أمام الباب المصفَّح الذي لم يُشِ برنَّة الجرس، قرأ اسمه واسم زوجته بالكامل، كما هو مكتوب على اللوحة النحاسية، حاصل على دبلوم سياحة وفندقة كما تقول اللوحة بحروف سوداء، أما «إسراء» فكُتب أسفلها: رئيس قسم بمكتب شؤون الانتقال. اسم وظيفة فخمة لا تقلل من فخامته ملابسُها البيتية البسيطة التي استقبلت بها «عبد الرحمن»، صافحته باليد المحتلة من قفاز المطبخ السميك، لا بُدَّ أنها كتبت رسالتها باليسرى: «لا تخبر زوجي بغدائنا أمس في المطعم»، هذه جملة مناسبة جدًّا لتأسيس سرِّيَّة متبادَلة

بينهما، سرية جعلت «عبد الرحمن» شغوفًا بمراقبتها لولا نظرات الرجل الغيور، فستانها فيه من الثنيات أكثر مما في موسيقى تعتمد اعتمادًا كليًا على آلة الأكورديون، لون الفستان زهري على نفس الدرجة اللونية لسروال التريننج الخاص بزوجها، ترتدي عليه جاكيت خروج أسودَ خفيفًا لتُخفي ذراعيه وكتفيه العارية، تشابُه أجزاء من ملابسهما جعلهما أشبه بلعبة بازل لم يفهم «عبد الرحمن» الغرض منها سوى إثبات شيء لا يمكن إثباته بالطرق البسيطة، صغيرهما أكبر قليلًا من «طه»، ولا بُدَّ أنهما أدباه جيدًا، كان يمضغ الطعام أطول من صبر طفل في سِنِّه، وفرح بالهدية البسيطة التي أحضرها «عبد الرحمن» على عُجالة، وانصرف على الفور بعد انتهاء الطعام إلى غرفته تاركًا الكبار لأحاديثهم.

انتقلوا لجلسة شاي في الشرفة الواسعة، دخلت «إسراء» لتبدِّل ملابسها وتولَّى زوجها صبَّ الشاي في الأكواب الخزفية، الشاي كان سيئًا، لا يصنعُ الطعمَ الجيد للشاي الأكوابُ الخزفية ولا ماركة الشاي الشهيرة، بل الرفقة الجيدة.

ولم يكن الزوجُ رفقة جيدة، بل بادر، في مكر هجومي قبل أن يرفع «عبد الرحمن» الكوب إلى فمه:

- أهنئك بالانتقال على الرغم من أنني لا أحسدك على مكانك.

- وما العيب في أن تكون مكاني؟!

ابتسم الزوج في ثقة وأجاب:

- كنت هناك بالفعل، ولم أكن لأحب أبدًا أن أكون ضمن المضارين.

اصطنع «عبد الرحمن» الدهشة:

- حقًّا؟! في أي شارع؟ لقد كنت في شارع جمال عبد الناصر، وأنت؟

- شارع الثورة.

أبدى «عبد الرحمن» أسفه:

- كنتَ قريبًا.

- فعلًا، لكنَّ هذا لم يُفِدني، بمجرد أن حدثت الفوضى تساوى الجميع.

قال محاولًا تعزيته:

- من السهل أن نفقد إيماننا بالأشياء، خاصةً إذا عكَّرتها الفوضى.

- أنت تتحدَّث من البرِّ الآخر، اسمح لي، أقصد: مِن وضعِ قوةٍ، ليست تلك القوة التي نعرفها، بل القوة التي أتاحها لك الضعف، أنت مدهوس، أقصد: أحد المضارين.. لولا هذا لقلت ما يجب أن أقوله لك الآن.

- وما الذي تريد أن تقوله؟

- إن الأشياء الجيدة لا تتعكَّر أبدًا بالفوضى، الطابور نظام سيئ، الطابور وضعه من لا يحتاجونه أبدًا.

- كيف تقترح إذًا أن يتم تصنيف الناس وتقديمهم للوظائف؟

- كما يحدث فعليًا، بالاستحقاق، بالواسطة، بالرشوة، بالخداع والكذب.

- لعل هذا هو أول طابور تقف فيه!

- نعم، كان الأمر يستحق، حتى لو كانت هناك نسبة كبيرة للخداع.

- ووصلت إلى هذه القناعة من مرة واحدة!

- على الرغم من أن ما حدث يكفي، لكن لا، هذه القناعة عندي منذ وعيت، فقط فكرتُ أن أجاري النظام السائد.

- أتعجَّبُ من صدور هذا القول منك، خاصةً أنك كنت قريبًا من بداية الفوضى، ولا بد أنك رأيت كيف حدث الأمر.

- سمعتُ الحكايات، وسمعتُك أيضًا في التلفاز، وأعلم أن الأحداث اختلطت في ذهنك بسبب ما حدث لك، وهذا خطأ الإعلام، كيف يسألون رجلًا مدهوسًا عن أمرٍ كهذا؟! أقصد أنك لم تكُن في وعيك، والحقيقة أن الفوضى أتت من نهاية الطابور وليس من بدايته.

- وما الفائدة من تحديد الجهة؟ الفوضى أتت من الأعلى أو من الأسفل، أكلَتِ الجميعَ وانتهى الأمر.

- الفائدة لا تهمك يا عزيزي، خاصةً أنك أول المستفيدين، لكن بما أنك سألت فلن أحرِمَكَ الإجابة.. لم يكُن موظفو الحي لينصرفوا ما دام الطابور قائمًا، لكن من قام بالفوضى كان واثقًا أنه لن يُقبل.

- غير معقول طبعًا أن يقف نهارًا كاملًا ثم يُفسد الأمر.

- بل معقول تمامًا، انتظر كثيرًا ليضرب ضربته، وحاول أكثر من مرة، لكنَّه لم ينجح على الفور..

ثم تنهد:

- لكنَّ هذا لم يحدث عبثًا، يجب أن تعلم أنك تُكلِّم رجلًا ليس الندم من صفاته، لكنِّي الآن نادمٌ على أشياءَ كثيرة قمت بها قبل الطابور وفي أثنائه، والحمد لله أنني لم أولد بهذا الالتزام الذي يجعلني أسير على خطوط الطول ودوائر العرض، في لحظة الفوضى انزاح الهمُّ من على كاهلي، ورأيت حقيقة الأمور.

كان «عبد الرحمن» عازفًا عن سؤاله، لكنه ضغط على نفسه ليسأل:

- وما حقيقة الأمور؟

قال باستعلاءٍ منفِّر:

- أنني لن أقف في طابور بعد ذلك أبدًا، وسآخذ حقي بكل وسيلة ممكنة، هذا أفضل من أن أندم على أنني لم أدهس مثلك.

أنقذته «إسراء»؛ فعندما جاءت قطع زوجُها الحوارَ وفكَّ تكشيرةَ الانقضاض من على وجهه وبدا متبسطًا لدرجة أن يقوم ليصبَّ لـ«عبد الرحمن» الشاي مرة أخرى ويضع ملعقة زائدة من السكر، ما زاد طعم الشاي سوءًا، ثم قال له متكلفاً التودد: «اشرب». جرع «عبد الرحمن» الشاي بسرعة وشكرهما ثم استأذن للانصراف،

بمجرد أن قال ذلك اشتبكت عينا «إسراء» بعينَي زوجها لبرهة كأنهما يتحدثان، ولاحظ «عبد الرحمن» ارتفاع كتفي الزوج وانخفاضهما وكأنه يقول: لقد حاولتُ، لكنه ليس ذنبي.

قالت «إسراء»:

- سآتي معك، لن أدعك تتوه.

***

في المرة الأولى التي سار فيها «عبد الرحمن» مع «إسراء» في الشارع، كانت منشغلة بوجهتها، بقيادته إلى البرج، لم تلاحظ إيماءات المارة وابتساماتهم لـ«عبد الرحمن»، وبعض الأشخاص الذين يوقفونه في عرض الشارع ليصافحوه، لكن في هذه المرة لاحظت واندهشت، وضحكت وهي تقول:

- كأنَّك بطل حرب، أو نبي.

رد في خجل:

- نعم، نبي يشفق عليه الناس.

- كل ما يلزمك معجزة صغيرة.

- لقد حصلت عليها، وظيفة في المدينة الجديدة، ربما كان هذا الشيء الذي جعلهم يؤمنون بي.

تفكرت «إسراء» قليلًا ثم قالت:

- هناك ستكون شخصًا عاديًا، سينساك الناس.

ضحك «عبد الرحمن»:

- يمكنني أن أرفض الانتقال، لكن كيف سأعيش؟

- لو كنت مكانكَ ما نطقت بهذه الجملة ولو على سبيل المزاح.

- لماذا؟

- بحكم عملي واطلاعي، أعتقد أنه لو كان لكل شخص في حي غرب روحان لضحى بإحداهما طواعيةً ليسكن في المدينة الجديدة.

ثم قالت فجأة وكأنها تذكرت شيئًا مهمًا:

-هيا بنا نجلس في مكان هادئ.

عرجا على مقهى صغير على الكورنيش، زاوية فيها من القش أكثر مما فيها من الجدران، الكراسي من الجريد، وطوابير النمل تمرح فوق المناضد وتجري إلى مستقرها بلا قلق، طلبت «إسراء» ليمونًا باردًا ورفض «عبد الرحمن» أن يطلب شيئًا، وعلى الرغم من تعجُّلها لم تتحدث مباشرةً، مضت تتأمَّل الماء من بين أفرع شجرة متدلية وترشف من الليمون حتى لو يعد متبقيًا فيه إلا رغوة، كأنَّ كل ما تريد أن تقوله على لسانها، لكنها لا تعرف الطريقة المناسبة لقوله:

-هل تتذكر المثال الذي ذكرته لك منذ قليل ونحن في الشارع، عن تضحية الإنسان بحياته ليعيش حياة أفضل؟

-ماذا عنه؟

-في الواقع، كان سؤالًا مطروحًا علينا في الاستبيان الذي ملأتُه لطلب وظيفتي في المكتب، سؤالًا حرًا، بلا

خيارات، وأعتقد - بل أجزم - أن طلبات الوظيفة تتغيَّر حسب الأشخاص المقدمين.

-ليست نماذج ثابتة؟

-لا، ليست نماذج ثابتة.

-وطلبات الانتقال مثلها؟

ضحكت «إسراء» في بدايات عصبية مسَّت لهجتها:

-ها أنت ذا تريدني أن أفشي لك أحد أسرار المكتب، لكن لا يهمني، نعم، طلبات الانتقال ليست نماذج ثابتة أيضًا.

-لكنها بدت لي نموذجًا ثابتًا.

-لا، هذا ما يبدو فقط؛ فهم يدرسون المرشحين جيدًا قبل أن يطرحوا أسئلتهم.. أقصد: يدرسون طبقتهم الاجتماعية.

-نعود إلى سؤالكِ، كيف أجبتِ عليه؟

-نعود! لماذا أتذكره الآن؟ في الواقع لم أنسَه أبدًا؛ لأنني أعتقد أن إجابة هذا السؤال كانت هي الفيصل في قبول طلبي عندهم.

-سؤال واحد فقط من ثلاثين ورقة؟

-باقي الأسئلة الأخرى كانت للتأكُّد من أن إجابتي عن هذا السؤال الواحد ليست بها مسحة كذب.

خمَّن «عبد الرحمن»:

-السؤال الذي هو: لو كانت لكِ حياتان هل ستضحِّين بإحداهما لقبولك موظفةً في حي شرق؟

-لا، لم يكُن هذا هو السؤال، كان السؤال: لو كان لك حياة أخرى مجانية، فكيف ستُنفقينها؟

-وبماذا أجبتِ؟

قالت:

-ليس من شأنك (ضحكت ثم تنهَّدت وفردت كلتا يديها على المنضدة، كفين بأظافر من عقيق وكأنها تقول له: انتبه لما سأقول).. الشاهد من الأمر، والذي جعلني أبدأ هذا الحوار، أن في حياة كل امرأة قرارين مهمين: العمل والزواج، لكنَّ القدر جمعهما لي في قرار واحد، وأنا مدركة تمامًا أنني مُجبَرة على أن أتخذ قرارًا سليمًا في أحدهما وأترك الآخر للتوفيق الإلهي، واخترتُ أن يكون قراري السليم في العمل، أتذكر حفل الزفاف وأيام الزواج الأولى كأضغاث أحلام: المطبخ والأكل المستمر، رائحة الملابس الجديدة على المشاجب وفي الدواليب، السجاجيد والأبسطة. في هذه المرحلة من حياتي، كنت أصلي كثيرًا، ليس عن إيمان، ولكن احتياطًا، خائفة من أن أكون قد أسأت التفكير والاختيار، وقبل أن تستقر قدمي على الأرض الجديدة اتخذت قراري: لن أسمح لزوجي أن يقرَبَني حتى يتم تعييني، كان هذا أشبه بمنع ثور هائج من نطحك بينما ترتدي ملابس حمراء، أخبرتُ زوجي بهذا فثار واعترض، لكنه وافق بعد غضبٍ ونقاشٍ طويل.

-وكيف سارت حياتُكما بهذه الطريقة؟

-تمامًا كما خططتُ، على الأقل حتى حصلت على

التعيين، لكنَّها كانت فترة عصيبة، كنت أطلب منه أن يشتري أشياء من طرف المدينة البعيدة، وبمجرد أن ينزل أغلق الباب وأهرع إلى الدولاب وأرتدي قميصَ نومٍ فاضحًا وأرش على جسدي عِطرًا ينزع القلب وأستلقي على الوسائد، أتقلَّب، وأجرِّب حركات إغراء مختلفة، أذهب للمطبخ وأحاول أن أصبَّ من أنوثتي العارمة في الأطباق التي أعدها، المطبخ يستطيع أن يوصِّل رسائل سريرية أكثر من غرفة النوم، فقط يحتاج الأمر إلى خبرة، وإلى حرمان، كل نوع من التوابل له رسالة، والشيكولاتة في الكيك تختلف رسالتها إذا كانت في داخل القالب أو تغطيه، ولقد أرسلت لزوجي رسائل كثيرة في أيام زواجنا الأولى وقبل الوظيفة، التهمها كلها، تعدَّى وزنه المِئة كيلوجرام، لكنه لم يفهم رسالة واحدة.

ثم قالت بأسى شديد وبنبرة صوت أخف:

-عندما لا يفهم الرجل دعوة المرأة أو صدها يكون غريبًا، لا يشبه حتى هذا المقعد أو الكوب، مثل شيء مكرس لدماره ولدمار الآخرين، ككائن يعتقد أنه لو أكل الورقة وشرب الحبر فقد قرأ الرسالة وفهمها، هذه الفترة من حياتي وحتى قبولي في الوظيفة كرهتُ زوجي جدًّا، ولولا خوفي من تبعات الانفصال على سمعتي في العمل لطلبتُ الطلاق وحصلت عليه.

-على الرغم من أنكِ مَن طلبتِ ألَّا يقربك!

-عندما أراجع نفسي أفكِّر لو أنه رفض لكان أفضل

لحياتنا.

ضحك «عبد الرحمن» ضحكة مدهوشة وساد الصمت بينهما قليلًا، ثم وكأنَّه قرر أن يلقي دهشته خلف ظهره فسألها في فضول:

-وكيف صار الأمرُ بينكما بعد ذلك؟

-كان هذا أجمل جزء في الحكاية وأكثرها رقَّة: ورود، وطعام في البيت يعده هو، وسهرات وهدايا.. كان المال قد بدأ يتدفَّق علينا، وكنا ننفقه كله، كانت حياة شبه مثالية، لولا هذا الشرط العجيب الذي يهدد استقرارنا بعد خمس سنوات.

-أفهم ذلك، الأمر يصبح أصعب كلما نفد الوقت.

-بالعكس، كلما اقترب أكثر قلَّت الخيارات، الخيارات مرتبطة بالوقت، بعض الخيارات إن لم تنفذها في وقتها فسدت، الآن لم يعد لديَّ إلا خيار واحد.

-وما هو؟

-أن أترك زوجي وأنتقل إلى حي شرق.

-اسمحي لي، ما الذي يجبرك على ذلك؟ ما الضرر في حياتكما هنا؟

-لن أشرح لك كثيرًا، لكنِّي لم أعد أومن بشيء إلا بأن الحياة هناك في حي شرق أو في أي مجتمع محترم تشبه ما بحث عنه الأنبياء من خلال رسالاتهم، ما دعا إليه اللهُ من فوق السماء، هو أن يعيشوا في مجتمعٍ يحترم آدميتهم، ونحن ننفِّذ إرادة الله إذا قمنا بذلك، ما

فائدة الحياة هنا؟ ما الذي تجلبه لك إلا الشقاء والكفر؟

-هذا ما تظنينه.

-طبعًا، هل هناك ظن آخر؟

-أعتقد أن الأنبياء أُرسلوا إلينا ليعلِّمونا الحياة من خلال المعاناة، السعادة المشتقة من خدمة الآخرين وهدايتهم، التعرُّض لفتن الدنيا والنجاة منها.

-هذه فكرة مضحكة جدًّا، وأستطيع أن أناقشك فيها دينيًا وأغلبك، هذا إن لم تكُن بوذيًا، أو مؤمنًا بخلاص الإنسانية عن طريق الصلب والشنق والرجم، وحتى هذا أستطيع أن أناقشك فيه أيضًا، ما الذي كسبَته الإنسانية من قتلِ وسحلِ عشرات الأنبياء؟ هل عاش المساكين حياة أفضل؟ هذه فكرة مضحكة جدًّا صدِّقني.. لكن أتعلم ما أكثر شيء مضحك فيها؟ أنك أنت من يقولها ويؤمن بها، أنت من سينتقل بضربة حظ من دون أن يكون في حاجة لذلك ولم يفكر أبدًا، بل يفكر في المعاناة وحلاوة الشقاء والعذاب، بينما أنا، تلك التي تؤمن بالحياة هناك، ومَن تحتاج إلى انتقال زوجها بشدة لتكتمل حياتها، لوحة رائعة الجمال ينقصها تفصيل واحد لا تملكه...

قاطعها «عبد الرحمن» قائلًا:

-بدأتِ تشبهين زوجك في طريقة الكلام.

سألته في اهتمام بالغ:

-جيد أنك ذكرتني، هل كان الحوار بينكما جيدًا؟

-للأسف لا.

-نحن نتحدث عنك كثيرًا، أكثر مما تتصور، إنه معجب بك جدًا.

-لم ألاحظ هذا، ملامحه كانت بها كراهية لم أفهمها، ربما كره الطابور الذي ذكرتُه به، على أي حال لم يكُن موضوعًا جيدًا لأول حوار.

-ملامح زوجي لا تقول أبدًا ما يدور بداخله، اسألني أنا، لقد عشتُ معه وقتًا كافيًا لأعرف، إنه من النوع الذي يتجاهل مَن يحبهم، وينظر في كل ناحية إلا الناحية التي يريد أن ينظر إليها.

-وفيمَ كان حديثكما عني؟

-عن استحقاقك للجائزة، طريقتك المختلفة في الكلام أمام المذيعين، حب الناس لك..

سألها «عبد الرحمن» في فضول شديد:

-وإلى ماذا توصلتما؟ هل أستحق الجائزة؟

هزَّت رأسها في أسف:

- بطريقتك، لا أعتقد أنك تستحقها، انتقال شخص مثلك إلى هناك كارثة بكل المقاييس.

-لماذا؟

ضيَّقت «إسراء» من اتساع عينيها وأخذت تمعن فيه النظر كأنها تحاول إبصار شيء لا يمكن إبصاره بالطرق العادية:

-هناك أمرٌ محيِّر فيك، لم أتبينه في البداية، لكنَّ ما

رأيته اليوم وأنا أسير معك، وطريقتك في الاستماع إلى زوجي.. كلها وضعتني أمام الفكرة الصائبة لحقيقة ما لاحظته فيك لأول وهلة.

-وما هو؟

-أنت أقربُ لنبيٍّ، نبيٍّ بلا معجزة ولا جنَّة، كل ما تملكه هو اعتقاد ومعاناة.

-ولو فرضنا أن ما تقولينه صحيح، أليس هذا كافيًا لأستحق الانتقال؟!

-نعم، في رأيي، نعم، ولو أملك رفض انتقالك لرفضته بلا تردد.

-لهذه الدرجة؟!

-وأكثر، أنت لا تعلم طبيعة المجتمع الذي ستعيش فيه بعد أيام، هذه فكرة مرعبة صدِّقني، لكنَّك لا تدرك حجم مأساتك.

-هل حالتي ميؤوس منها لهذه الدرجة؟!

-جدًا، وغير المعضلة الأخلاقية التي تكلمنا عنها، لديك معضلة أخرى: زوجتك وابنك الصغير، كيف ستتركهما خلفك وتعيش في حي شرق؟!

-أنا أعيش بعيدًا عنهما بالفعل، أزورهما لمدة أسبوع كلَّ شهرين، وأتابع أخبارهما بالهاتف.

-فعلًا، لكنَّ هذا ليس عملًا يا باشمهندس، هذه إقامة، ليست لقمة عيش تنتزعها وتوزِّعها بالكامل على أطفالك وزوجتك وتبلع ريقك بعدها وتحمد ربك على حلاوة

الريق من دون امتلاء معدتك، هناك مميزات ستستمتع بها وحدك من دونهما، وعندما تعيش هناك ستتغيَّر أفكارُك تمامًا، ستجد أن المال هو آخر شيء يجب أن تفكر فيه، وإذ تسير في شارع نظيف ستفكر كم أنه من الرائع أن يقود ابنك الصغير دراجته فيه، وتأكل في مطعم رخيص تتلقَّى عناية فائقة بلا ثمن تقريبًا سوى أنك مواطن هناك.. عندما يكون رجل الشرطة في حمايتك وليس سببًا لخوفك، هذا كله سيلوِّث حياتك ويكدِّر طمأنينتك التي كنت تشعر بها وأنت تعمل وترسل لهما المال.

سكت «عبد الرحمن» طويلًا، متفكرًا فيما قالته «إسراء»، لا بُدَّ أنها تعلم جيدًا ما تتحدث عنه بحكم وظيفتها، لكن ما الغرض من إثارة هذه النقطة بالذات؟!

-على كُلٍّ، لا يوجد حل لهذه المعضلة.

قال «عبد الرحمن»، فردت عليه ببساطة:

-بل يوجد، لكنَّه لن يرضيك.

-وما هو؟

كانت تنظر إلى عينَي «عبد الرحمن» عندما قالت، من دون أن يرفَّ جفنُها، والشمس تلقي دنانيرها الذهبية على وجهها:

-بِغ لي فرصتك.

***

خلال ربع ساعة لبثاها صامتَين حدثت أشياءُ كثيرة، جاءت قطة وتمسحت في ساقَي «عبد الرحمن»، فمسح يدَه على ظهرها وصدر منها هرير، جاء فتى المقهى وأخذ الكوب الفارغ وطلب «عبد الرحمن» منه كوب شاي.. على المنضدة اجتمع النمل على الدائرة السُكَّرية التي خلَّفها كوب الليمون، دائرة من النمل ترشف الرحيق، غير واعية إلى نملتين أخذتا تتعاركان على حمل بلّورة سكر، وعندما جاء فتى المقهى بكوب الشاي طلبت منه «إسراء» أن يضعه في طبق صغير، وأن يمسح المنضدة فعاد وأتى بطبق كما قالت، ومرَّ بخرقة مبللة على سطح المنضدة فأنهى وجبة النمل والعراك الدائر بضربة واحدة.

عندما رشف «عبد الرحمن» أول رشفة، بدأت «إسراء» تتحدث، بصوت أرق وبلهجة أشبه باعتذار:

-ستكون سببًا في جمع شمل عائلة محكوم عليها بالفراق.. وغير هذا، أكره نفسي عندما أقول ذلك ولكن لا بُدَّ أن أقوله، تضحيتك ستنال عليها ثمنًا جيدًا، لقد تناقشت مع زوجي حول هذا ووضعنا خطة كاملة لكي لا ينقص قرش واحد من حقك المادي، سأضع أنا وهو نصف راتبي وراتبه في حسابك البنكي شهريًا وحتى مماتنا، مكافأة الخروج على المعاش ستأخذ من كل واحد منا نصفها، وبهذه الطريقة سنحصل نحن على النصف وتحصل أنت على الواحد الكامل، ونحن مستعدان لتأخذ جميع الضمانات على ذلك، أوراق على

بياض عند المحامي الذي تحدده أنت، أوراق تكفي لنبيع كل ما نملكه من متاع الدنيا مع إدخالنا السجن، لكنّي أعلم أنك أمين، وهذا ما جعلني أميل إلى طلب هذا منك وليس من التسعة عشر شابًا الذين سبقوك.

سكتت «إسراء» وانتظرت رد «عبد الرحمن»، لكنَّه توتَّر عندما همَّ بفتح فمه، طافت كلماتٌ كثيرة برأسه، لكنَّها لم تهبط على لسانه لتُنهي التوتر: أشكرك هذه صفقة جيدة، أشكرك ولكني لا أجد الأمر مناسبًا، أشكرك سأفكر في الأمر.. رشف هذه العبارات مع الشاي وابتسم، وكلما ابتسم أظلم وجهها، وصار الشاي أشد مرارة، إذًا هذا هو السر في توددها، والغداء المجاني، لكن متى قرَّرَا هذا؟ ما عمق الحفرة التي حفراها؟

-كيف سأبيع انتقالي؟ أقصد: كيف سيتم الأمر؟

-لا تقلق من ذلك، سيتم التبديل بينكما من دون أن يلاحظ أحد: الصور والاسم والهوية.

قال «عبد الرحمن» ساخرًا:

-هل سأبيع شهادة تخرجي أيضًا؟

لاحظت «إسراء» السخرية، لكنها أخذت تجاريه ليطمئن:

-لا طبعًا، الفرصة فقط، سنضع صور زوجي بدلًا من صورك في طلب الانتقال، كل ما أرسلناه إلى حكومة حي غرب هو الاستبيان الذي ملأتَه، والباقي لا يزال في المكتب، لو وافقت سيضع الطبيب ختمه على أوراق زوجي وليس أوراقك.

الحفرة أعمق مما توقَّع «عبد الرحمن» الذي هتف مندهشًا:

-لهذا يماطلني الطبيب، ولهذا طلبتِ أن تأخذي صوري خارج المكتب!

-بالنسبة للطبيب، كانت خدمة قديمة يردُّها لي، أما عن الصور فلا أنكر، لقد فكرتُ مرارًا، وترددتُ ألف مرة في عرض الأمر عليك.

-لكن وجهي، أنا معروف، أقصد: ظهوري على التلفاز.

-أنت معروف هنا فقط؛ لأنك تمثل للناس هنا شيئًا ما، أما هناك فلن يلاحظ أحدٌ وجودك من عدمه.

-ولو انكشف الأمر! سأخسر فرصتي، وقد تخسرين وظيفتك.

-لا تقلق، أخذتُ كل احتياطاتي، لن أقدم على خطوة كهذه اعتباطًا ومن دون دراسة وموافقة من جهات كبيرة هناك في حي شرق، الأمر يبدو أشبه بالتبرُّع في حالة وجود فصيلة مناسبة، المهم هو التوافق بين الطرفين.

-إذًا الأمر اعتيادي؟

-تمامًا، لا تقلق.

-هذا يخالف كلامك عن المجتمع الجيد، أقرب وصف لما تقولينه أنه فساد إداري.

-الفساد يحدث هنا يا باشمهندس وليس هناك، ونحن نستحقه عن جدارة.

عاد الصمت، لكنَّه أكثر خفة، صمتٌ متواطَأ عليه، به شجن خفيف، ويستطيع أن يُضحكهما أيضًا.. قالت «إسراء»:

-إذًا ما رأيك؟

-أنتما تستحقان الانتقال، لا أنكر ذلك، والتعويض الذي تطرحانه جيد ومُغرٍ جدًا، وبصراحة لا أشعر بفضول حتى ولو بسيطًا لرؤية الناحية الأخرى من النهر، فما بالك بالعيش هناك؟! كل ما يمثله لي حي شرق هو وظيفة جيدة ومال وفير، بالإضافة إلى أنكِ وضحت لي عيوبًا كثيرة في الأمر؛ لذا في النهاية فسأعيد السؤال عليكِ: لو كنتِ مكاني، هل ستبيعين فرصتك؟

ردت فورًا وبلا تردد:

-لا.

-لماذا؟

-لأنني أمر بظروف مشابهة؛ لذلك فأنا مضطرة للصدق معك، أقول لك لو كنت مكانك فلن أبيع فرصتي أبدًا، لستُ على استعداد لأخسر فرصتي هناك، ولو من دون زوجي.

-كيف تراهنين على موافقتي بهذه المعطيات؟

-أنت حر يا باشمهندس، وافقت أو رفضت؛ لأن الأمر لا رجعة فيه ولا يمكنني خداعك على طول الخط.

ثم تنهدت كأنها ألقت حملًا ثقيلًا من فوق كتفيها:

-كان بيني وبين زوجي اتفاق، أن ندعوك على الغداء ويخبرك هو ويتولى إقناعك، لكنّي كنت أعلم أنه سيُفسد الأمر؛ لهذا دعوتك على المطعم قبلها ولم أجد الطريقة المناسبة لقول ذلك في اللقاء الأول، عدتُ إلى الخطة الأصلية وأفسد زوجي الأمر بنقاشه معك، أنا واثقة أنه هاجمك...

قاطعها «عبد الرحمن» قائلًا بهدوء:

-كلاكما أساء إليّ: هو بهجومه واحتقاره، وأنت بطريقتك في اللف والدوران، على الرغم من ذلك أنا مستعد أن أوافق على شرط.

قالت على الفور في قلق يشوبه بعض الفرح:

-وما هو؟

-أن تأتي لي ببرهان أكيد على أن ما نفعله شرعي تمامًا، وأنه لن يضرك أو يضرني أو يضر أحدًا.

سكتت قليلًا متفكرةً ثم قالت:

-يمكنني أن أدبر لك مقابلة مع مسؤول هناك.

قال «عبد الرحمن» في رضا تام:

-سيكون كافيًا.

***

خرجا يمشيان، وكان الغروب قد اقترب، بدأ الناس يطاردون العتمة البسيطة بإضاءة واجهات محلاتهم وأضواء الشرفات وأعمدة الكهرباء، لكن على الجانب الآخر من الضفة، في حي شرق، حلَّ الضوءُ محل الغروب ببساطة، لا يزيد الضوء ولا ينقص، كأنَّ الأضواء لم تُطفأ قط.

ظلَّا يسيران، كان «عبد الرحمن» متوجهًا إلى السكن، ولم تتوقف «إسراء» عن السير معه، الشوارع مزدحمة جدًا، وحاول «عبد الرحمن» أن يسير في الشوارع الجانبية الخالية، لكنه تاه عدَّة مرات فتولَّت «إسراء» قيادته.. عندما وصلا إلى بنايته اندهش لأنها تعرف عنوانه.

قالت تودِّعه بلهجة رسمية وابتسامة سريعة:

-أتمنى لك نومًا سعيدًا.

-انتظري، سأوقف لك سيارة أجرة.

-لدي ميعادٌ قريبًا من هنا، لا تقلق عليَّ.

***

على الإنترنت، تتلخَّص نصائح مرضى فقدان الذاكرة التقدمي في ألَّا يخافوا على الماضي، لن يضيع، انظر للأمام، الخوف من النسيان يجعلك تغرق في تأكيد ما هو ثابت في الذاكرة، النصائح الأكثر جدية تقول: نَم جيدًا، أكثر من مرة خلال اليوم، كلّ مرة بمثابة يوم جديد، كل شيء تريد ألَّا تنساه كرِّره، الأسماء والشوارع وما تودُّ القيام به، حاول أن تحتفظ بعادات ثابتة خلال اليوم.

ينفِّذ «عبد الرحمن» الإرشادات، ينزل لشراء الغداء؛ ليس لأنه جائع بل لأن الميعاد أتى، يمشي بموازاة كورنيش النهر، يعبر أسفلت المشاية السفلية، يمشي في شارع الترعة، يعرج عند ناصية كلية الطب البيطري، يسلك طريقه صاعدًا، يسير في الجغرافيا، لكنه لا يستطيع أن ينفك من التاريخ، التاريخ البعيد، العام منه، حكاية الرحالتين اللذين بدآ بالبحث عن الجنة وانتهيا بأن قتل أحدهما الآخر، وحكاية الترعة التي كانت تشق المدينة فيما مضى وتروي الأراضي التي تحوَّلت إلى بنايات شاهقة، وحكاية الحكومة التي انتزعت المسلخ من أيدي الجزارين بمعركة ضارية مات فيها من مات وصارت في النهاية كلية طب بيطري.. يحاول «عبد الرحمن» أن ينفض ذاكرته من هذا التاريخ فيقع في تفاصيل حياته، المكالمات الهاتفية التي تلقَّاها في أماكن مختلفة، الأمور الشخصية التي فكَّر بها، والأوقات المختلفة التي عاد فيها، متأخرًا أو مبكرًا.. والآن،

السؤال الذي يشغل عقله: هل ما سيفكر فيه سيكون بمثابة ذكرى في التاريخ القريب أم سينساه؟ ما قالته له «إسراء»، ما تريده منه هي وزوجها، وما حذرته منه، إفشاء الأمر، إما أن توافق وإما أن ترفض، كلمة واحدة، لكن الإفشاء قد يفسد الأمر عليك وعلينا: لا تبُح بالسر لمن لن يخسر بإفشائه.

يقوم الطبيب بالكشف الدوري ويقرر أنه لم تعد هناك فائدة للضمادات فيزيلها، يضع لاصقًا صغيرًا بلون الجلد، بمجرَّد أن يمس جلده يشعر بانتعاش، يسأل «عبد الرحمن» عدة أسئلة اعتيادية، ويخبره أن حالته تتحسَّن، وأنه من الضروري أن يحافظ على إيقاع تناوله للدواء وحياته المستقرة(!) لكي يستمر التحسُّن.

عند خروجه من البناية التي فيها الطبيب المعالج، يجد زوج «إسراء» ينتظره، أقصر قامة مما بدا له داخل شقته وأكثر اتساقًا، ينظر له ويبتسم كأنَّ بينهما أمرًا خاصًا، توقف «عبد الرحمن» وتصافحا ثم سارا معًا، سأله:

- بخصوص الرجل الذي طلبت من «إسراء» أن ترتب لك لقاءً معه، هل تمانع لو ذهبنا إلى مكانٍ ما؟

رد «عبد الرحمن»:

- كلا.

عبرا الطريق إلى الكورنيش، أوقف سيارة أجرة، ركب بجانب السائق ليرشده، رأسًا بموازاة النهر، صعودًا في اتجاه جريانه، بعد نصف ساعة تقريبًا توقفت سيارة

الأجرة أمام فندق أبيض ضخم، أعطى السائق الأجرة ودخلا الاستقبال بعد مرورهما على حارسَين وبوابة إلكترونية لكشف المعادن، ذهب الزوج للسؤال عن شخصٍ ما، أما «عبد الرحمن» فبدأ في ارتشاف الكركديه البارد الذي جاء به خادم الردهة فور جلوسه، ثم جاء الزوج وجلس إلى جانبه وتنهد قائلًا:

-سنصعد إليه بعد دقائق، إنهم يتصلون به.

-من هو؟

-سترى.

إلى مصعد قديم كلاسيكي يُفتح من الناحيتين، اصطحبهما رجلٌ كبير السن، يرتدي زيًا رسيمًا أنيقًا، مشذب الشارب، في يديه قفازان أخضران، على الرغم من حرارة الجو، صعد بهما إلى الدور السابع وقادهما في رواق معتم إلا من إضاءة خافتة تأتي من أباليك أثرية مبثوثة بطول جدار الرواق، ثم أشار إلى كنبة فوتيه من الجلد الفاخر أمامها منضدة زجاجية عليها طبق مُلئ بالجوز المملح، وبجانبها دولاب صغير مُلئ بالكؤوس وزجاجات الشراب الملونة، جلسا، تابع زوج «إسراء» ظهر رجل المصعد حتى غاب عنهما ثم قال هامسًا:

- هذا الفندق هو المحطة الأولى لرجال الدولة، والإذاعة والتليفزيون، فندق نمطي للغاية كما ترى، لكنه مريح ومليء بالمفاجآت.. مثلًا: بوسعك أن تطلب أي شيء تتصوره، أي شيء: بارمان، مدلِّك، دليل تاريخي، رجل دين، راقصة، روائي يكتب قصة حياتك، ممثل

سابق، قاتل متسلسل، مُحضِّر أرواح،راقصة شهيرة..

ثم مال على «عبد الرحمن» وهو ينظر حوله وهمس:

- هل تعرف من الرجل الذي سنقابله الآن؟ اسمه «إسرا»، وهو الرجل المسؤول عن الانتقال إلى حي شرق، بعض الناس يقولون إن كل شيء بيده، وإن إمضاءه هو الإمضاء النهائي، بورقة واحدة منه يستطيع أن ينقلك.

فُتح باب في هذه اللحظة فاعتدل الزوج، سمعا صوت خطوات على البساط الأحمر الممتد في رواق جانبي وخرج منه رجلٌ يرتدي روبًا فاخرًا على سروال بيجاما كلاسيكي المنظر وخُفٍّ أبيض، وعلى الرغم من لباسه المنزلي فإنه بدا أنيقًا فيه، يتوزَّع الشيب مع السواد في رأسه بانتظام فلكي، ملامحه وطريقته في النظر توحي بأنه رجل سُلطة من الطراز القديم، ذو أصول حضرية، وربما مرَّت عائلته على مر الزمن بألف كارثة، لكنها لم تنَل من اعتزازها بنفسها.

صافحهما في فتور:

- تفضَّلا.

أشار لهما بالجلوس وجلس هو على مقعد مقابل، التقط ريموت الإضاءة ووجَّهه إلى الجدران فأضاء السقف ولمبات خضراء وصفراء داخل الدولاب.. لمح «عبد الرحمن» بطرف عينه دلوًا من الفضة مُلئ بمكعبات من الثلج أسفل الأرفف العامرة.

-جئنا لجنابك بناءً على ميعاد سابق.

-نعم، طرف إسراء ناظم التي لا نستطيع أن نرفض لها طلبًا.

-هذا من كرم حضرتك.

أدار «إسرا» عينيه إلى «عبد الرحمن» وقال وهو يتمعَّن في وجهه:

-أنت «عبد الرحمن» إذًا؟

تولى زوج «إسراء» الإجابة:

- نعم، هو، جنابك.

-صورتك مختلفة تمامًا عن التلفاز.

كاد «عبد الرحمن» يخبر «إسرا» أن الطبيب أزال الضمادات لتوِّه، وهذا ما يجعل وجهه مختلفًا، لكنَّ «إسرا» قال كأنما قرأ أفكاره:

-وهذا الجرح الطويل في وجهك، هل هو في المكان الذي أعتقد؟ غير معقول، فعلًا الطبيب يستحق المبلغ الكبير الذي يتقاضاه.

تململ زوج «إسراء» وشعر «عبد الرحمن» بتململه، بدا غيورًا باهتمام الرجل الكبير، دقَّ جرسٌ خافتٌ للغاية في الممر ثلاث دقات فابتسم «إسرا» وقال:

- باقٍ ربع ساعة على ميعاد الغداء، هل تودَّان أن تؤنساني بتناول الطعام معي؟

ردَّ زوج «إسراء» بسرعة:

-لا نريد أن نشغل جنابك، لقد جئنا من أجل «عبد الرحمن».

-لا تكُن متعجلًا، كلنا هنا من أجل الباشمهندس.

قال زوج «إسراء» بإلحاح مؤكدًا وجهة نظره:

-إنه يود معرفة ما إذا كان موضوع التبديل بيني وبينه قد يشكل ضررًا.

-أعرف، أعرف، «إسراء» كلمتني.

-إذًا، جنابك، لا نريد أن نعطلك ونرهقك.

قال «إسرا» عندئذ بخشونة:

-لا يا عزيزي، لو أنني منشغل أو أن الأمر يرهقني ما وافقت على مقابلتكما، لكن يجب أن يأخذ كل شيء طريقته الصحيحة.

رد الزوج في قلق:

-وما الطريقة الصحيحة؟

كاد «عبد الرحمن» يشير إلى زوج «إسراء» خفيةً أن يصمت، لكنَّ «إسرا» أنهى المسألة قائلًا:

-الطريقة الصحيحة لهذا الأمر أن تشرب مشروبك وتنصرف؛ فالحوار الذي سيكون بيني وبين الباشمهندس سيكون ثنائيًا بدءًا من هذه اللحظة.

توتَّر زوج «إسراء» وتململ عندئذ، ولم يَخفَ تململه على «إسرا»، بل بدا أنه سعيد بأنه ضايقه:

-هل هذا ضروري؟

-ضروري جدًا، يكفي أنك أتيت به، هذا يتجاوز الحد بقليل، كان يجب على «عبد الرحمن» أن يخبرني بعرضكما، ومن ثَمَّ أخبره بما يجب أن يعرفه.

قال ذلك واستدار جالسًا، فتح خزانة المشروبات فخرج منها تيارٌ بارد، التقط كأسين ووضعهما برقَّة على المنضدة الصغيرة، ثم أخذ زجاجة كبيرة مليئة، وبمجرد أن أخرجها وبدأ في نزع غطائها وقف زوج «إسراء» واستأذن في الانصراف، فقال «إسرا» من دون أن ينظر إليه:

-ستضطر إلى نزول الدرج على قدميك؛ لأن الرجل الذي أقلَّكما إلى هنا، وهو المكلَّف بتشغيل المصعد، عجوز جدًا وبطيء في الاستجابة؛ لهذا كما ترى، أنا أخدم نفسي بنفسي.

-سأفعل، تشرفت بلقاء جنابك.

-مع السلامة.

بعد انصرافه ملأ «إسرا» الكأسين البلوريتين بالشراب المائل إلى الحمرة، دفع إحداهما تجاه «عبد الرحمن» فتناولها، ورفع الأخرى بين إصبعين، عند أول رشفة لـ«عبد الرحمن» ارتعد جفناه من الطعم الحمضي فضحك «إسرا» وقال:

-لا تقلق، هذا شراب شهير في حي شرق، طعمه قريب جدًا من المشروبات الروحية، لكنه لا يُسكر.

-وما فائدة مشروب له طعم المشروبات الروحية ولا يُسكر؟

تأمله «إسرا» قليلًا قبل أن يجيب:

-قبل أن نفصل برأي في الحالة يا باشمهندس لا بُدَّ أن

تُعادَ لأصلها، وهذا يتطلَّب أن نسأل أول رجل دارت بذهنه فكرة صنع مشروب روحي، هل كان السُكر أثرًا جانبيًا أم الطعم؟

-هذا لو كان صُنعها أمرًا مقصودًا.

-تعتقد أنه كان مصادفة، تخمَّر بعض العنب ثم ذاقه رجل فانتشى وهكذا دارت الدائرة!

-بالتأكيد.

-والجنة التي خُلقت قبل خلق الإنسان، وأنهار العسل والخمر فيها، هل كانت مجرد أسماء، أم أن الله، تبارك وتعالى، صنع في الجنة الصورة المثالية لحياة اللذة كما يتصورها الإنسان؟!

-نحن لا نعلم عن الجنة إلا الأسماء، التفاح ليس هو التفاح، والخمر ليست هي الخمر، مجرد أسماء، أعتقد أن الأسماء محدودة جدًا، مثل رجل لا يمتلك إلا ثلاثة ألوان من الملابس لارتدائها، هل كان للإنسان استطاعة لغوية أن يُطلق على الخمر اسمًا آخر؟!

قال «إسرا» بتمتمة وكأنه يخجل من اعتراض «عبد الرحمن»:

-بالفعل أطلق عليها أسماء كثيرة.

-نعم، لكن في النهاية ظل الاسم الذي قذفه الله في علمه: الخمر.

-ممتاز، أكثر من ممتاز في الحقيقة، ويوافق ما قاله «أفلاطون» عن عالم الأشكال، هل تعلم ما قاله؟

-لا.

-يعتقد «أفلاطون» أن العالم الذي نعيش فيه ما هو إلا عالم مستنسخ من عالم آخر، عالم حقيقي، أما هنا فالأشياء تتغيَّر عن صورتها الحقيقية، تأتي وتذهب، تسخن وتبرد.. إنه عالم الأخطاء الكثيرة، نحن نعيش في عالم الأخطاء يا باشمهندس.

-إذًا أنت تقول إن الخمر خطأ، انحراف عن فكرة الخمر الأساسية.

-ليست الأشياء فقط هي التي تعاني الانحراف، بل الحيوانات، والشيعة عندهم هلاوس عظيمة في هذا الشأن، يكفي أن تعرف أنهم لا يأكلون السمك الناعم بلا قشور ولا الأرنب لأنه كان امرأةً تخون زوجها ولا تغتسل من الحيض ومُسخت.. أما في روسيا، فالأرثوذكس لا يقتلون الحمام ولا اليمام؛ لأنه يرمز إلى الروح القدس، ولا يصطادون الأرانب لأن بصماتها على الثلج لها شكل صليب، وفي الإسلام لا يأكلون الخنزير لأنه ممسوخ قذر، والحيوانات في معظم العقائد البشرية ليست لها قيامة ولن تدخل الجنة، في الدين الإسلامي بعد أن تقتص الشاةُ القرناء من الشاةِ الجلحاء تُباد الحيوانات، تتحول إلى تراب، كينونة الحيوانات في الفكر البشري هي انحراف عن الحياة لخدمة فكرة الإنسان الناقص الذي لا يستطيع أن ينتقل أو يتغذى أو يمرح أو يتذكر من دون وجود الحيوانات، الإنسان السماوي الكامل يستطيع أن يفعل هذه الأمور جميعها من دون حاجة

إلى وجود الحيوانات.

-الإنسان السماوي!

-نعم، نعود لنظرية الأشكال، أو عالم المُثل، عالم ما قبل الحس، أو كما تسميه العقيدة الإسلامية عالم الذرّ، عندما كنا ذرّات في ظهور آبائنا، استخرجنا الله، تبارك وتعالى، وأخذ علينا العهد، هل تعلم ما العهد؟ هو سؤال الله لنا: ألست بربكم؟ شهدنا بذلك وجئنا إلى العالم للاختبار، في نظرية المُثل لـ«أفلاطون» يكون الإنسان على علمٍ بجميع العلوم والخفايا، وعند ذهابه إلى العالم الحسي، عندما يولد، يكون قد نسي هذه العلوم كلها، وما عليه إلا أن يتذكّرها في العالم الحسي.

-وإن لم يتذكرها؟

-عليه أن يؤمن بها بالغيب، ليحقق قدره ومصيره، الدخول إلى الجنة أو النار.

-لم أقرأ عن نظرية الأشكال هذه من قبل.

-حاوِل أن تقرأ عنها، ستجد فيها حكايات طريفة جدًّا، حكاية عن كهف وأناس مقيَّدين في هذا الكهف وصور منعكسة على الجدار من خلف ظهورهم.

-أعدك أن أفعل.

ارتاح «إسرا» على مسند مقعده الوثير وقال:

-عندما تصل إلى سنّي ورفاهيتي ستجد وقتًا كافيًا للتفكير، خاصةً مع ما توليه المؤسسات عندنا في حي شرق من عناية بالأخلاق وفكرة المدينة المثالية

والإنسان الكامل.

-منذ قليل كنت تطلق عليه لقبًا آخر: الإنسان السماوي.

نظر «إسرا» بإعجاب إلى «عبد الرحمن» قبل أن يقول:

-نعم، أنت قوي الملاحظة، لكنَّه افتراض سيئ على أي حال، لن يسعدك أن تسمعه.

-كلي آذان مصغية.

-سأخبرك، لكن لا تنقل ذلك عني، إذا كانت الأشياء في هذا العالم انحرافًا عن فكرتها الأساسية، التي لن نراها إلا عند صعودنا للسماء، فلماذا نفترض أننا مختلفون عنها؟

-لأننا مختلفون عنها فعلًا.

-فكرةُ تكريم الإنسان، أليس كذلك؟ النبوة والفلسفة والاكتشاف.. الرجل الذي فكَّ قيده وخرج من الكهف فعرف أن الظلال التي يراها هي انعكاسات لأشكال حقيقية.. لكن لماذا لا نكون نحن أنفسنا ظلالًا؟! كل واحد فينا هو ظل لإنسان يعيش في السماء، إنسان كامل، ونحن مجبرون على تقليد حركاته أو الوصول لمثاليته؛ فربما كان «عبد الرحمن» و«إسرا» الكاملان اللذان نشبههما في السماء يشربان الخمر الآن، ويتحدثان عمَّا يجب أن نتحدث عنه في الحقيقة.

-وما الذي يجب أن نتحدث عنه في الحقيقة؟

-هذا هو السؤال، بالطبع لن يتحدثا عن موضوع العرض الذي تلقيتَه بشأن الانتقال، لا بُدَّ أن هناك أمرًا مهمًا، أمرًا كاملًا، صدِّقني يا «عبد الرحمن»، نحن نعيش حياة فارغة، نحن مجرد تقليد سيئ لحياة؛ لهذا يجب أن نسأل أنفسنا باستمرار حتى لا ننحرف عن الوجود المثالي للإنسان: ما الذي يجب أن نفعله في هذه اللحظة؟ وأن نستثني من ذلك لحظات النوم والخلاء.

-والمتعة.

قهقه «إسرا»:

-هل أنت عذري الفكر يا باشمهندس؟ لعلك تحتقر الشهوة، لكنْ صدِّقني، لا يوجد ما هو أفضل من لحظات المتعة، الأمر الوحيد الذي نتفوَّق فيه على القرين السماوي بالتفاصيل هو لقاء مع الجنس الآخر، لكنَّ هذه اللحظات لا تستمر كثيرًا للأسف.

-ربما تستمر كثيرًا هناك.

-جميل، ها أنت ذا قد بدأت تضع قواعد لدين جديد يقول إن هناك «فياجرا» سماوية.

ابتسم «عبد الرحمن» وهو يتخيَّل الفكرة ثم قال:

-هل تعرف ما الموضوع الذي يمكن أن يتحدث فيه «إسرا» و«عبد الرحمن» السماويان؟ ربما سيتحدثان عنا، عن الضعف والنقص، وأن المتعة كامنة في الأمور الناقصة فقط، الأمور التي تنتهي ونخاف من انتهائها، ويجدان الحسد في نقصاننا كما نجده نحن في كمالهما.

-نعم، هذا عزاء جيد، وربما كانت هذه هي فائدة الحياة، أن نجرِّب النقيضين.

ثم لبث قليلًا وهو يتأمل وجه «عبد الرحمن» وقال فجأة:

- تعالَ.

مشيا في الرواق الجانبي، في نهاية الرواق بابٌ به مفتاح كبير من النحاس اللامع، أداره «إسرا» ودفع الباب فأبهر الضوءُ عينَي «عبد الرحمن» لثوانٍ قبل أن يتبيَّن أنه يقف في غرفة واسعة جدًّا، غرفة مكتب، أرفف عامرة بالكتب والأكلاسيهات.

قال «إسرا» وهو يشير إلى المكتب الفخم:

-كل قرارات المدينة الجديدة خرجت من خلف هذا المكتب.

ثم قاده إلى شرفة تطل على النهر، جلسا على مقعدين فارهين من الجلد.

-هل تعرف أنه في حي شرق لا توجد فنادق؟ عندنا قانون يمنع إقامة فندق.

-أين يقيم الغرباء إذًا؟

-لا يوجد غرباء، كل معاملاتنا وصفقاتنا التجارية نقيمها بالكامل هنا، في حي غرب، ولا يوجد بحي شرق إلا أهله.

ثم سرح ببصره وهو يقول:

- صدِّقني، أنا أحمد الله عشرات المرات في اليوم لأنه

أوجد هذا النهر، ووفَّق الحي لقرار غلق الكوبري الثالث.

«المعبر».. هكذا قال «عبد الرحمن» في نفسه، ثم نظر إلى ساعة هاتفه مخافة أن يكون قد أطال على «إسرا» وقال:

-مرَّ نصف ساعة، سأعطِّلك عن غدائك.

-لا تكُن موتِّرًا مثل صاحبك الذي أتى بك، لا يزال في الوقت متسع.

-أريد أن أعرف لماذا أنا هنا.

تنهَّد «إسرا» وكأنه تضايق من الإصرار، ثم قال:

-اسمع يا باشمهندس، أريدك أن تعلم أننا في حي شرق نفهم العدالة كما يجب أن تُفهم؛ لهذا فعلى الرغم من أنك هنا الآن تمتلك فرصة لم يحلم بها رجل يعيش مثل حياتك، بينما كل ما تعرفه عن حي شرق مجرد كلام، أوصاف من أشخاص لم يعاينوا، أجد في داخلي الرغبة في أن أنصحك بشدة، صدِّقني، الأمر يستحق المعاناة، وتنازُلك عن الفرصة على الرغم من الإشكاليات التي طرحَتها عليك «إسراء» يُعتبر حماقةً شديدة، حتى لو عرضا عليك ثمنًا مناسبًا.

-وهل هذا التنازل ممكن قانونًا؟

-لا، ونعم.. عندنا في محاكم حي شرق قانون غريب اسمه «عفو الحالة الأولى»، قريب من الحالة الفقهية المعروفة بـ«المسكوت عنه»، مع جزء مِمَّا عمَّت به البلوى؛ فطالما لم يتم عرض حالة شبيهة بحالتك من

قبلُ للمحاكمة فلا يمكن تجريمها ما لم يتضرر أحد.

-لكنَّه غش.

-غش لمن؟

-حتى لو افترضنا رضا الطرفين، هذا غشٌّ للحكومة، غشٌّ للفرصة التي منحتني إياها.

-الحكومة عوَّضت معاناتك بالفرصة التي منحتك إياها، وأنت ستشتري أشياءَ أخرى بهذه الفرصة، هناك بيع وشراء، وما دامت السوق لم تنفض وينصرف الباعة والمشترون، فكل شيء يمكن بيعه.

-حتى المعاناة؟!

-إلا المعاناة، أنت لا تبيع معاناتك يا «عبد الرحمن»؛ لأننا لم نشترِها سلفًا، بل عوَّضناك عنها.. هل فهمت؟ والمهم عندنا أننا نحصل على مواطن واحد، وفي الوقت ذاته نحقق العدالة.

-وما العدالة؟

-العدالة بمفهومها الإنساني أن تزول المأساة في زاوية الرؤية، وفي زاوية الرؤية هناك عدالتان لا يمكن تحقيق إحداهما إلا بإلغاء الأخرى، أن تحصل أنت على الانتقال إلى مجتمع تعوِّضك مميزاتُ العيش فيه عمَّا حدث لك، أو يحصل زوج «إسراء» على فرصة الانتقال ليصبح مع عائلته.

-ولماذا لم تمنحوه فرصة مجانية لاعتبارات العدالة؟!

-لو ضربت لك مثلًا قريبًا بما تحدثنا فيه ستفهم:

بعض الأشخاص تمنعهم المعاناة من أن يكتملوا، وبعضهم تمنعهم الرغبة، زوج «إسراء» من النوع الثاني؛ ليس له قرين سماوي ولا يمكن له بأي حال من الأحوال أن ينتقل إلى حي شرق، حتى في حالته الكاملة، بمؤهلاته وأخلاقياته وسيرته الحياتية، هل تعرف عدد المرات التي قدَّم فيها للعمل في مكتبنا هنا، عدد الوسائط التي دفعها للتوسط له؟! وكل هذا كان مصيره الفشل والرفض، إنه شخص محكوم عليه بالتعاسة، إلا إذا أعطاه شخص مثلك فرصته.

-هل يعرف ذلك؟

-«إسراء» تعرف، لكنَّها إنسانة عمليَّة جدًّا، في جزء من حياتها معه تواصلت مع مواطن من مواطني حي شرق، صار بينهما نوعٌ من الإعجاب المتبادل، تبادلا الصور والرسائل وتحوَّل هذا الإعجاب إلى حب، كان يمكن أن تختصر على نفسها عناء انتظار خمس سنوات وتُطلِّق من زوجها الحالي وتتزوج الآخر فتنتقل، لكنَّها رفضت هذا الحب، وأصرَّت على أن تحصل على فرصة كاملة، هل تعرف لماذا؟ لأن تصريح الانتقال بالزواج ينتهي لو حدث الطلاق، وهي أعقل من أن تضع نفسها تحت رحمة أحدٍ حتى لو كان زوجًا محبًّا.

تَلبَّثَ «عبد الرحمن» قليلًا محاولًا هضم هذا الجزء الغريب من حياة «إسراء»، ينظر إلى النهر وإلى المارة على الكورنيش وإلى الناحية الأخرى من النهر، البيوت الملونة البعيدة، المنظر المكرر بطول عشرات

الكيلومترات على الضفة الأخرى للنهر.

سأل «عبد الرحمن»:

-لماذا فرصة زوج «إسراء» في الانتقال مستحيلة؟

-قانون الانتقاء المهني؛ فنحن هناك قد وصلنا إلى مستوى من العناية بالإنسان يجعلنا نرفض أن يعمل مواطنونا في مهن معينة، سواء لجزء من حياتهم أو حياتهم بأكملها، المهن التي يتمرَّس صاحبُها على الكذب والانكسار والخضوع أو انتهاج سلوك قد يهزُّ اللحظات الجليلة في حياة الإنسان: البوَّابون والسبَّاكون وحفَّارو القبور والخدم ورؤساء الدول والأحزاب والصحافة وتخصصات معينة من الأطباء. زوج «إسراء» شرس، فاسد، أهوج، بالإضافة إلى ذلك درس الفندقة؛ خدمة الآخرين عبر مؤسسة تقدِّم الطعام والشراب والجنس ما دام الزبون يحبها ويطلبها، ويدفع الثمن.

-وماذا تفعلون في التخصصات التي تحتاجون إليها؟

-نجاهد من أجل ألَّا نحتاج إليها، وما نحتاج إليه بشدة نأتي به من هنا، من حي غرب، تصاريح الانتقال المؤقتة، خدمات التعاقد باهظة الثمن مع الرقابة المستمرة وإلغاء التعاقد مع أول بادرة سيئة.

-وماذا عني؟ أقصد مهنتي كلحَّام، هل هي من المهن المحظورة عندكم؟

نظر «إسرا» إلى عينَي «عبد الرحمن» مباشرة وقال:

-مُعضلتك ليست في مهنتك يا باشمهندس، بل في

انهزامك الشخصي، سيرتك الشخصية في انتقالك من عملك مهندسًا إلى مهنة حرفية، ما يُعد انهزامًا شخصيًا لا تستطيع أن تقبله معاييرنا في الأحوال العادية، لكنَّك مررت بأزمة، وأثر الأزمة مع الأثر الأول لانتقالك إلى مجتمع جيد سيصنع منك إنسانًا جديدًا.

-إذًا لم يكُن طلبي للعمل في حي شرق سيُقبل لولا الحادثة!

-بالضبط، لو كان لزوج السيدة «إسراء» نصف فرصة فأنت في حالتك العادية لا تمتلك معشارها، أنتما تتعاركان على القدر في الحقيقة.

-قدري؟

-قدرك وقدره.

-وما علاقتي به أو علاقته بي؟

-لا تقُل لي إنك لم تفكر في الأمر عدة مرات، هذا جزء من فلسفة الطابور الذي يدمنه الإنسان المشوَّه، الحصول على الفرص المتاحة، أنصاف الفرص أو أرباعها، الفرص التي لا تخصُّك، المنهوبة، والتي لا تناسبك بشكل كامل، الإنسان في حي غرب يخوض صراعًا متعددًا في الوقت ذاته، معركة محسومة سلفًا لصالح الشر؛ ففي الوقت الذي تختار فيه بين مهنتين فأنت في الحقيقة لا تختار بينهما بقدر ما تختار بين الجوع والشبع، بين أن تمتلك زوجة وأولادًا أو لا، أن تمتلك آدميتك أو أن تفقدها.

-وما الذي تظن أنني فكَّرتُ فيه بنفسيتي المشوَّهة؟

-أن تتزوَّج «إسراء» بعد أن تنتقلا معًا.

صاح «عبد الرحمن» مندهشًا:

-هذا جنون!

-صدِّقني يا «عبد الرحمن»، لا يوجد خيارٌ فيه امرأة ويكون أخلاقيًا مِئَة في المِئَة، أنت مستاء من كلامي، ولا ألومك على ذلك، هذه هي الحقيقة، أنت تحلم بامتلاك زوجته كما يحلم هو بامتلاك فرصتك، ستكون خيارها الوحيد هناك، وتكون خيارك الأوحد.

ثم قال بلهجة أراد لها أن تكون ساخرة، لكنَّها كانت مفزعة:

-واحد فيكما سيصبح إنسانًا كاملًا في النهاية، والآخر سيسقط ويضيع في عالم الأشكال إلى الأبد.

***

من بين الجالسين على مقهى في الناصية المقابلة للفندق، اثنان ينظران بدأب إلى الباب الزجاجي، بمجرد خروج «عبد الرحمن» انتفض أحدهما، ووقف بسرعة مصدرًا جلبةً لفتت أنظار حارسي الفندق وزبائن المقهى، ولحق به، أما الآخر فسدَّد حسابه وتبعهما صامتًا، كان المهندس «طارق»، أما الذي لحق بـ«عبد الرحمن» فكان زوج «إسراء».

-ماذا قال لك الرجل الكبير؟

كانت هذه الجملة الأولى التي قالها بفضول شديد؛ إذ جاوره وضبط إيقاع خطواته على خطوات «عبد الرحمن»، لم يرد، لكنَّ الآخر استمر في الكلام:

-أرجو ألَّا تسيء الظن بي، توجد بعض الأمور التي لو وضحتُها لك ستفهم، أولها: أنني لم أناقش معك الأمر بنفسي كالرجال لأن «إسراء» أصرَّت وقالت إنها ستكون قادرة على إقناعك بحكم مهنتها، ثانيها: الأمر برمته لا يمكن أن يتم إلا برضاك التام، والتعويض المادي بجانب الخدمة التي ستؤديها لنا يُعتبر لا قيمة له، لكنَّ هذا ما نستطيع تقديمه لك.

بدأ يلهث وهو يتكلم، يمشي ويتكلم، ويستعمل الزفير في تشكيل كلماته، ترقُّ نهاية الكلمات وتصخب بداياتها أو العكس، لدرجة أن السائرين كانوا يلتفتون إليهما لبرهة قبل أن يلووا رؤوسهم.

-لماذا لا نوقف سيارة أجرة؟

توقَّف «عبد الرحمن»، أشار زوج «إسراء» بيده

واستمر في الحديث بعد أن انطلقت بهما سيارة الأجرة:

-أرجو أن يكون حوارك معه قد ساعدك في اتخاذ القرار؛ فالوقت ليس في صالحنا، وبمجرد أن تقول الكلمة سيستغرق إعداد الورق يومًا كاملًا أو زيادة.

قال «عبد الرحمن» شاردًا:

-لقد تحدثنا كثيرًا أنا وهو.

-واضح، من الوقت الذي استغرقتماه يبدو أن الحديث كان مستفيضًا.

-لم يكُن الحديث عن موضوع المبادلة فقط، كان عن أشياء أخرى يبدو أنها قريبة من الموضوع، لكني لم أفهم العلاقة.

-لا تهتم، ما هو خاص بموضوعنا خاص بموضوعنا، وما هو خارجه اعتبره حديثًا عابرًا.

-أحتاج إلى ترتيب أفكاري.

-بالتأكيد، لكنِّي أريد ردًّا ابتدائيًّا، أقصد: هل تميل إلى الرفض أم الموافقة؟

-لو قلت لك إنني أميل إلى الموافقة، هل ستصدقني؟

-طبعًا بالتأكيد.

-ولو قلت إنني أميل إلى الرفض؟!

-سأتقبَّل الأمر بصدر رحب.

-إذًا، دع الأمور معلقة، سأخبرك غدًا على الأكثر.

-ما الذي تحتاج إليه؟ يمكنني أن أساعدك على التفكير، أن أمدك بالمعلومات.

-هل اشتغلت في فنادق من قبلُ؟

-لا، درست الفندقة، لكنّي لم أعمل في فندقٍ من قبلُ، حاولتُ العمل، لكنَّ «إسراء» غضبت ورفضت، لماذا تسأل؟

-مجرد سؤال عابر.

كانت سيارة الأجرة قد وصلت إلى نقطة البداية، المكان الذي التقيا عنده، قال الزوج في قلق وهو يفرك يديه:

-يمكننا أن نذهب إلى مطعم ونتحدث عن الموضوع لو أردت.

-لا، سأنام، هذه تعليمات الطبيب.

أمر السائق بالتوجه إلى عنوان المكان الذي يسكن فيه «عبد الرحمن»، مكثا صامتَين حتى وصلا، نزل «عبد الرحمن» من سيارة الأجرة وبقي الزوج، وقبل أن تنطلق مرة أخرى قال في ود طارئ:

-سأتصل بك غدًا لأطمئن عليك.

***

لم ينَم، كيف ينام بهذا القلب، وفي يوم بدا كأنه يوم الأشخاص الذين ينتظرونه، أسفل البنايات وفي المقاهي، وعلى قارعة الطريق، وعلى الدرج؟! يمر به «عبد الرحمن» صاعدًا فيهمس باسمه وهو يُفسح له:

- أستاذ «عبد الرحمن»؟

يرد:

-هو أنا، تحت أمرك.

ينظر الرجل الزائر إلى وجهه، باحثًا عن الضمادات التي أُزيلت وشكَّلت جزءًا من وجه «عبد الرحمن» الذي يعرفه الناس.

في غرفته يُجلسه «عبد الرحمن» على مقعد ويجلس هو على طرف السرير، كوب الشاي الذي أعده له على عجل ينتقل من يد إلى يد إلى فمه المتعجِّل، يرشف ويجفف عرقه بمنديل ورقي ثم يبحث بعينيه عن سلة قمامة فلا يجد، فيدس المنديل في جيب سرواله، ويتعرَّق من جديد:

-أنا .....

يذكر اسمًا لا يعرفه «عبد الرحمن»، أو لا يتذكره، فيرد عليه:

- تشرفنا.

يستأنف:

-أنت الشاب الأخير، لا تعلم مقدار الجهد الذي بذلته لأصل إلى عناوينكم، فلا بُدَّ من أن أحادثكم وجهًا لوجه؛

لأن الأمر خطير فعلًا.

-أي أمر؟

-اصبر عليَّ، أنا أقوم بهذا بلا أجر، وعندما أقول بلا أجر فهذا لا يعني أن مجهودي سيذهب بلا مقابل، يكفيني أن أفضح الحكومة وحي شرق اللذين يدَّعيان النزاهة والشفافية، أنفق من جيبي الخاص لأصل إليكم، وكل هذا يهون من أجل شباب مجتهدين مثلكم، عَجَزة، أقصد: إصاباتهم مزمنة.

-ما الذي يحدث يا أستاذ...؟ (يحاول «عبد الرحمن» أن يتذكَّر اسمه فلا يستطيع، يحاول أن يتذكَّر إن كان قد ذكر اسمه أم لا، يراقب الآخر وجه «عبد الرحمن» بلا أدنى رغبة في المساعدة).

-ما يحدث هو أن حي شرق لم ولن يتخذ أي إجراء في صالح انتقالكم.

-لكنِّي أعرف أن باقي الشباب قد انتقلوا.

ضرب الضيفُ كفًا بكفٍّ مندهشًا:

-أتمنى أن أعرف بالضبط من أين أتيتم بهذه المعلومة؛ فهي متداوَلة بينكم بشكل مؤسف.

قبل أن يفتح «عبد الرحمن» فمه، عاجله الآخر:

-وبهذه الطريقة يجعلون كل واحد منكم يعتقد أنه الأخير.

-ولماذا يفعلون هذا؟

-لأن أمر انتقالكم لم ولن يكون.

-وما السبب؟

-سبب واحد؟! قل أسباب، لكنْ دعنا من الأسباب ولنسأل سؤالًا: هل سبق وحدث أن انتقل مواطن من حي غرب إلى حي شرق بشكل نهائي؟ الإجابة كالشمس: لا.

-لماذا أعلنوا إذًا أن...

-لأنهم يعلنون دائمًا؛ ليوهمونا بالمساواة والعدل وتساوي الفرص، من المؤسف أن شابًا مثلك، حاصلًا على شهادتك الجامعية ويعمل في السوق ولا يعرف، على الرغم من أن الحقيقة واضحة.

ثم طلب كوبًا من الماء، وعندما أتى به «عبد الرحمن» كان قد استرخى قليلًا:

-لو أنك متابعٌ جيدٌ لعلمتَ أن ما يحدث هو مجرد تحريك للدماء، المال الذي تدفعونه لإعداد أوراقكم يصب في جيب الحكومة، الحركة التي تقومون بها في البلد تضخ الدماء وتفرغ قليلًا من القلق والغضب الشعبيين، لكنَّ الذي يعلم يعلم أن كل جوائز الحكومة محجوزة سلفًا: العمل في مصالح الحكومة، الترقيات، الجوائز، التكريمات، الانتقال لحي شرق هو أكبر جائزة يمكن أن يحصل عليها المرء في مدينتنا، لكنَّ حي شرق يا صديقي ليس لنا، لا يمكن أن ينتقل إليه واحدٌ منا، قد تُوظَّف في الحكومة وتترقى وتُكرم بالرشاوَى والنفاق، إلا أنه من المستحيل أن تنتقل إلى حي شرق، وهذا ما جئتُ من أجل أن أثبته لك، وفِّر وقتك ومجهودك يا

عزيزي الشاب.

-مستعد أن أوفره، لكن عليك أن تبذل مجهودًا لإقناعي بصحة ما تقول، كان يمكن أن يعوِّضوا المضارين في الطابور بطريقة أخرى بدلًا من أن يخاطروا بافتضاح أمرهم! اعذرني، لكنِّي أجد صعوبة في تصديقك، لماذا تكلِّف الحكومة نفسها وبمقدورها ألَّا تفعل؟! من دون تفسيرات ساذجة من فضلك، من عينة جمع المال وضخ الدماء والمساواة.

نظر الضيفُ إلى وجه «عبد الرحمن»، ليست نظرةَ مَن احتار في السؤال، بل كان مندهشًا دهشة الذي فوجئ بمدى ضحالة وسذاجة محدثه، ثم تنهَّد:

-صدِّقني، نحن أخف عندهم من ذلك، بإمكان مسؤول في الحكومة أن يعدك بالجنة ليقبض الثمن، هل تظن أن العشرين شابًّا نالوا انتقالًا مجانيًّا؟ تعرف، كنت سأفرح، لكنْ للأسف، كلكم تلاقون نفس المماطلة والتسويف..

ثم تنهد، وكان عرقه قد جف، فقال «عبد الرحمن»:

-لكنهم لم يماطلوني؛ لأنهم أرسلوا لي بالبريد وقمت بملء ورقة استبيان، وهناك طبيب يتابع حالتي.

نفث الآخر نفثة استهزاء وقال:

-لم أندهش، لم أفاجأ حتى، أولًا: اسمها ورقة الأسئلة الأربعة، وجميعكم حصل عليها.

قال «عبد الرحمن» مُصرًّا:

-وهناك أيضًا ذلك الرجل الذي اتصل بي من مجلس

مدينة حي شرق.

قال في لا مبالاة:

-ما اسمه؟

-اسمه «إسرا».

فوجئ الرجل:

-هل هذا اسم؟ أقصد: هذا هو النطق الصحيح للاسم: «إسرا»؟

-نعم، «إسرا»، ماذا حدث؟

-سبحان الله! لماذا يختار نصاب حكومي هذا الاسم اللافت؟!

-أنت مُصرٌّ على نظريتك!

-على الرغم من أن إصراري يزيد تعقيد الأمور؛ لأن باقي رفاقك لم يتصل بهم أحد، أعطوهم ورقة الأسئلة الأربعة وطلبوا منهم أن يثبتوا صحة إجاباتهم لدى الهيئات الحكومية المختصة: وزارة الداخلية ومكتب العمل وهلم جرًا، كمية أختام وتوقيعات من المستحيل استيفاؤها قبل مرور أشهر.

-الورقة التي أخذوها مني؟

-هل أخذوها منك؟ غريبٌ جدًا، بالإضافة إلى الرجل الذي قلت إنه اتصل بك، لا يوجد موظف في حي شرق ولا حي غرب، لا موظف كبير ولا صغير، اسمه «إسرا»، أقول هذا دون مراجعة السجلات.

ثم دفس يده في جيب بذلته الرمادية وأخرج

بطاقته الشخصية وصورًا وأوراقًا خاصةً بعمله، كلها تثبت أنه يحتل منصبًا مهمًا في شؤون أفراد العاملين في رئاسة الحي:

-أجهل الخديعة التي تتعرَّض لها ولكني غير مطمئن، أعتقد أنك تتعرَّض لقضية نصب بالتوازي مع قضيتك، ودهاليز الحكومة مليئة بشخصيات مختلفة تمتهن النصب، ربما يكون موظفًا على المعاش، أو رجلًا له علاقات فاسدة، وعلى أي حال لا بُدَّ أن تكون حذرًا، الحذر واجب، خاصةً لمن هو في حالتك، وشخص مثله يتستَّر خلف التليفون، أي شخص يستطيع أن يحصل على خط هاتف ويشوِّش المواطنين..

-لكني قابلته.

-قابلت من؟

-«إسرا»، قابلته وجهًا لوجه.

-هل تستطيع أن تصف لي شكله؟

-أستطيع طبعًا، لقد أتيت توًّا من عنده.

-معقول؟! الموضوع جاد إذًا!

قال هذا ثم استعاد نفسه سريعًا:

-لكن إليك النصيحة: لا تثق بموظف حكومي خارج محل عمله، وأيضًا لا تثق به داخل محل عمله إن أمكن، ولكي لا تظن أنني مفرطٌ في التشاؤم سأجاريك، صِفْهُ لي.

أخذ «عبد الرحمن» يصف ملامح رجلٍ في سن

الخمسين، أطول قليلًا مع بنيان متين، ركّز الوصف على وجهه، أنفه ولونه ولون شفتيه الغريب المائل إلى حمرة لا تنبغي لمن هو في سنه المتقدمة، قال الآخر في النهاية بعد صمت:

-لا أتذكر أحدًا بهذا الوصف، لكن قُل لي، أين قابلته؟

-الفندق الأبيض، الدور السابع، جناح كامل.

-هذا غريب، الدور السادس والسابع في هذا الفندق خاصان فعلًا بإقامة الموظفين الكبار في حي شرق. قل لي.. هل استقبلك في قاعة الضيافة بالدور الأول أم...

-استقبلني في غرفته، الدور السابع.

-أنت متأكد أنه الدور السابع؟

-نعم، متأكد جدًا.

-هل يمكن أن أعرف فيما تحادثتما؟

-لا أستطيع أن أخبرك.

تنهد مستاءً ثم قال:

-اسمع يا أستاذ «عبد الرحمن»، سبق أن أخبرتك أن ما أقوم به تطوع كامل مني، بل يمكن اعتباره مخالفًا للقانون الذي أقع تحت طائلته، لكنّي أكره الظلم والكذب، وسواء أخبرتني بما دار بينكما أو لم تخبرني، سيَّان، لن أتخلى عنك، ولا أريد منك أن تخطو خطوة واحدة إلا بعد أن تخبرني.

-أعدك بذلك.

-اتفقنا.

وقف فوقف «عبد الرحمن»، تبادلا أرقام الهواتف وتصافحا، ثم سأله:

-أخبرني يا أستاذ «عبد الرحمن»، الرجل الذي قابلته في الفندق، «إسرا» أو أيًّا ما كان اسمه الحقيقي، هل كان على جانب عنقه، في هذه النقطة بالذات، وحمة سوداء؟

-فعلًا. هل عرفته؟

***

هذه المرة لم يخجل الزائر من أن يطلب قهوة مضبوطة، سطا «عبد الرحمن» على مخزون «جاسر»، وبينما يعد القهوة كان صوته يصل إليه وهو يُجري مكالماتٍ هاتفية هامسة تردد خلالها تاريخٌ معين، اليوم والشهر والسنة، حمل «عبد الرحمن» القهوة إليه فوجده قد خلع سُترتَه وشمَّر عن ساعديه وارتاح في جلوسه على المقعد بعد أن فتح النافذة على مصراعيها، أخذ فنجان القهوة وهو يتمم مكالمته، جلس «عبد الرحمن» على السرير وانتظره حتى انتهى من ارتشاف قهوته ثم سأله:

-ماذا وجدت؟

-الموضوع معقَّد وغامض، الرجل الذي تصفه ليس موظفًا، لا يحتاج للوظيفة أصلًا، لا هنا ولا في حي شرق؛ فهو رجل غني، ملياردير، يستطيع أن يشتري الوزارة بمرافقها وموظفيها من دون أن يختل جبل الفلوس الذي يجلس عليه، الفندق الذي قابلك فيه ملكه بالكامل، كل فندق حاصل على خمس نجوم في الدولة له أسهم غالبة فيه، ويمتلك بالكامل سلسلة مطاعم شهيرة، ومصانع بسكويت وحلوى وهلم جرًا.

-والمراسلات؟ وموظف البريد الذي سلَّمني الخطاب وعليه إمضاؤه؟ والأشخاص الذين قدَّموه لي باعتباره موظفًا؟

-كل هذا يمكن أن يدبِّره الرجل ببساطة، لكنَّ السؤال: لماذا يخدعك رجلٌ مثله، وبنفسه؟ إصرارك على ألَّا

تخبرني بتفاصيل ما دار بينكما يجعل الصورة غير كاملة عندي، لو أخبرتني فقط!

-لا أستطيع أن أخبرك.

-حسنًا حسنًا، حقك، لكن لا تلومنَّ إلا نفسك.

-لكن كيف عرفته؟ أقصد: من وصفي لملامحه، لا يُفترض بموظفٍ مثلك أن يعرف ملامح الملياردير‌ات بهذه الدقة.

-أنت محق، لكنَّ «إسرا» ليس أي ملياردير؛ لقد تسبَّب في أزمة إدارية منذ ما يقرب من ثلاث سنوات جعلت وجهه معروفًا لجميع موظفي حي شرق وحي غرب، أزمة مضحكة لو أردنا وصفها، لا أريد أن أصدِّع رأسك.

-لا تقلق على ذلك، أنا مهتم بمعرفتها.

-كما تشاء (ثم تنهَّد كأنه سيخوض في حديث طويل).. الموضوع أنه في نهاية يوم عمل حكومي عادي أرسل شخصٌ ما بالفاكس إلى جميع هيئات الحكومة في حي غرب منشورًا مبهمًا، لقد تم إقرار إجازة رسمية في حي شرق، هذا المنشور نزل في الساعة الأخيرة قبل انصراف الموظفين بجميع الهيئات الحكومية والخاصة، بدا حينها أن الموظف الذي كتب المنشور نسي أن يكتب المناسبة، وهذا أمر قد يحدث؛ لذا فقد كان أمام حي غرب القيام بشيئين: أن يتجاهلوا المنشور ويذهب الناس إلى عملهم في الصباح التالي، وفي هذه الحالة إذا تم إقرار اليوم إجازة حسب المتبع بين حي غرب وحي شرق ستضطر الحكومة إلى

تعويض الموظفين عنه بالأجر والاستعواض. الخيار الثاني: أن ينفِّذ المنشور ويعطي الإجازة لموظفيه حتى يتبيَّن الأمر.. الخيار الثاني هو الأقل تكلفة وكان اختيارًا جماعيًا.

- وكيف يُعقل أن يحتفل أهل حي غرب بمناسبة لا يعرفونها؟

- نحن مجبرون على الاحتفال بمناسبات حي شرق، كل مناسباتهم. تودُّد، نفاق، سمِّه كما تشاء، لكنْ لا تسمِّه كما يسمونه: ترابط شقي المدينة؛ فهم لا يحتفلون بمناسباتنا، ويعوِّضون موظفيهم بمبالغ خرافية وفقط.

المهم أن الموظفين فوجئوا بإجازة لم يعدوا لها العدة، لدرجة أن بعضهم ذهب للعمل في الصباح، والشوارع ظلت فارغة حتى الظهيرة، كأنهم فضَّلوا النوم على أن يشتركوا في مناسبة لا يعرفون سببها، والذين خرجوا جلسوا على المقاهي مستعيدين الأيام الجميلة التي كانت فيها المناسبات مفهومة، شم النسيم ينزلون إلى الحدائق بالسعف والبيض الملوَّن، وفي عيد الثورة ينزلون بصور الرئيس وأعلام البلاد، وفي المولد النبوي ينزل الناس ليشتروا الحلوى الحمراء والحُمُّصيات، أما في عيد الحب فينزلون بالورود ويختلسون القبلات في الحدائق، وفي عيد العمال ينتظرون علاوة الرئيس، أما هذا العيد المبهم، فما الذي سيفعله الناس؟ ظلوا نائمين في البيوت كأنهم ينتظرون أن يشرح لهم أحدٌ ما الذي يجب عليهم فعله للاحتفال.

قبل الظهيرة، ولتأكيد المناسبة، مرَّت باصات بيضاء على جامعي القمامة وشرطة المرور في الشوارع ووزِّعت عليهم الحلوى والهدايا الرمزية، في الوقت الذي كانت الهواتف الخاصة لرؤساء الإدارات لا تكفُّ عن الرنين ليكتشفوا الأمر، لقد تم خداع الحكومة بمنشور لا أصل له من الصحة؛ فاليوم ليس يوم إجازة في حي شرق، كان يومَ عملٍ عاديًا تمامًا هناك.

صاح «عبد الرحمن» مندهشًا:

- لكن كيف يقع رؤساء الإدارات في خديعة سهلة وواضحة كهذه؟! على الأقل كان يجب على رئيس حي غرب أن يتصل بنظيره في حي شرق.

ضحك الزائر ضحكة مضمرة، وكأن نوع هذا الحديث دار أمامه عشرات المرات، ثم نظر في عينَي «عبد الرحمن» وأخذ يعد على أصابعه في ثقة:

- المستحيلات الأربعة: الغول والعنقاء والخل الوفي وعلاقة جيدة بين موظف هنا ونظيره هناك في حي شرق، هذه ليس المرة الأولى التي نتعرَّض فيها للسخرية بسبب التواصل السيئ بين موظفي حي غرب وحي شرق.

- السخرية؟!

- طبعًا، هذا لفظ جامع لما حدث، تخبط، وغضب عارم، وشماتة، لم يمر الأمر بسهولة، فلو اتخذ رئيس حي غرب أي إجراء لحِفظ ماء وجهه سيثور الموظفون ضده، وسيضعه صمته في حالة أشد سوءًا من تصريح

غبي؛ لأنه لا يوجد تصريح ذكي لهذه الحالة، هناك يوم عمل ضاع بلا وجه حق، ولا يوجد كبش أضحية مناسب لحادث كهذا، فقررت الحكومة التضحية بالموظفين، بعد العصر نقلت القناة المحلية خبر تصريح المحافظ بأن الخطأ الذي حدث يتحمله بالكامل رؤساء القطاعات الذين استجابوا لمنشور مُبهَم، وقرر أن اليوم سيتم خصمه من المرتب الشهري لموظفي القطاعين العام والخاص، بعد نصف ساعة من التصريح نزل الموظفون إلى الشوارع بكثافة رهيبة، غاضبين، وبدأ تكسير واجهات المصالح الحكومية، وانتقل الأمر إلى المحلات الخاصة الكبيرة، وقبضت الشرطة على عدد كبير من المشاغبين، وبعد أن وصل الأمر إلى الحافة ظهر صاحبك الملياردير على قناة فضائية في بيانٍ مدفوع الأجر، اعترف أنه صاحب المنشور وأنه مُلزَم بدفع جميع النفقات التي تطلبها الحكومة مقابل اليوم الذي ضاع، وإصلاح الأماكن التي أضيرت ودفع كفالات المشاغبين الذين قُبض عليهم.

- لكن لماذا فعل هذا؟!

- قال إنه أراد للناس أن يحتفلوا بعيد ميلاده، لكنَّ الشائعات كثيرة، تكلفة ضخمة كالتي تكلَّفها لا يمكن أن تكون من أجل سببٍ تافهٍ كهذا، بعض هذه الشائعات تقول إنه ضد التمييز بين مواطني ضفتي النهر، وهذه قضية قديمة جدًا، لكنِّي لا أعتقد أن هذا هو السبب، البعض قالوا إنه أراد أن يسخر من نظام الفصل بين

المدينتين الذي لا يُتيح له نشر مطاعمه وفنادقه في الجهتين، كما تعلم أو قد لا تعلم، هناك قانون في حي شرق بعدم إقامة فنادق أو بنايات أعلى من دورين، والمطاعم لها مواصفات خاصة جدًا، ولا بُدَّ أن تكون معظم أسهمها مملوكة لمواطن مقيم من حي شرق، في الغالب أراد صاحبك أن يتسبب في ثورة شعبية لإحراج المحافظ، والنتيجة المرجوَّة أن يُتخذ قرار سيادي بفتح الكباري وإزالة الحواجز بين المدينتين، لكنَّ فشل هذه الحركة الغريبة جعله يخرج بهذا التصريح الساخر، بل أجبر الحكومة على ابتلاع سخريته بالسيولة النقدية التي لوَّح بها، والتهديدات المضمرة بتعسير المصالح المشتركة بينها وبينه، المال هو كل شيء يا أستاذ «عبد الرحمن».

- وهل تعتقد أن ما يفعله معي الآن متعلِّق بهذا الغرض القديم؟

-بنسبة كبيرة، مكر الليل والنهار.

-لكنَّ هناك شيئًا لا أستطيع أن أفهمه.

-وما هو؟

-لماذا يقوم «إسرا» بذلك – لنسمِّه «إسرا» - وبإمكانه القيام بما شاء من مشاريعه في حي شرق باعتباره مواطنًا هناك؟

-من أخبرك بهذا؟ صاحبك الملياردير مواطن من حي غرب في الأساس، وعلى الرغم من كل أمواله فإنه لم يستطِع أن يشتري الإقامة الدائمة، وهذا إثباتُ ما

صدَّعتُ رأسي من أجل أن أقنعك به منذ جئت، الانتقال لحي شرق وهم كبير حتى لو دهسوك في طابور..

***

في اللحظة التي فتح فيها «عبد الرحمن» الباب لوداع ضيفه، فوجئ برجل يقف على عتبة الباب، يهمُّ بقرع الجرس للمرة الثالثة، بنفاد صبر، وبتنهيدة خرجت من صدره عندما رأى وجه «عبد الرحمن» كان معناها: أخيرًا.

-كنت أدق الجرس.

قال، فردَّ «عبد الرحمن»:

-الجرس تالف.

تبادل الثلاثة نظرات متعددة، مختلفة المعنى (من هذا؟ من أنت؟ هل تعرفه؟)، ثم صافح موظف الشؤون «عبد الرحمن» للمرة الثانية وهو يخبره أنه يعرف الطريق ويشكره على الضيافة، نزل درجتين ثم التفت، بوجه غارق في تفكير عميق، وعاد لنزول الدرج سريعًا.

دخل الضيف الجديد من دون استئذان، تأمَّل فوضى الملابس المتسخة عند الغسالة اليدوية، أعشاش العناكب في السقف والجدران، وأبواب الغرف المفتوحة جزئيًا، وشرخًا يمتد عميقًا لمسافة متر ونصف المتر في جدار الممر المؤدي إلى المطبخ والحمام، وقال من دون مقدمات:

-هذا البيت بعته مرتين عام ٢٠٠٢، ثم عدت وبعته ثلاث مرات أخرى ما بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧.

ثم التفت إلى «عبد الرحمن» وسأله:

- من صاحب البيت الآن؟

فأجابه «عبد الرحمن» بغمغمة، وما كاد يسمع الاسم حتى صاح مندهشًا:

-معقول! لا بُدَّ أن الأخير باعه مرة أخرى، أو ربما بيع عدة مرات أخرى.

ودق على الأرض بقدمه:

-سأخبرك بالسر الذي من أجله يُباع البيت كل مرة، السر هو أن البيعة الأولى لم تتم، كل مشترٍ يكتشف ذلك يسرع بالتخلص من البيت، لكنْ معي الورق الذي يثبت البيعة الأولى، ورق يساوي نصف ثمن هذا البيت.

قال «عبد الرحمن»، أخيرًا، متخلصًا من خجله دفعة واحدة:

-لا بد أنك أخطأت المكان يا أستاذ..

-كلا، لم أخطئ، أنت عبد الرحمن أبو الخير، أليس كذلك؟

ثم مد يده مصافحًا:

-وأنا المهندس طارق عبد العزيز.

***

بعد انصراف المهندس «طارق» لم يستطِع «عبد الرحمن» النوم، غفا عدة مرات وهو واعٍ بما حوله، وحلم وعيناه مفتوحتان، وفي هذه الغفوات تذكَّرَهُ العالم، رنَّ جرس الهاتف وكأنه سرينة سيارة إطفاء في مدينة مشتعلة، «إسراء» ورقم غريب لا بُدَّ أنه لزوجها، الموظف الذي انصرف لتوِّه، و«جاسر» وأخوه الكبير، حتى زوجته وزملاء العمل السابقون، ثم اكتشف أنه نام منطرحًا، قدماه بالحذاء على الأرض، والليل قد حلَّ من النافذة المفتوحة وشاشة الهاتف لا تحمل إشعارًا باتصال واحد، لم يتذكره أحد، كان يحلم وحيدًا حزينًا حائرًا، ويتملَّكه يقين أنه لو اصطحب قلبه هذا ولو إلى الجنة فسيظل تعيسًا، لهذا أخذ يدعو، يلهج بمعنى أصح: يا رب.. أريد أن أحتفظ بذاكرتي في الجنة، السيئ منها قبل الجيد، الروح التي أعطاها لي العالم للتصرُّف بشكل شرير، والكراهية التي وهبتني القدرة على تمييز أعدائي. ثم أخذ يتساءل: هل الجنة واسعة؟ هل ستكون واسعة جدًا للدرجة التي تجعلني لا أتقابل مع اعدائي، أم أنها ستكون أصنافًا؛ بمعنى أن من أكرهه سيكون مع من يكرهني، ومن أحبه سيكون مع من يحبني؟ هل هذه فائدة التعصُّب في العالم: أن يجعل من العداوات الصغيرة والمشاحنات أمرًا يمكن حله ببعض التسامح، بينما الاختلافات الجوهرية تجمع الناس في قطاعات بالجنة؟ أريد أن أحتفظ بذاكرتي، السيئ منها قبل الجيد، لا أريد أن أعود طفلًا، ولا أريد

أن أنظر للأمام فقط، أريد أن أتذكر، كيف سأفهم أن الجمال جميل من دون أن أشعر بالقبح الذي مررتُ به؟ ما الذي سيتبدَّل منا؟ هل حقيقي فعلًا أننا سنُبعث في الجنة بوجه «يوسف» ونتكلم بحكمة «محمد»، عليهما السلام؟ وكيف سأعرف زوجتي إن كانت جميع النساء بجمال «مريم»؟ كيف سأعيش بهذه التعاسة هناك، بهذه الطيبة، بهذا القلب الرطب؟!

ثم قام وأغلق النافذة وعاد للنوم بعد أن خلع حذاءه وتخفَّف من ملابسه، دار في ذهنه خاطرٌ سخيف: ماذا لو كان هذا الرجل كاذبًا أو وسيلة اختبار ما؟ ولماذا يحمل كل شخص قابله وجهين، حقيقةً وكذبًا، كذبتين وربما حقيقة غائبة؟ حتى «إسراء»، خاصةً «إسراء»، لكنَّ «إسرا» بدا صادقًا، غير مضطر إلى الكذب أصلًا، لكنَّه مشفق من الحقيقة، لو كان هاتفه الحديث معه الآن لبحث عن نظرية الأشكال لـ«أفلاطون»، وقرأ عنها؛ فقد يفهم، لكنْ بدلًا من هذا حاول اعتصار ذاكرته الجافة بما قاله السيد «إسرا»، تُرى، ما الكمال للانحراف الذي يتعرض له «عبد الرحمن» من أحداث ولما يشعر به في قلبه وعقله؟

صار أمل الذهاب إلى حي شرق الآن بعيدًا، والخديعة أقرب منه، خديعة لا تتورَّع عن دسِّ يدِها وتلويث كل شيء، حتى ما ظنَّه «عبد الرحمن» قدرًا، الطابور ووقوعه أسفل الأقدام ودهسه.

جاء الصباح وهو لا يزال يفكر، فقأت حرارة الشمس

روائح الأشياء فاختلطت، وذكّرته بأنه لم ينَم ولم يذُق الطعام منذ صباح الأمس، أعد لنفسه كوبًا من الشاي وحمَّص خبزًا فوق شعلة البوتاجاز مباشرةً وأكله، ثم أغلق هاتفه ونام.

***

الفصل الرابع
المهندس «طارق»

يستيقظ صافي الذهن بعد ليلة حاشدة بالأحلام والكوابيس، يغتسل، يصلي ويتناول إفطارًا هزيلًا، يتصفَّح مفكرته، وقبل أن يفتح هاتفه يأخذ في ترتيب أولوياته، لا بُدَّ أن يتأكد من صحة المعلومات التي عرفها عن «إسرا»، كيف؟ لا يدري، ربما يجب عليه أن يتصل بصديقه الجديد الموظف ويطلب منه أن يزوره في مكان عمله، لكنَّه قد يرفض؛ فـ«عبد الرحمن» وجه معروف، وما يقوم به صديقه الموظف من «تحذير وتوعية» مخالف للقانون، كما يقول.

وربما آن الأوان لأن يترك الأمر برمته، شيء ما في حديث موظف شؤون الأفراد يجعل الأمور متسقة مع ذاتها؛ فعلى الرغم من الدهس في الطابور والإصابة المزمنة والبرامج التليفزيونية كان بداخل «عبد الرحمن» هاتف يقول إنه لا توجد فرصة سهلة كهذه، من دون قوى خارجية، من دون وساطة، ومن يدري؟ ربما كانت فرصته هو في يد «إسراء» أكثر قربًا منها في يده.

الاتصال الأول كان من زوج «إسراء»، يطمئن على «عبد الرحمن»؛ لأن هاتفه كان مغلقًا، تكلُّف الود أسوأ من خدمة فندق لا تعرف إن كان خدمها يأخذون البقشيش نقدًا أم يضيفونه على الفاتورة، كان مرحًا على غير عادته، معتبرًا رد «عبد الرحمن» عليه في الهاتف بادرة خير، سأله إن كان قد وصل إلى قرار فلم يكذب «عبد الرحمن» وقال له: ما زلتُ أفكِّر. عندئذٍ

انطفأ مرحه كلهب شمعة وفاح شذى خوفه وهو يسأله بخفوت إن كان ممكنًا أن يلتقيه في مكانٍ ما ليتناقشا، رد «عبد الرحمن»: عندما أكون متفرغًا سأتصل بك. بمجرد أن أغلقا يتصل «جاسر»، أخبر «عبد الرحمن» أنه سيتأخر ليومين آخرين، صوته منطفئ، وكأنه كان يصرخ طول الليل، سأله «عبد الرحمن»:

-هل كل شيء بخير؟

-نعم، الرجل (يقصد والده) يريدني أن أبقى، أتزوج وأعمل معه في الأرض، يقول إن تعليمي مشروع خاسر.

ثم تنهد، وكأنه يقول: الحديث ذو شجون:

-أشعر أنني لن أخرج من هنا بعد الآن.

قال «عبد الرحمن» محاولًا بث المرح في روحه:

-كل مرة تقول هذا وفي اليوم التالي أستيقظ على إزعاجك لي بعد الفجر.

-هذه المرة تختلف.

-كل مرة تقول هذا أيضًا.

-عن جد؟

يضحك «عبد الرحمن» فيقول «جاسر» في لوم:

-لست متحدثًا جيدًا يا «عبد الرحمن»، المهم، هل كل شيء عندك على ما يرام؟

-لا.

-جيد، متعادلان، على الرغم من أنك تستحق ذلك على أي حال، لو أنك سمعت نصائحي من البداية ما

احتجت إلى الانتقال.

قاطعه «عبد الرحمن» لكي لا يسترسل:

-أشكرك.

-ماذا حدث؟ هل يرفضون إتمام أوراقك أم تراجعوا عن التعويض؟

-لا شيء من هذا، لكنَّه أمر لا يمكن أن يُقال في الهاتف.

-لماذا؟ هل إتمام الورق والانتقال أمر خطير لهذه الدرجة؟

-عندما تأتي سأحكي لك.

-حسنًا حسنًا.

كان «عبد الرحمن» ينزل الدرج حينها فانتظر في مدخل البناية حتى أنهى المكالمة معه.

«ملياردير يسخر من الحكومة، ملياردير يفرض إجازة على الموظفين، ملياردير + إجازة، يمتلك، يسخر».. تنويعات من الكلمات التي بحث بها «عبد الرحمن» وهو جالس في مقهى الإنترنت يحاول ابتلاع عجينة بسكويت جافة دون ماء، لا توجد أي معلومات، حتى بعد أن أضاف اسم المدينة، لا شيء سوى نتائج بعيدة كل البعد.

هل «إسرا»، كما قال زائره بالأمس، رجل أعمال، جشع؟ وهل يتناسب هذا مع كونه ساخرًا، غامضًا، يقرأ كثيرًا، موظفًا بحي شرق، موظفًا مهمًا لهذه الدرجة، على

الرغم من أنه ليس مواطنًا هناك؟

كان «عبد الرحمن» على وشك أن يبدأ بحثه عن نظرية الأشكال الأفلاطونية، لكنَّ هاتفه دق برقم غريب، يفتح، صوت رجل:

-أخشى من أنك نسيت الميعاد بيننا.

-من؟

-المهندس طارق عبد العزيز، زرتك بالأمس، لكنَّك كنت متعبًا فاتفقنا على اللقاء اليوم.

كذب «عبد الرحمن» قائلًا:

-لا، لم أنسَ.

-لكن الوقت تجاوز الساعة الثانية ظهرًا!

-نعم، نعم، آسف، انشغلت ببعض الأمور.

-حسنًا، أنا الآن أنتظرك على المقهى، مقهى السعادة، هل ستأتي؟

***

اضطر أن يأخذ سيارة أجرة، وخلال دقائق كان على مقهى السعادة، يجلس أمامه رجل في الخمسين من عمره، يرتدي نظارة بسلسلة فضية، عينان بنيتان في وجهٍ به تلك اللمعة الزيتية المميزة للأشخاص الذين يعملون في المكاتب ولا يتعرَّقون، وملابس قديمة، لكنها نظيفة ومكوية بعناية.

حولهما تتطاير الكلمات، والعبارات، يتحدث روَّاد المقهى، الصنايعية ورؤساء العمال بصوت عالٍ، بحماس وغضب، كأنَّ في وسعهم إنقاذ المدينة بما سيفعلونه (ومتى سنبدأ العمل؟ غدًا أو بعد غد، وحتى إنهاء الأعمال لن يجد أحدٌ ما... لديَّ فكرة لإنقاذ الموقف، لا داعي لأن تقولها، الجدول هو الجدول، قد تستمر الأعمال هناك أكثر من يومين، المهم أن يكون فريقك جاهزًا، أتفهَّم قلقك، لكنَّ لدي قلقًا مختلفًا)..

يسأله المهندس «طارق»، كفاتحة للكلام، وهو يشير إلى يده:

-لم يعد بوسعك العمل بهذه الرعشة في يدك!

عندئذ ينتبه «عبد الرحمن» إلى ارتعاد يده الممسكة بكوب الشاي فينقله إلى يده الأخرى ويرفعها إلى فمه، ثم يسأله في حيرة:

-هل تريدني في عمل؟ لقد توقفت عن العمل منذ...

عندما تردد «عبد الرحمن» لم يكُن مترددًا في تسمية الحادثة، بل كان واقعًا في حيرة تفسير ماذا حدث له، حيرة أكثر عمقًا، لماذا هو متوقف عن العمل؟! ارتعاد

يده لن يضره كثيرًا، كل اللحَّامين ترتعد أيديهم ويفقدون حدة أبصارهم وحذرهم مع الوقت، وربما يفقدون خصوبتهم أيضًا ويُصابون بأمراض الرئة الخبيثة أسوأ من مدخن شره، لكنَّهم يعالجون هذا بالانخراط في أعمال أقل دقة، وفيما مضى كان يعتبر اليوم الذي يمر من دون عمل يومًا ضائعًا من حياته، كأنه في سباق مع كارثةٍ ما ستحدث ويجب أن يستعد لها بالمال، فما الذي حدث له في الطابور؟ هل هذه هي الكارثة، أم أنه ملَّ من انتظار الكارثة فجعل الطابور كارثته؟

رأى المهندس «طارق» حيرة «عبد الرحمن»، الأمر الذي جعله يدخل في صلب الموضوع مباشرةً، وبلا تمهيد، لينهي جزءًا منها:

-هل قابلت «إسرا»؟

-من؟

-«إسرا»، هيا، لا تنكر أنك قابلته!

-ولماذا أنكر ذلك؟!

-لأنه عجوز مزعج، أليس كذلك؟

قالها المهندس «طارق» بلا غضب ولا استياء، بل في ارتياح، ومدد قدميه قليلًا بعيدًا عن سيقان مقعده، وابتسم تلك الابتسامة التي تجعل الآخرين يكرهونه، الابتسامة التي تقول: سأخبرك الآن بحكمة حياتي، بالسفن التي تحطمت، والتي نجت، وما حمله الموج من جثث الغرقى والأحياء المنهكين.

سأله «عبد الرحمن» في حيرة:

-هل أرسلك «إسرا»؟

-لا، بالعكس، آخر شيء يجب أن يعرفه «إسرا» أنك قابلتني، هذا كفيل بأن يُفسد كل شيء.

***

لم يعد أحدٌ يناديه بهذا اللقب: المهندس «طارق»، إلا أنه عندما أتى للعمل في المدينة قبل سنوات كان هذا لقبه الوحيد، وقتها كان مسار حياته واضحًا، ساعدَه على ذلك أنه لم يدَّعِ المثالية يومًا ما، أراد أن يكون رجلًا غنيًا، مقاولًا وسمسارًا على مبادئ الهندسة، لا تعوزه التفاصيل أو المهارة، ولا الدأب أيضًا.

وجد نفسه في مدينة تطل على النهر، وعلى طول النهر تتشابه المدن، إلا أن حي غرب تقع عند الجزء المنبسط والواطئ من مسار النهر، يتجمَّع الماء بعد رحلة طويلة في شبه بحيرة، يضع النهر عصا رحلته الشاقة، يرقد على ظهره لا يتقلَّب ويرتشف الضوء متعبًا كمدمنٍ يعرف كيف يضبط كمية الكحول التي تُطلق ذهنه ولا تذهب بعقله، يترك الضوء ليطعم أسماكه ويدفئها، ثم ينهض بعد تلك الراحة مستمرًا إلى مصبه البعيد، على الخريطة يبدو النهرُ كما لو كان مَرِّيئًا انتهى بمعدة ثم تفرَّع من المعدة معيان غليظان.

طول الكورنيش لا يدل على مسار النهر الحقيقي، بل أكثر بكثير، والكباري الثلاثة التي تعبر بين ضفتيه ليست بعرض النهر الحقيقي، وعلى الرغم من أنها أُنشئت في تواريخ مختلفة، فإن اثنين منها قريبان من بعضهما، وكأن أحدهما بُني مساندةً للآخر، الله وحده، وبانيهما، يعرفان لماذا يُبنى كوبريان قريبان هذا القرب الشديد، يقال إنه فيما مضى كان أحدهما يُستخدم للعبور والآخر للعودة، لكن لماذا لم يُبنَ كوبري واحد

متسع للمسارين؟ خاصةً أن زمن بناء هذه الكباري كان قبل ذلك الهوس الذي يجعل كل رئيسٍ إذا انتُخَب ملأ البلاد بالكباري والميادين وأطلق عليها اسمه، قبل ذلك بكثير، عندما كانت الأشياء تُبنى للحاجة الشديدة أو رغبة الرب، وعندما لم يكُن الرؤساء بحاجة إلى إثبات وجودهم برضا الشعب ولا بالطرق الأسفلتية والكباري، يظل وجود الكوبريَّين لغزًا، وكأن الحياة لم تتوقَّف عن طرح ألغازها المتمثلة في الذات فطرحت لغزًا آخرَ متمثلًا في خروج الذات من متاهتها الداخلية لتصنع متاهة أخرى، متاهة خارجية، فالكورنيش وطبيعة الشوارع التي تصب فيه قبل الكوبريين وبعدهما لا تسمح أبدًا بحركة سحب منتظمة، ومن دون دراسة يظهر للرائي أنه لو كانت هناك عشر طرق لتصميم ووضع الكوبريين لكانت الطريقة الأفشل هي الطريقة التي وُضعا بها.

بعد عدة كيلومترات وسنوات كثيرة بُني الكوبري الثالث، أوسع الكباري الثلاثة، الذي يبدو وكأنه بُني ليحل مشكلات الكوبريين السابقين عليه، لكنه جاء بمشكلاته الخاصة، بسبب الرشاوى والرغبات التي لا يصمد أمامها موظفو الحي الكبار، تم تفادي حي السفارات والفندق الشهير وشارع مساكن النخبة ورجال الأعمال، ليقع في النهاية عند شارع ضيق من شوارع حي غرب.

يقول المهندس «طارق» لـ«عبد الرحمن»، وهما

جالسان على منضدة في المقهى الصغير المنزوي، الواقع بكليته (الكراسي والمناضد والزبائن) والمحلات التي أُغلقت الآن بعد ان انفضَّت السوق، كلها فوق النهر، فوق الكوبري:

-لماذا أتحدث معك عن الكباري؟ ليس لأننا هنا، يجب أن نكون واضحين منذ البداية، أمر الكباري بالنسبة لموضوعنا أهم بكثير من مجرد حوار اعتيادي عن الفساد الذي أتلف أشهر مرافق حي غرب ولم يترك شوارعها وميادينها، ما جعلها مليئة بالفرص الساكنة والمتحركة.

يستأنف المهندس «طارق» الشرح:

- هناك عدة أساليب لتنمية المدينة عمرانيًا لو تعلم، وإيجاد مساحات جديدة للبيع والشراء، أول هذه الأساليب: استغلال ما هو متوافر بالفعل ضمن الحيز العمراني، وهذه الطريقة هي أكثر الطرق تربُّحًا، وأكثرها اعتمادًا على الغش والوهم والاحتيال، وكلها افتراضات (لو افترضنا أن الشارع الفلاني فُتح على الشارع الآخر ستصبح قطعة الأرض هناك أفضل من واقعها بكثير.. ولو أن الميدان تم نقله إلى هنا، ولا بُد من أن هذا سيحدث؛ لأن الميدان الأساسي لا فائدة منه تقريبًا، ستمر السيارات والباصات وتدب الحياة).. وهكذا، ببعض الذكاء مع بعض الوهم وتشوُّق الزبون إلى المكان الأفضل تصبح تجارة العقارات أشبه بالتنقيب عن الذهب، لكن لا بُدَّ أن تعرف فيما تتحدث حتى تُحسن

عرض بضاعتك.

في الصباح، كنت أزاول عملي الأساسي - الإشراف على مواقع البناء - ثم أعود إلى مكتبي لأتناول غداءً سريعًا وأنعم بقيلولة كاملة ثم أستيقظ وأنزل للشارع، لا تفوتني ساعة الذروة مع ذلك، لكنِّي لا ألتحم بها، أحب أن أسير على قدمي، وطبيعة مهمتي التي نزلت لها تحتاج إلى ذلك، في يدي مسجل كي لا أثير الشبهات، أجمع البيانات شفاهة من شارع لآخر، وعندما أعود إلى مكتبي أرسم الخرائط، أيامها لم يكُن متاحًا لنا كما هو متاح الآن تلك الخرائط الجاهزة بالقمر الصناعي، ومصلحة الأملاك لا تسمح بالحصول على بيانات عقارية إلا بتعقيدات روتينية؛ لهذا جعلتُ تسليتي الوحيدة أن أسير وأرسم وألاحظ وأسجل، الشارع الذي لم أمشِ فيه لا وجود له في المدينة.

غطاء بلاعة قديم يمكن أن يدل على أصالة مدينة، وحيٌ غرب من المدن التي يمكن أن نسميها المدينة الأم، بقدر ما هي ممتلئة بالتاريخ فهي ممتلئة بالفوضى، ليس لها تخطيط عمراني، جاء البشر منذ فجر التاريخ وأقاموا فيها وبدأت تتسع بأسلوب الزحف العمراني، في وسط المدينة تجد الشوارع الشهيرة والأغنياء والمرافق والإدارات الحكومية، وعلى الأطراف ستجد العشوائيات والفقراء والموظفين الجدد والنازحين من الريف، كل صباح يزحف بشر الأطراف إلى القلب فيصيبونه بجلطات كثيرة، ثم يعودون في المساء، ليعاودوا

الهجوم في الصباح التالي، حاول حي غرب إصلاح الأمور عدة مرات، إقامة متاريس وغلق شوارع وافتتاح أخرى، ولكن ما من فائدة مرجوة، المشكلة تتعقَّد، لو احتسبنا عدد الذين ماتوا بسبب الحوادث وفي سيارات الإسعاف نتيجة الاختناق المروري، وعدد النساء اللاتي وضعن أجنَّتهن، والفرص التي ضاعت والحيوات التي تعقَّدت والساعات التي تُهدر يوميًا، لتبيَّن أن حي غرب يخوض حربًا لا تنقصها إلا دانات المدافع وقصف الطائرات.

ذات مرة، كنتُ عائدًا إلى مكتبي، ركبت مع سائق سيارة أجرة مخضرم، قال لي بثقة متناهية:

-مشكلة هذه المدينة في كباريها.

ولأنني مهندس، أثارت هذه العبارة ضيقي الشديد، كفتوى من جاهل لا يعرف الحالة ولا مقتضياتها، أي كبارٍ هذه التي يمكن أن تسبب مشكلة بحركة المرور الضعيفة جدًا عليها، بعد أن انفتح ظَهر المدينة من الناحية الأخرى على عشرات الطرق والمدن الجديدة، ولم تعد أهمية الكباري تتعدى الوصول إلى ضفة النهر الأخرى؟!

ربما قصد السائق شيئًا آخر، ربما زاغت به اللغة، إلا أن جملته سبَّبت لي إضاءةً ما، ليس في الحاضر، بل في الماضي أيضًا، والمستقبل، صار كل شيء في المدينة مترابطًا ومفهومًا، النظرية التي تفسِّر كل هذا، وببعض من التفكير والتجرُّد فهمت أن مشكلة المدينة لا تتوقَّف عند كباريها، ولا شوارعها، ولا ميادينها وحدائقها العامة،

ومواقف الأتوبيسات، وصناديق القمامة، والأماكن التي يقف فيها شرطيو المرور، والمظلات العمومية، وكل منشأة عامة، خدمية أو تذكارية، المشكلة كانت في الرغبة الخفية المعلنة بوقاحة في تعذيب المواطن، دفعه للحركة، إنهاكه، كفأر، تصفيته حتى آخر قطرة، إبقاء سقف احتماله في المستوى الأقصى للعبودية، تمرينه على استيعاب القسوة واللامبالاة والامتهان، والكباري كانت تتويجًا لهذا الفكرة، إيجاد أسماء بلا معنى، ليعتاد الناس على الأسماء فقط، وينطقوها، ليملؤوا أفواههم بها ويتبادلوها، وتكتسب قيمتها بلا معنى، ليتوقفَ الناس عن التماس القيمة والمعنى في الأسماء، وعندما يأتي غريب لا يمكنه أن يستوعب هذا إلا بعد إقامة طويلة، لكن قبل أن يستوعب لا بُدَّ أن يتورط أحد ساكني المدينة ذات مرة للشرح ووصف طريقة الوصول لشارع أو مكان، فسيقول كما قد يقول أحد سكان المدن الحقيقية: ادخل في شارع كذا ستجد ميدانًا أو حديقة، ثم يتنهَّد ويسدل ذراعيه ويخفض من كتفيه المتحفزتين ويُنهي الوصف غالبًا بـ«اركب سيارة أجرة»، وسائقو سيارات الأجرة في مدينة كهذه لا يكتسبون قيمتهم ولا يأخذون أجرتهم من سرعتهم أو ثمن التوصيل، بل من فلسفتهم، ومآسيهم الخاصة ومعاناتهم، سائقو سيارات الأجرة لا يشبهون الثور الذي يحمل العالم على قرنه ولا الملائكة التي تحمل العرش على أكتافها، بل يشبهون لصوص حكايات ألف ليلة

وليلة، ومدعي النبوة، والأطباء النفسيين، إنهم البشريون الذين يتخلون عن جزء من بشريتهم ليتحملوا عبء المهانة والصلب عن البشر بعزم لا يلين وعقل ملتاث ولسان لا ينفك عن الشكوى، إنهم النوع المستبصر في المدن والذين كانوا فيما مضى يفقؤون أعينهم ويسكنون فوق الجبال ويطلقون النبوءات الكارثية.

أخذت أفكر بشكل عام، ليس هناك لغز في كون الكباري قد بُنيت بهذه الطريقة، فالكباري الثلاثة لم تُبنَ للعبور، لربط ضفتي النهر، شرقه بغربه والعكس، بل جُعلت لتزيد من صعوبة العبور وتؤيد هوة النهر كونه حاجزًا حقيقيًا، وتكرّس لخدمة الفكرة العامة، لا شيء يدل على معناه الحقيقي.

***

مرة أخرى، لماذا أتكلم عن الكباري بينما أتجاهل الحديث عن التلف الذي ألحقته بحي غرب، بيدي وبيد الآخرين، خلال السنوات الكثيرة التي أقمت فيها المشانق الإنشائية للمواطنين، التلف الذي سيجعلك تسمع عني كلامًا كثيرًا، أوله وليس آخره: صاحب الصفقات المشبوهة، المهندس الفاسد؟! لكنِّي لستُ نادمًا على شيء؛ فبعض الذنب أهون من بعض، وأخبرني إن كنت تريد الحكم عليَّ: هل تندم إذا ارتكبت حادثة بسيارة شبه تالفة، إذا زنيت ببائعة هوى؟! حي غرب أسوأ من سيارة تالفة، والمال الذي ستكسبه فيه مهما كان فهو أقل غواية من بائعة هوى.

لكني لا أعترف بما يسمى النقطة الفاصلة في الحياة، والتغير عبر اللحظات الفارقة، كمشهد أو كلمة أو حادثة أو حتى دخول السجن، وأعتقد أن أي مهندس يحترم مهنته ولقبه يجب أن يؤمن بذلك، لكي يتغير الإنسان فلا بُدَّ أن تعمل عليه آلاف المشاهد والكلمات، شيء أشبه بضربات الجواكيش المستمرة، وإلا كان مغيبًا جاهلًا تمامًا في حياته السابقة، وخلال تجولي في المدينة لم أكن أجمع الفرص فقط، بل أجمع الكوارث المحتملة، رأيت بعين خيالي بشرًا يموتون تحت الأنقاض ويُصعقون ويُحرقون، يقع بهم درج ضعيف لم يتحمَّل الثقل، أو يُدهسون من التدافع في ممر ضيق، رأيت بيوتًا تغرق وبشرًا تنقطع عنهم الكهرباء والماء والاتصالات والإسعافات الأولية، لكنَّ أعمال المقاولات

مختلفة عن الهندسة لو تعلم، يتحول المهندس من البراءة الهندسية إلى الإيمان بالسر الباتع لشيخ الخرسانة، كلما جنى مالًا أكثر زاد إيمانه به، وكلما شح كفر ولجأ إلى الكتب والأرقام، مع الوقت تتحول أعمال المهندس (الرائج) إلى كرامات تملأ المدينة بالإنشاءات، لا يحتاج الأمر إلى ذكاء أو ممارسة لتفهم أن عشرات التنازلات التي قدمها المهندسون خلال حياة المدينة كافية لصنع كوارث هائلة من لا شيء، زلزال أو حريق أو مطر لعدة أيام متتالية، لن أقول البشر، بل حتى الفئران لن تستطيع الهرب من هذه السفينة، نحن في الحقيقة واهنون أمام غضب الرب، ليس بسبب الإيمان، بقدر ما هو بسبب الاستخفاف والضعف.

****

توقف المهندس «طارق» عن الكلام، خلع نظارته، نفخ في زجاجها حتى ضبَّبها بالندى ومسحها بطرف قميصه. يعلم «عبد الرحمن» أن الرؤية المضببة وَهْمٌ؛ ففي هذا الوقت يتنفَّس النهر، بعد شهيق الصباح يزفر حرارة النهار، الأسوار التي أقامها الحي في نهاية الكوبريين من الطوب تمنع الحركة الطبيعية للهواء، يتعرَّق رُوَّاد الكوبريين فعليًا، وتزيغ الرؤية.. واصل حديثه:

-ذات يومٍ توقَّف كل هذا، القاعة التي كانت تموج بالعجيج والصراخ واللعاب المتطاير والجشع أصبحت خالية لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، توقفت أعمال الشراء والبيع؛ والسبب هو حي شرق، لا أقول انسحب البساط من تحت أقدامنا، بل أقول امتد إلى الضفة الأخرى، وصار لزامًا علينا أن ننقل نشاطنا إلى المدينة الجديدة، لكنِّي لم أفعل؛ فالجرم الذي سأرتكبه عندئذٍ يتجاوز قدرتي على فلسفته وتبريره، وما تبقَّى من احترامي لنفسي كان رهينًا بتلك الخطوة الأخيرة إلى الحضيض، ولم أكن وحدي، كان معي البعض ممن أعرف أنهم يحترمون أنفسهم، وسمعت منهم كلامًا مثل: «لقد أفقنا، فهمنا أخيرًا، كنا عميان، كل ما سبق كان خطأ، لكنَّهم سواء أكانوا مدركين أم لا، كل هذا الاعتراف بالذنب، التطهر، هو نقل نشاط لا أكثر، هو رغبة في ارتكاب حادثة بسيارة جديدة، والزنا ليس بامرأة متزوجة، بل بمحارمهم، فما سيرتكبونه سيُدخل أولادهم وأولادنا في الدائرة الجديدة من المعاناة..

من حقيبته الجلدية الصغيرة أخرج المهندس «طارق» اسكتش رسم، فتحه على صفحة بيضاء، وبأقلام عدَّة وألوان مختلفة بدأ يرسم بعين صقر مشهدًا علويًا للنهر والكباري الثلاثة، النهر أزرق والكباري رصاصية، الطرق الأسفلتية العريضة سوداء، والشوارع في لُحمة حي غرب باللون الأحمر، رسم أسهمًا عريضة لاتجاهات السير، الشوارع المفتوحة والمغلقة، بسرعة هائلة ظهرت المدينة على ورقة رسم أمام عيني «عبد الرحمن»، مختصرة، بلا معاناة:

-قبل البدء في تعمير الضفة الخالية وتسميتها «حي شرق»، كانت الفكرة أنه ما دام هذا الجانب (حي غرب) مكدسًا بفنادق الإقامة السريعة والمصانع ومكاتب العمل والمباني الخدمية فلا بد أن نجعل الجانب الآخر مختلفًا، نجعله واحة، نُكثر فيها من بناء البيوت والمنشآت السكنية والحدائق والمدارس، وجامعة إن أمكن، وهذا ما يسمونه أسلوب النمو المركب، أي استخدام أسلوبين في التنمية العمرانية للمدن، خليط من أسلوب الزحف وأسلوب المدن التوابع، كانت هذه هي الفكرة التي اتفق عليها مهندسو حي غرب العباقرة، هل تعرف ما الخطأ في هذه الفكرة؟

هز «عبد الرحمن» رأسه:

-لا، لا أعرف.

- المهندسون يحققون نبوءة سائق سيارة الأجرة، سيجعلون ضفتي النهر (شقي المدينة) كالليل والنهار،

وفي كل صباح ستمر مئات السيارات من جانب لآخر، من المساكن إلى أماكن العمل، ومن أماكن العمل إلى المساكن، في وقت واحد تقريبًا ستمتلئ الطرق وتزعق الأبواق وتسقط المدينة في موت إكلينيكي لا تتعافى منه إلا بحلول الثامنة، وبحلول المساء تتكرر المأساة بشكل أقل وطأة، بل في كل لحظة من نهار أو ليل لن ينقطع المرور، للعمل والترفيه، فالذين سيسكنون في حي غرب سيسعون إلى الحدائق والمتنزهات في حي شرق، ونتيجة لوجود الفنادق والمصانع في الجزء القديم من المدينة ستكون البضائع وأصناف البقالة في حي غرب أرخص وأجود، قليل جدًا مَن سيكتفي بالإقامة في جانبه بالمدينة، واللوم في ذلك لا يقع على من جعل لنا نفوسًا مختلفة في مدن ثابتة لا تتغيَّر معالمها إلا بالزلازل، والنتيجة النهائية: التلوث والضوضاء واستهلاك الطرق والبشر.

ما الحل إذًا؟

الحل أن نتوسَّع بأسلوب المدن التوابع فقط، أن نقيم حي شرق كمدينة متكاملة، بفنادقها ومصانعها ومبانيها الخدمية، لا بُدَّ أن ينفصل جزآ المدينة لتولد من جديد، وهذا التكريس للانقسام يجب ألَّا نستهجنه أو نلتمس له الأعذار؛ فالسماء والأرض «كانتا رتقًا ففتقناهما» ونشأ المطر، والخلود الأبدي صار بالمعصية إلى الحياة والموت ونشأت الجنة والنار، والأرض انقسمت إلى قارات، والقارات إلى دول، والدول إلى محافظات،

والمحافظات إلى مدن، والمدن إلى قرى أو جزأين على ضفتي نهر، ومن انقسام المدينة ستنشأ مدينتان، وشعبان، وبهذه الطريقة سيكون لنا مقاعد أكثر في البرلمان وخدمات أكثر، محطة تنقية مياه جديدة، ومحطة معالجة مياه الصرف، وشبكات أكثر لتوزيع الكهرباء، سنستفيد من وجود النهر، ونهزم فكرة الانقسام، ونرحم سكان حي غرب من المعاناة والتشتت.

مع نصب اللوحة الرخامية لافتتاح الأعمال ووضع الأساسات.. لا، قبل ذلك بكثير، حذَّرتُهم، هاجمتُ طريقة التنفيذ، أصبحت فكرتي على كل لسان، انفتحت لي وسائل الإعلام والصحافة، أظهرتُ الأخطاء الشنيعة في تصميم الشوارع بحي غرب وتوزيع الكتل السكنية والأماكن الخطأ التي وُضعت فيها المصالح الحكومية وإشارات المرور والكباري، أظهرت ووضحت بكل الوسائل أن تصميم حي شرق لو تم كما يُراد به، فسيسبب كارثة هنا في حي غرب، كل خطأ هنا سيتم تلافيه هناك سيضاعِف المعاناة، هنا وهناك، ومثال على ذلك الكوبري الثالث، في تخطيط المدينة الجديدة سيصب الكوبري في أوسع شوارعها، أي أنه مقابل الشارع الضيق هنا سيصب المرور هناك في شارع واسع، وعندما تكون هناك حاجة للمرور الكثيف – أي عند بناء حي شرق كجزء لا ينفصل عن المدينة ككل - سيتحوَّل المرور إلى جلطة دائمة لحي غرب، ولن يكون من علاج لذلك إلا بناء كوبري رابع، أو هدم منازل شارع بأكمله

وتعديله.

ما قلته وما تسببت في كشفه جعلني عدوًا للجميع، الجميع على حد سواء، السكان ورجال الحكومة وأصحاب الشركات الكبرى، صرت وجهًا يبغضه الجميع ويذكِّرهم بالسخرية والمؤامرة وقلة الحيلة تجاه الكابوس الذي يعيشون فيه، وتدريجيًا تم تدشيني في الإعلام لأصبح رجل المهاترات المعمارية، كنت ساذجًا، ومهمة الحياة أن تفتح عيوننا غصبًا، لنرى كيف يتحوَّل المالُ إلى دم، وكيف يتحول الدمُ إلى ماء، وكيف لا يكفي الماء ليغسلنا من أخطائنا التي حسبناها حسناتٍ، عندما كثر كلامي لم يجدوا وسيلة لإسكاتي إلا النبش في تاريخي القديم، إظهار المخالفات الكثيرة التي ارتكبتُها كما ارتكبها غيري، والصحافة كما تعلم مع الطبل الأكثر دويًا، اتهموني بالخيانة والانفصالية وتشتيت موارد المدينة والعمالة لرجال الأعمال الذين لم ينَلهم نصيبهم من مناقصات الحكومة، رفعوا القضايا ضد جرائمي القديمة ليصرفوا النظر عن جرائمهم الجديدة، وكلما زاد دوي الطبل زادت وتيرته، ثم انتهى الدوي بدقة مطرقة القاضي وهو يحكم عليَّ بالحبس ثلاث سنوات.

***

- هيا، لا تخجل من إظهار فزعك وإجفالك، نعم، أنت تجلس الآن مع رجل رد سجون، سوابق، لم يسمع نصائح زملائه، وفي حالة إيمان إنسانية أقرب للطيش أضاع مستقبله.

بعد خروجي من السجن توقفت أعمالي، اضطررت لمشاركة إيجار مكتبي مع زميل، ثم لم أستطِع الوفاء بنصيبي فتركته له بالكامل، وصار تكليفي بالعمل من الباطن، عملٍ لا يتعدى استشارة في مبنى آيل للسقوط، أو إشراف عابر على مقاول بناء.

من وقتٍ لآخر كنت أزور زميلي هذا في مكتبنا القديم، نتناول الغداء ونشرب الشاي ونتكلم ثم نفترق بعد أن يعطيني أجري المستحق عن العمل الذي أقوم به، النميمة والحسابات البنكية التي لا تخفى على أحد تقول إن زميلي يُحسن استثمار ثروته القديمة عبر عشرات الصفقات الناجحة مستعدًا للوثب على المدينة الجديدة لتكريس فكرة القبح وصلب المواطن، وعلى الرغم من انشغاله الشديد بصفقاته فإنه لم يكف عن الإلحاح عليَّ للعودة للعمل الجاد، بسبب هذا الإلحاح تصل النقاشات بيننا إلى الحدة ونفترق غاضبَين.

كان هذا بداية خلافي المستمر مع زميل المكتب، لديه أحلام بزيادة ثروته وأنا أخسر حياتي بسبب الفقر، بلا فزع، مبصرًا الحد الفاصل بين الرفاهية واستنزاف الزبون، بين الفقر واستغلال قلقه على مستقبل هشّ، لا.. لن أدسَّ كوارث جديدة في المدينة، ولن أقترب من

المدينة الجديدة إلا بشهادة براءة على رؤوس الأشهاد، ذات مرة وصل الخلاف بيننا إلى أنْ شتمتُه، اتهمتُه بخيانة المهنة، فابتسم مستهزئًا مثل أي «جنتلمان» قذر:

-هيا يا «طارق»، هل تعتقد حقيقةً أنَّ بوسعك إصلاح العالم؟

بغضِّ النظر عن سخريته، وعن تجريدي من لقب المهندس في حديث متوتِّر، وجدتني أسأل نفسي: هل إذا عاش الناس في أماكن أفضل سيتحسنون، ستنتشر الأخلاق الحميدة، لن تكون هناك خيانة ولا كذب، ولا حروب؟ هل سيتورَّع الموظفون عن طلب الرشوة ويقتنع الزوج ألَّا يضرب زوجته؟! كل هذا بتصميم مبنى جيِّد، بترتيب الوصول إلى تهذيب أخلاق الإنسان، إنشاء حضارة، تدريجيًا، بداية من إقامة مبنى السكن والعمل!

وحتى لو وصلت لإجابة، فكيف يمكن إقناع رجل يُعمل ذهنَه بطرفَي المعادلة فقط، لا يؤمن بالحالات الوسيطة؟! غير أني رددتُ في ثقة:

-نعم.

نعم، لم أعتقد في نفسي أنني إله كما اتهمني حينها، لكنَّ الله أنزلنا الأرضَ من الجنة لهذا الغرض، لنهذب أنفسنا، لكنَّ اعتقاد صديقي كان أن الإنسان هو هو، لن يتغير، إن لم يطارد فضائله طاردته ذنوبه، وحتى في الجنة كان سيظل يرتكب الكبائر؛ لهذا فقد طرده الله ليكتشف العمق الذي يمكن لسواد قلبه أن يصل إليه.

هذا النقاش انتهى بأسوأ ما يمكن أن ينتهي به نقاش؛ أنهينا صداقتنا الطويلة، بشكل تامّ، قلبنا المائدة، قلت له إنني أعتبر أن ما يقوم به جهلٌ وطمع، وسألني: هل تظن أن ما تقوله عني لزبائني وموظفيَّ لا يصل إليَّ؟ أخبَرَني أن قلبي أسود وأخبرتُه أنه لا قلب له أساسًا، وافترقنا.

***

في الأثر السيئ لانفصال صديقين لدودين ظلَّ يرسل لي من مكتبه زبائن غرباء الأطوار، لإثبات وجهة نظره بشكل عملي، لصوصًا وتجار ممنوعات ومحدثي نعمة، وكنت أرفض العمل معهم، مفتقدًا أيام المباني الآيلة للسقوط والتخطيطات السيئة، كلما اشتد عليَّ الفراغ واليأس واللاجدوى عكفتُ أكثر على الدراسة، منتقلًا إلى خطوة أخرى: رسم تصميمات لمدينة موازية، أشبه بحي غرب، الطرق والشوارع والمتنزهات، محلات البقالة والمقاهي والبيوت، أين سيسير الناس، وأين سينتظرون الحافلات، اتجاه النوافذ وشكلها، الظل والشمس وتأثيرها على الحركة الجامعة، الضوء والظلام، اتجاه الهواء، وتأثيره على المزاج العام، كل طاقتي المحبوسة انطلقت على ورق الرسم، وجدت روحي في العمل بلا أجر، وبلا حدود للخيال.

بلا شك كان الجنون مصيري المحتَّم مع الوقت، لولا أن أنقذني «إسرا»، يمكنني أن أخبرك أنني التقيته عندما تقدمتُ لمناقصة تصميم مبنى قرأت عنها في إعلان، كان يمكنني أن أختلق لك قصة لأنفي الغرابة عن نفسي، لكنَّ «إسرا» رجلٌ غامض لا يكشف عن مصادره، لقد وجدته يدق بابي ذات يوم، طلب مني تصميم مبنى، والإشراف على تنفيذه، المبنى الذي دخلته أنت لملء الاستبيان: مكتب التوظيف بحي غرب، صممتُه بشكل منضبط، لكنَّه لم ينبهر به، قال لي:

-أريد تصميمًا أفضل.

قلت له بثقة:

-المبنى من الداخل لا غبار على تصميمه، لكنَّ الأمر الذي يجعلك متوجسًا هو شكله من الخارج؛ لأنني مضطر، لمجاراة الشكل العام، إلى تحسينه بدرجة خفيفة؛ فتصميم مبنى جميل بين مبانٍ قديمة سيئة لا يجعله جميلًا، سيظهر بشكل سيئ مستفز.

-ولو تم هدم هذه المباني القديمة وبناؤها من جديد؟

-بتعديلات بسيطة سنجعل مبنانا أفضل.

-أريد أن أرى.

أتيت بالاسكتش، رسمتُ له شكل المبنى الحالي حتى تعرف عليه، ثم قمتُ بإزالة بعض الجدران، ورفعتُ بعض أعمدة الخرسانة الكامنة، ووصلتها بالمبنى عن طريق جدران مائلة بشكل يجعل المبنى أشبه بتويج زهرة، ولم أنتهِ إلا بعد أن رأيت الدهشة والإعجاب يلجمان عينيه.

-مدهش، هل يمكنك أن تعمِّم هذا التصميم على مجموعة كبيرة من المباني؟

-هذا يتوقف على المخطط الأصلي ومدى مراعاته للظل واتجاه الهواء والشمس.

-طبعًا، المصممون الأصليون كانوا خبراء.

-هل يمكنني تغيير شكل الشارع، الرصيف...؟

قاطعني مبتسمًا:

-لديك كل الصلاحيات والتمويل اللازم.

-حسنًا، أريد أن أرى المكان.

تنهَّد وشرد ببصره قليلًا ثم قال:

-أظن أنه حان الوقت لتزور حي شرق.

***

طبعًا لا يمكنك أن تعتقد أنني طرتُ طيرانًا بعرض «إسرا»، وتناسيت المهانة والسجن، لكنَّ هناك جزءًا ما في الإنسان يفسد بسرعة، وإذا فسد لا يمكن للإنسان بعدها أن يطرح الأسئلة الأكثر منطقية، ويمضي ليلتمس الدليل والبرهان في السؤال قبل الإجابة، هل تعلم يا «عبد الرحمن» أن الأسئلة البريئة ضرورية أكثر من الإجابات العظيمة، الإجابات العظيمة تُفحم الناس، ولكي تسأل سؤالًا صحيحًا عليك أن تكون بريئًا، سأضرب لك مثالًا: لماذا كانت السماء في الأعلى وليست في الشرق أو الغرب؟ جزء من هذا السؤال جعل الروح أثيرية، مثال آخر: لماذا تسقط الأمطار ولا تجري كالأنهار؟ جزء من هذا السؤال جعل للشلالات معنى، أرأيت الآن؟ لقد خلق اللهُ العالمَ وجعل أجمل مشاهده في الإجابة عن الأسئلة اللاممكنة، وما بين الممكن واللاممكن تفسد قدرة الإنسان على التغيير والثورة كما سبق أن فسدت قدرته على طرح السؤال المناسب؛ لأن الأمر لا يعدو كونه مجرد سخافة، والأسئلة صارت في لعبة المعرفة كلغز الدجاجة والبيضة، أيهما جاء أولًا: السؤال أم الإجابة؟ لماذا سجنوني إذا كانت في نيتهم أن يستعينوا بي؟ لماذا أعلنوا عن مخططات وهمية للمدينة ليقع في فخها المئات، بينما يبنون سفينة «نوح»؟ ولم يكُن في استطاعتي أن أسأل، لكنْ كتدريبٍ لإثبات البراءة والسخط، سألت «إسرا» سؤالًا بسيطًا:

-لماذا لا يتم تعديل حي غرب أولًا؟

أوضح لي أن الأجيال الثلاثة لطرق إنشاء المدن الجديدة أثبتت فشلها، واحدة تلو الأخرى، لم يعد متبقيًا إلا إنقاذ ما تبقَّى، التخلي عن فكرة أن الأرض للجميع، وأن المواطنين درجة واحدة يعيشون جنبًا إلى جنب، وأن استراتيجية إلقاء الفقراء في أرض غير ذي زرع وانتظار عودتهم ليأكلوا الأخضر واليابس استراتيجية فاشلة، عندما قال هذا ثُرثُ واعترضتُ، أعترف، كنتُ مفتونًا حينها، ولقد أوضح لي «إسرا» ذلك، ربط لي الخيوط وجعلني أرى أوضح ما يكون؛ فالحوادث القدرية والمدبَّرة وتصادم الطائرات في المدرجات وفي الهواء، ارتفاع أسهم البورصة وانخفاضها وحوادث القتل في زوايا الصحف وجداول الترقيات والتنقُّلات المفاجئة وقبول التظلمات وإجازتها للتحقيق، حتى صفحة الوفيات والأخبار التافهة والشائعات الكاذبة.. كلها نسيج لا يتجزَّأ ممَّا يُخطَّط ليكونه حي شرق، حي شرق لن يكون جزءًا مكملًا لحي غرب أبدًا، ولا حتى في طبيعة السكان، حي شرق سيكون مدينة جديدة، مدينة مختلفة، ولن تتكرر فيها أخطاء حي غرب، وتدريجيًا أتت البراهين على ذلك ساطعةً لا لبس فيها، غلق الكوبريين الأول والثاني لاكتشاف شروخ في الأساسات الخرسانية، وسماح الحكومة للباعة باحتلالهما، منع المرور على الكوبري الثالث إلا بتصريح من حي شرق، إغلاق النفق، وبناء هيكل إداري كامل لموظفي حي شرق موازٍ لحي غرب، هذا الهيكل يترأسه «إسرا»

ويديره بكفاءة، «إسرا» الشخص الأهم والأكثر غموضًا في الحكومة؛ فعلى الرغم من تجاوزه سن الستين فإنه لا يزال فاعلًا ومؤثرًا بقوة، يقيم باستمرار في الدور السابع من فندق المدينة الأشهر، تذهب إليه الأوراق ليوقِّعها والتقارير ليقرأها، ولا تمر بعوضة إلى حي شرق ولا تخرج إلا بإذنه، وخلال سنوات من عملي معه لم أستطِع التمييز هل ينفذ «إسرا» رغباته أم رغبات الحكومة! لكنَّ الثابت أن كل الرغبات تؤسس لفكرة الانقسام.

***

زيارتي الأولى لحي شرق كانت قبل الآن بخمسة عشر عامًا أو أقل، لم يصحبني «إسرا»، أعطاني سيارةً بسائقها وخريطة صغيرة ملونة، عبرنا الكوبري الثالث قبل الفجر بقليل، سمح لنا موظفو الأمن على المتراس بعد أن رأوا التصريح الممهور بتوقيعه، وطيلة شهر كامل ظللتُ أتجوَّل هناك، أعاين الإنشاءات مكررًا ما سبق أن قمت به في حي غرب في سنوات شبابي الأولى، لكنَّ الأمر هنا كان مختلفًا كليةً، معي سيارة بسائق دمث، وكل البيانات كانت متاحة: الخرائط، اسكتشات لكل شيء حتى المجسمات والنوافير، والنقطة الأهم: تصميم المدينة كان قريبًا جدًّا من تعديلاتي على حي غرب، تلافى مصمموها كل الأخطاء التي تم ارتكابها هناك، وأضافوا لمستهم..

ولكن..

-هناك أشياء كثيرة ناقصة.

هكذا قلت لـ«إسرا»، حزينًا، فتنهَّد كأنه تضايق:

-تقصد بها عيوب!

-لا، التصميم قريبٌ من الفكرة الأساسية، لكنه لم يكتمل.

-ما مدى استعدادك لأن تتولى إتمام الأمور؟

-لأقصى درجة.

خمسة عشر عامًا وأنا أتمَّم بناء حي شرق المدينة، التمويل كان هائلًا، المهندسون، والمقاولون، والموظفون

الذين تم تكريسهم للعمل معي كانوا أكثر مما توقعت، أزلنا أساسات جديدة كاملةً وأقمنا أخرى، فتحنا طرقًا وأوصلناها بطرق وأنفاق وكبارٍ، والمسؤول الوحيد عن كل هذا أنا، أنا فقط، وفي أثناء ذلك لاحظت أمرًا غريبًا من أوراق العمل: أن المشروع برمته ليس مملوكًا للحكومة ولا لأشخاص بل لشركات، ولم يكن لديَّ وقت ولا بال للبحث عن مالك هذه الشركات، ربما «إسرا»، ربما غيره، ربما مجموعة كبيرة من رجال المال والحكومة، فمن وقت لآخر يحلو لهم بناء مدينة جديدة، المهم عندي أن أركب على رغبتهم تلك وأذلِّلها لبناء المدينة التي حلمتُ بها طول عمري.

-ومن «إسرا»؟ هل هو رجل أعمال، أم موظف كبير في الحكومة؟

-الشائعات كثيرة، البعض يقولون إنه يمتلك نصف المدينة الجديدة والباقي يملكه ممولون تابعون له، والبعض يقول إنه موظف كبير، منصبه واتصالاته تجعل الممولين يستجيبون له، لا تعارُض، ربما كان «إسرا» الاثنين معًا.

-وطول علاقتك به، ألم تعرف منه الحقيقة؟

-«إسرا» كتوم، ولا يقول إلا ما يريد للآخرين أن يعرفوه عنه، وللإجابة عن سؤالك، نعم، أخبرني بأشياء، أنه فيما مضى كان يترجَّل من سيارته ليلتقط القمامة من الرصيف، أو يستأجر عاملًا ليغيِّر لمبة تالفة من كشافات الشوارع، أو يشرف على ترميم جزء تالف من

رصيف، تصوره الكاميرات، وتتصدر الصور عناوين الأخبار: عاشق المدينة، رجل البلد المثالي، كان هو المحرك الأساسي لبناء حي شرق، الملهم والساعي والمنفذ، والحروب التي خاضها «إسرا» وخرج من بعضها مهزومًا حوَّلته إلى هذا الشخص البغيض المجنون والمهووس بالإساءة إلى حي غرب.

-الإساءة؟! إذًا موضوع إجازة الموظفين صحيح!

ابتسم المهندس «طارق» وأشاح بيده وكأنه يقول «لا أريد الكلام في هذا الموضوع»:

- «إسرا» حساس للغاية، وكلما زادت قوته زادت حساسيته، تصرفاته مدروسة، وهذا لا يمنع إطلاقًا أن بعضًا منها مجنونة.. وفي أثناء البناء وإعادة تشكيل المدينة كان «إسرا» يتحول تحوُّلًا لا يكاد يشعر به، المال الذي يتدفق ويُنفَق وآلاف القرارات التي كان يجب عليه أن يتخذها على مسؤوليته التامة وتحت ضغط الابتزاز والكراهية والسخرية الشديدة والتهكم المريع، كل الأشخاص الذين يمتلكون ما يملكه ويخوضون تجربة شبيهة يصيرون مجانين، ويكون الناس على استعداد لتقبُّل جنونهم، و«إسرا» كان متاحًا للجنون بشدة؛ فالصادقون وأصحاب الضمائر لا يمكنهم فهم النوازع البشرية، قد يقتلون الشخص الأضعف في القافلة لتستمر المسيرة.

ذات مرة استدعاني إسرا، وكان قد عاد من سلسلة زيارات كثيرة إلى المدن الشهيرة، قال لي:

-هل تعلم؟ لقد اكتشفت أن مدينتنا مختلفة.

-هذا جيد.

-لم أشعر براحة لذلك.

-ربما لم أفهمك، ماذا تقصد بالاختلاف؟

-لا أريد أن أتهمك؛ فأنت لست المصمم.

-أخبرني من دون لف أو دوران، ماذا لاحظت؟

-مدينتنا قص ولزق من كل مدينة زرتها، هناك ملمح ما، تصميم، شكل النوافذ، ارتفاع الرصيف، كلها شبيهة بشيء وضعناه هنا.

-ولماذا لا تقول إن المدينة تجمع الملامح الجيدة؟

-نعم، كدتُ أقول ذلك.

لبثتُ متفكرًا، أنظر إلى وجهه في تمعُّن، الذبول الذي يعلوه، كوجه شهيد، ثم قلت كأنني أتلو نبوءة:

-هل تعرف؟ لن ترضى أبدًا، على الرغم من البلايين التي أنفقت.

تنهد مستسلمًا:

-نعم، كأن مدينة بلا أخطاء تشبه مدينة مليئة بالأخطاء، لقد حشدنا كل الملامح الجيدة فيها مثل... مثل جاليري مليء بالتحف، لكن لا يمكن العيش فيه.

صحتُ متعجبًا:

-على الرغم من أن ما فعلته بحي شرق جعل السكن فيها أشبه بحلم جميل.

-هذه مُعضلة أخرى، نحن نفحص طلبات الأغنياء

جيدًا، هناك أسئلة عن الإدمان والجريمة والزواج أعدها أطباء نفسيون، أما الفقراء الذين سيعملون حراس أمن وبنوك وعمال مصاعد وبوابين وعمال مرافق وغيره فيخضعون للشروط الأربعة: الخلو من المهانة والجريمة والجنون والتعصب، لم نترك شيئًا للصدفة، تحاليل الدم والاستعانة بالجهات الحكومية لفحص الرغبات.. كل هذا يضمن أن ذبابة لن تعبر حي شرق أو تعمل فيه إلا إذا كانت سليمة تمامًا، لكن...

وتنهد «إسرا» عندئذٍ وكأنه واقع في حيرة شديدة، فقلت أستحثُّه على الكلام:

-ولكن ماذا؟

-عندما قدم الناسُ طلباتهم شعرت أننا أخطأنا خطأً بالغًا، أمرٌ مُخزٍ جدًا، السِّيَر الحياتية تم تزويرُها ببراعة، والوساطات تكلَّمت عن نفسها والآخرين، ضغط هائل جعلني أكتشف أن كلَّ من بالمدينة، الفقراء والأغنياء، الأنقياء والمرتشين، الضحية والجلاد، كلهم يريدون الانتقال، كلهم يريدون الجنة، وهذا مؤسف بقدر ما هو مفرح، مَن سيتبقَّى إذًا هنا في الجحيم؟!

قلت وأنا أقهقه:

-لقد رفضتني أنا شخصيًا لأنني دخلت السجن ثلاث سنوات فقط!

ضحك ضحكة ذابلة، كأنه يجاملني أو يعتذر:

-لأنك لم تذكر ذلك في طلب الانتقال، كان هدفي من البداية أن يصبح الناس أفضل، لا أن يدَّعوا أنهم أفضل،

كنت أتمنى أن يتقدَّم الناس بسِيَر حياة حقيقية، لستُ ساذجًا لكي لا أفهم أن كلَّ شخص في هذه الحياة ارتكب سوءًا، لكنِّي أيضًا لست حسن النية لأفهم أن مداراة ذلك أمر سيئ أيضًا.

-ولا بآلاف المدن الجميلة يمكنك أن تفعل ذلك.

-كنت أعتقد أن الجمال والنظام كفيلان.

-تنقصك الروح.

تنهد «إسرا». نفخ تقريبًا عندما قلت ذلك، قال وكأنه يجاريني:

-ومن أين تأتي الروح؟

-من السكان، وإن كان سكان حي غرب لا يصلحون، فلماذا تجعل الانتقال مقصورًا عليهم؟ لماذا لا تجعله متاحًا لسكان المدن الأخرى البعيدة والقريبة؟

-لأنني سعيت إلى بناء هذه المدينة من أجل تعويضهم عن معاناتهم.

-إذًا اقبل الناس على عيوبهم وافرض القانون، القانون جيد، وسيكون كل شيء على ما يُرام.

-فكرة جيدة، لكنَّك تعلم أكثر مني أنها لو صلحت لبعض الوقت فلن تلبث حتى يتسلل الضعف البشري.

قلت له مبتسمًا:

-أنت تطلب شعبًا من الحالمين، الذين لا تفرِّقهم العصا ولا تجمعهم سماء تمطر ذهبًا وفضة، تريد شعبًا من النبلاء.

-لأنني أسكن في هذه المدينة منذ طفولتي، رأيت كيف تغيَّرت للأسوأ قطعةً قطعة، وعن طريق رجال كانوا طول الوقت يرددون: نحن نريد الأفضل للجميع. ربما أرادوا الخير لأنفسهم فقط وعائلاتهم من بعدهم، وربما كانوا صادقين وأخطؤوا؛ لهذا فقد تجدني حذرًا، وطيلة أعوام ظللتُ أقرأ وأستمع، أسافر وأزور مدن العالم، أقابل الملهمين وبنَّائي المدن، ليس الطوب والخرسانة والطرق، بل الإنسان الذي يحافظ عليها ويضيف إليها؛ لهذا بنينا مكتبة ضخمة، لكنها لن تكون ذات فائدة إذا لم نضع مواطنًا يقرأ، وطلبتُ استنباط خمرٍ لا تذهب بالعقل، وقانون للدعارة ليس فيه امتهان للمرأة ولا انتقاص للرجل، المهم أنا أريد البداية فقط، أعلم أنه لا يوجد إنسان وُلد جاهزًا، لكني لا أريد أن يتدهور بي الحال فأقبل بمجموعة من المثاليين الذين إذا انقطعت الكهرباء خلعوا سراويلهم وعادوا للعصور المظلمة.

-وما الذي يتميَّز به أهل حي غرب؟

-المعاناة، أنهم أكثر معاناة من غيرهم.

-إذًا عوِّضهم عن ذلك، اجعل الانتقال متاحًا للجميع.

-ليس قبل أن يستحقوا ذلك.

ومن دون أن أنتبه ارتفع صوتي، وأخذت أقول بيأس شديد:

-لن يستحقوا ذلك أبدًا، هل تعرف؟ لن يستحقوا ذلك أبدًا، ولن يتوقفوا عن إنكار مخازيهم، حتى لو وصلوا

إلى اليأس وذهبوا للانتحار من فوق الكوبري.

-لماذا تقول ذلك؟

-لأنني ما زلت متشبثًا برأيي، الذي بالمناسبة يُخالف رأيك تمامًا، المكان الجيد مع قانون متوسط القوة يصنع مواطنين جيدين، المكان السيئ حتى مع قانون قوي يصنع السيئين.

-بربك! ألم تسمع عن أمين مكتبة لا يقرأ، طباخ لا يحب الطعام؟! لماذا خلق الله الملائكة مسيَّرين؟

-هذه مغالطة منطقية، بل عدة مغالطات.

-هذا النقاش يُمرضني، مدينتي لن تُسكَن بالنقاش.

-ولن تُسكِنها بالتردد.

بسط «إسرا» يده وحفَّزني قائلًا:

-ماذا تقترح؟

-أن تفتح الباب، وأن تُسكنهم وتراقبهم، وتطرد من المدينة من يخطئ، هذه هي الطريقة الوحيدة.

-ألا تكفيك كل هذه الأخطاء، هنا، في حي غرب؟!

-كم عدد سكان حي غرب؟ مليون! خمسة ملايين! وكم عدد المتحرشين واللصوص والبلطجية؟ ألف!

-واحد فقط يمكن أن يفسد.

-لهذا أقول: اقبل بهم وراقبهم.

-كيف أراقبهم؟بالكاميرات، بتقارير من أناس مخلصين..

- توجد أساليب كثيرة.

-ومَن الذي يمكن أن يرشدني إلى هذه الأساليب؟ المخابرات؟

-أنت تسخر.

-وأنت تريدني أن أتجسس على الناس.

-أنت حارس المدينة، وولي نعمتهم.

-شخص ناضج مثلك يفكر في هذا الأسلوب المزري لتقويم الأشخاص.

-حسنًا، لا تراقبهم، اهتم بالإحصاءات، زيارات المكتبة، دور العبادة، السينما، قمامة الشوارع، حفِّزهم.

ظلَّ صامتًا لبرهة، وكنت أعلم أنه لا يفكر في كلماتي بقدر ما يفكر في رد مناسب مفحم لها:

-هل تعرف لماذا يبنون المدن الجديدة؟ لتصحيح الأخطاء، لكنَّ الأخطاء تزيد، مع كل مولود جديد نصنع كارثة ونضيف أخطاء أخرى، لم يعد متبقيًا إلا إنقاذ ما تبقَّى، سفينة «نوح»، انظر حولك، في كل قصة مدينة جديدة خطأ، بذرة من التساهل سرعان ما تنمو منها شجرة فوضى عارمة، هذا كلام نهائي يا باشمهندس «طارق»: لن أقبل إلا بالأشخاص الجيدين، هذا كلام نهائي.

***

- بدأ الإسكان قبل ميعاد الانتهاء الرسمي، كل الذين قدموا سِيَرًا حياتية نظيفة تم قبولهم، مع ذلك ظل حي شرق مدينة فارغة من السكان، تنقصها الخدمات، كنَّاسو الشوارع وغاسلو الواجهات وعمال الصيانة الكهربائية والإطفاء وسائقو الأتوبيسات، وشرطيو المرور، بسبب إخضاعهم لقانون الشروط الأربعة كما يسميها «إسرا»: الخلو من التعصب والجنون والمهانة والجريمة.

-وكأن «إسرا» يريد أن يسخَر من الناس ويعاقبهم من خلال مدينته!

-في البداية قلت مثلك، وإن «إسرا» لا يستطيع تجاوز مخاوفه، لكنَّ هذا غير صحيح.

-أقنعني بذلك، وأقنعني أيضًا بأن شروط «إسرا» الأربعة لا تنطبق إلا على الأغنياء وبعض حاملي المؤهلات العليا. لا يخلو من التعصب والجنون والجريمة والمهانة إلا الأغنياء بطبيعة حياتهم، علاوة على أن الأغنياء هم من يملكون المال لشراء بيوت حي شرق باهظة الثمن، تصوَّز معي هذا، بلد يسكنه الأغنياء، ويكنس شوارعه ذوو المؤهلات العليا، وبعد ذلك يجد «إسراك» الجرأة ليقول إن المدينة بُنيت من أجل تخفيف المعاناة، أليست هذه سخرية؟

-صدِّقني، كل شكوكك وأكثر طرحتها على «إسرا» وناقشته، وأستطيع أن أقول إنني أفهم «إسرا»، أفهم غرضه تمامًا في الخوف من تسكين حي شرق بالطريقة المعتادة؛ فالموضوع ليس فقط أن يعوِّض مواطني حي

غرب عن معاناتهم، أو أنه يريد إذلالهم، لكنَّ الحقيقة غير ذلك تمامًا، «إسرا» يريد أن يجعل النقاء والجمال شرطًا ليسكن مواطنوه حي شرق، ليصيروا أفضل، ليكونوا جديرين، تصوَّز أن سكان حي غرب كلما شخصت أبصارهم تلقاء حي شرق يصطدمون بسؤال واحد: لماذا لا نجعل مدينتنا مثلها؟ مع الوقت سيصير حي غرب نُسخة من حي شرق، مع بعض المساعدات البسيطة.. لكن الآن لو فُتح الانتقال للجميع ستتحول حي شرق إلى نسخة من حي غرب.

-بعض المساعدات البسيطة!

-أيًا ما كانت الطريقة، غرض «إسرا» غرض نبيل، أليس كذلك؟!

-ربما.

***

سأل «عبد الرحمن» المهندس «طارق» بعد فترة صمت:

-إن كان «إسرا» لا يقبل بانتقال سكان حي غرب إلى المدينة الجديدة، فلماذا وضع إعلان التوظيف على بوابة الحكومة الإلكترونية؟

-ليس «إسرا»، بل رجال الحكومة، وضعوه لدفع «إسرا» لقبول نتيجته تحت الضغط ليفوزوا بنصيبهم من الكعكة، وضعوا الإعلان من دون أن يخبروه، وقبل ميعاد الطابور الرسمي كان هناك طابور آخر غير رسمي أمام باب كل رجل حكومة يستطيع أن يدفع بوساطته لتعيين جامع قمامة أو سائق أتوبيس أو... أو... أموال هائلة دُفعت بلا ضمانات غير كلمة شرف من موظفين فاسدين، لكنَّ ما حدث في الطابور قلب الأمور، أتعرف؟ كثيرًا ما أشك أن «إسرا» هو الذي دبَّر هذا ليخذلهم، وليمنعهم من إملاء شروطهم عليه.

قال «عبد الرحمن» بكلمات مقتضبة وكأنه يكره الاعتراف بذلك:

-لا، لم يكُن مدبِّرًا.

-إذًا فمخاوف «إسرا» صحيحة، حاولتُ كثيرًا إقناعَه بأن مشاهد الدهس والتكدس كانت تحت ضغط نفسي.

-هل يعتقد «إسرا» أن الفقر والحياة بلا قيمة ليسا ضغطًا نفسيًا كافيًا؟

تجاهل المهندس «طارق» سؤال «عبد الرحمن» وقال له:

- تعرف ما الذي قاله لي؟ قال إن الشيطان دخل تحت فك الحيَّة إلى الجنة، وإنه لا يستطيع أن يسمح للمشوَّهين نفسيًا بإفساد جنته، وإتمامًا للجنون نعت رجال الحكومة ونعتني بالقتلة، ومنعني من لقائه لكي لا أجادله وأشوِّش رؤيته، ثم صرف لي كل مستحقاتي المادية، وألغى تصريحي بدخول حي شرق، ولم يعد يقابلني.

-مجنون تمامًا!

-بل مسكين، وحيد تمامًا، وحائر؛ ولهذا فحتَّى بعد أن طردني ظل يتصل بي ويقول لي: تكلم، أنا أسمعك. وأحيانًا يتصل ويتكلم هو ويطلب مني ألَّا أرد عليه، قال لي إنه أجبر الحكومة على أن يدفعوا لأهالي القتلى، وسيعوِّض المضارين بطريقة مناسبة، بعيدًا عن ترهات الإعلام بالسماح لكم بالانتقال، قال: مستحيل، سأعوِّضهم، وظائف ثابتة، فرص سفر للخارج، لا بُدَّ أن أشتري منهم فرصة الانتقال.

عندئذ قاطعه «عبد الرحمن» بدهشة شديدة:

-إذًا، «إسرا» خلف محاولة «إسراء» لشراء فرصتي.

-أي محاولة؟ ومَن «إسراء»؟

***

طلبا كوبين آخرين من الشاي وتحادثا حتى بردت ثمالتهما، حكى له «عبد الرحمن» عن «إسراء» وزوجها، عن الموظف الذي ملأ صدره بالشك، خمن «عبد الرحمن»:

-ربما يكون «إسرا» هو من أرسله!

-لا أعرف بالضبط، تبدو حكاية «إسراء» مقنعة تمامًا، و«إسرا» لم يكُن ليتَّبع هذه الطريقة المعقدة في شراء فرصتك، هذا أمر محيِّر صدِّقني، لكنَّ السؤال المهم هو: هل ستبيع فرصتك؟

-ما رأيك؟

-بافتراض صدق «إسراء» وزوجها، سيظل الاختيار صعبًا، لكن يبقى الأصل، انتقالك إلى هناك حق من حقوقك وتعويض مناسب.

-وجمع شمل عائلة إسراء خيار أخلاقي تمامًا.

-إذًا أنت تميل إلى بيع فرصتك؟

قال «عبد الرحمن» بخيبة أمل واضحة:

-عندما رأيت وجهك وسمعت حكايتك اعتقدتُ أنك سعيتَ إلى مقابلتي لأنك تعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله.

-لكنك فاجأتني تمامًا، لاحظ أنني سعيت إلى رؤيتك في المرة الأولى وأرسلت لك رسالتي قبل عرض «إسراء» وزوجها.

-لماذا طلبت مقابلتي إذًا؟ لله والوطن؟

-ربما، لكنّي لم أقرر إلا بعد أن رأيتك في التلفاز، ولسببٍ ما أردتُ أن أحدثك عن اليأس، اليأس الذي دفعك لأن تقف في الطابور، وأن تستسلم عندما علت موجة الهاربين من الدهس فوقعت أسفلها، أردت أن أحييك، أشد على يدك، وربما أردت أن أعنّفك، لا أعرف، لكنَّ الثابت أني أردت أن أخبرك أن اليائسين الذين لم يسقطوا هم مَن دهسوك؛ لهذا لا أستطيع أن ألومك؛ لأن خيارَك كان بين أن تدوس على روحك أو يُداس على جسدك، وستثبت الأيام ذلك.

-كيف حصلت على رقم هاتفي إذًا؟

-بطريقتي الخاصة.

-هذه ليست إجابة، لكنّي سأتغاضى عن هذا السؤال لأسألك السؤال الأهم: لماذا أردت أن تقابلني هذه المرة أيضًا؟

***

-عندما بدأتُ العمل مع «إسرا» بدأت أدرك أن هناك مَن تعمَّد إفساد حي غرب، ليس عن تواطؤ، بل عن عقيدة متوارَثة بأن اليأس هو ما يُبقي المدينة على استقرارها المهيب، لكنَّ التجرِبة وما شاهدتُه وضَّحا لي الكثير، والآن وأنا أتكلم معك فهمت أشياءَ أخرى، وأستطيع أن أقول وبقلب مطمئن: إن المدينة تفسد أيضًا بحسن النية، بالرغبة في إصلاحها.

-برغبة «إسرا» مثلًا؟!

-بالضبط، وطول الوقت كنت أحاول العثور على الخطأ في تفكير «إسرا»، فعلى الرغم من نقاشاتي معه فإنني لم أصل إلى نقطة الفساد في تفكيره، لكنِّي فهمت أخيرًا، كأنَّ «إسرا» أراد أن يكون إلها بمحاولته أن يشفي الفوضى بالوعد، بناء مدينتين متناقضتين متقاربتين بهذه الطريقة عمل متهور، و«إسرا» لم يفهم ذلك في البداية، حتى بدأ الانتحار، الانتحار إشارة إلى أشياء كثيرة لا يراها الكثيرون، ومنذ بدأ الانتحار وأنا أجمع السِّيَر الحياتية للمنتحرين، أقرؤها، محاولًا الفهم، وكبداية، كل المنتحرين تم رفضهم للانتقال، وعندما عدت إلى الإحصاءات الخاصة بالمدينة منذ بدأ الإعلان عن حي شرق، الإحصاءات تقول الكثير، في بداية الإعلان كان كل شيء هادئ بل أستطيع أن أقول: إن أرقام الاستهلاك والمعيشة تحسنت، مع بداية الإحباط ومعرفة الناس بالشروط الأربعة وعلى الرغم من تضاعُفِ إنتاج المخابز فإنها لم تعد تكفي، انتشرت

المطاعم التي لا تهتم بالجودة بقدر ما تهتم بحشو الأفواه، تضاعفت صناديق القمامة ولم تعد كافية، كل شيء تعدَّى حدَّ التدهور إلى التدهور المُريع، المرض والضعف والغلاء قفزت درجات ملموسة، وجود حي شرق أتلف البنية النفسية لسكان حي غرب، اعتقاد الناس أن هناك مكانًا أجمل وأن بإمكانهم أن يحصلوا على هذا المكان يجعلهم يسيئون إلى أنفسهم، وإلى حياتهم، وإلى ذويهم، وإلى المكان فيجعلونه أسوأ، وعندما دُهس الناس في الطابور بدأ الانتحار، وأطلق الأهالي على الطريق إلى المدينة الجديدة هذا الاسم المستفز: «المعبر»، كل هذا طبيعي، مسألة نفسية بسيطة؛ فالناس لا يصيرون أفضل عندما يتم الإعلان عن منتج مرغوب، ولا يكون بوسعك الحصول عليه، وعندما طُرحت فكرة المدينة الأفضل كمكان طُرحت كسلعة، وليست كجائزة، وهذا ما عجز «إسرا» عن رؤيته في البداية.

-لهذا، قلت إن المدن لا تفسد بالتواطؤ فقط، ولا بالعقيدة، بل بحسن النية.

-بالضبط.

-فشل «إسرا» إذًا، لم يعد لديه خيار إلا أن يفتح حي شرق من دون شروط، أو يقف ليراقب كيف ستسوء الأمور أكثر في حي غرب حتى تعلو الموجة وتُغرق حي شرق أيضًا.

-لن يحدث، لو أن «إسرا» غير موجود في المعادلة

لربما وصلنا إلى هذه النتيجة، «إسرا» عبقري وباني مدن بطبيعته، وبناة المدن الحقيقيون يتخلصون دائمًا من ورطة انتظار الثمن المناسب قبل أن يصلوا إلى الثمن النهائي، هل تعرف ما الثمن النهائي لمدينة مثل حي شرق يا «عبد الرحمن»؟ أن يحرقها أبناؤها، ومنذ بُني حي شرق وإسرا لم يتوقَّف عن نسج الألاعيب ليمنع الوصول الى تلك النتيجة، ودائمًا ما يسبق الجميع، وإن كنتُ أنا قد وصلت إلى هذا الفهم فلا بد أنه وصل إليه منذ فترة بعيدة؛ فهو لا يتوقَّف عن التفكير في مدينته، والدفاع عنها، يعد الخطط ويطلق الشائعات ويجنِّد مخبرين وممثلين، هذه نواة صغيرة لجيش «إسرا» الإعلامي الذي يتجاوز قدرات جيش من الصحفيين ورجال الفكر، إنهم مواطنو الشارع، الذين يفعلون ما يفعلونه من دون أن يقبضوا الثمن، موظف الشؤون، وأنا، و«إسراء» نفسها، حتى أنت، كلنا نخدم فكرة «إسرا»، ولا نستطيع الفكاك منها.

-وكيف سيحمي مدينته من ثورة على وشك الحدوث، ويحافظ في الوقت ذاته على نقاء مهمته.

-ببساطة، بأن ينقل الشعور بالانتقال إلى حي شرق من رغبة مستحيلة إلى وهم.

-ببساطة!

-نعم، أبسط مما تتخيل، قد يستخدمك، في الحقيقة أنت مرشَّح ممتاز، بدايةً لن يسمح لك بالانتقال أبدًا، سيتسلَّى بالمتاهة التي صنعها لك حتى تُنهَك تمامًا، ولا

يكون لديك خيار، سيعرض عليك أن تأخذ تعويضًا مناسبًا، وظيفة ثابتة في ديوان من دواوين الحكومة، أو مبلغًا ماليًا، وعندما تقبل وتتنازل سيبث الشك فيك، حتى هذا التعويض البسيط لن يعطيه لك، فتخرج إلى الجمهور الذي رآك وعرفك وتقول إن «إسرا» خدعك.

-لماذا تخبرني بذلك؟

-لتبصر وتفهم؛ فأحيانًا عندما نفهم يقل اعتمادنا على عقولنا، و«إسرا» في حاجة إلى أن يرى شخصًا يأخذ قراره بقلبه، من يعلم؟ ربما يتغير «إسرا» ويقتنع بأن سكان حي غرب ليسوا مشوَّهين حتى لو عانوا، وكل ما أتمناه ألَّا تسوء حالة المدينة أكثر من ذلك.

***

الفصل الخامس
موظف الكوبري

-إن لم أكتب سأنسى.

متى قال «عبد الرحمن» هذه الكلمة: «سأنسى»؟ نعم، بالأمس في المقهى، التقط المفكرة حينها، وبدأ يكتب: (المهندس «طارق»، أول لقاء، مقهى السعادة، مهندس حي شرق، الوهم، ألاعيب «إسرا») حرف الراء في «إسرا» مرتعش، له ذيل قصير؛ لأن المهندس «طارق» أمسك يده قبل أن يُتم الكتابة، قال «عبد الرحمن» له في حيرة: إن لم أكتب سأنسى.

لكن المهندس «طارق» هزَّ رأسه متفهمًا ومعترضًا في الوقت ذاته، يعلم أنه سينسى، على الرغم من أنه لا يدرك فداحة ذلك، سينام «عبد الرحمن» ويستيقظ بعدها، ناسيًا الكثير من التفاصيل التي قالها له الرجل الذي قابله في المقهى، وكيف انتهى لقاؤهما، وكيف عاد إلى السكن، وقد يقابله في الشارع بعدها عرضًا فيظنه أحد الذين كان يعرفهم قبل الحادثة.

قال له المهندس «طارق» حينها عندما أمسك يده:

-لا تكتب، من يدري إذا قرأ أحدهم ما تكتبه وعرف «إسرا» عن لقائنا؟

-ولو رفضت وكتبت؟

-سأتصل بـ«إسرا» وأخبره أنك تعرف كل شيء، وأنني غششته.

في الصباح، عندما استيقظ «عبد الرحمن» فرَّت أشباح التفاصيل منه وظلَّت الوجوه الغائمة والكلمات المشوشة والحب والكراهية والدهشة والفهم كطعنات

قديمة في القلب، كأنه منذ الأبد كُتب عليه أن يتلمس الطريق في حكايته كما يتلمس أحدُنا طريقَه في الظلام، يتعثَّر، ويصطدم، ويقول لنفسه: ما أشد هذا المكر! كيف ظن المهندس «طارق» أنه يغش برجلٍ لا ذاكرة له، رجلٍ ينسى دائمًا إن لم يكتب، وينسى أحيانًا ولو كتب؟! لكنَّ المهندس «طارق» متيقِّن أن «عبد الرحمن» لو نسي فلن ينسى العناصر الأساسية للحكاية، هناك خيار أخلاقي، وامرأة يحبها، وزوجة تنتظره، ومدينة رائعة ستضيع إن قبل بالتسوية، ورجل عجوز محبط يعيش في الدور السابع من فندقه الشهير، ينظر للبشر من شرفته ويراهم جميعًا غير مؤهَّلين لسُكنَى مدينته التي أنفق أموالًا هائلة لبنائها.

يستيقظ «عبد الرحمن» على ضجيج السيارات والنداءات التي تصل إلى الصراخ، صوت مدينة مجنونة انطلقت من عقالها، يتناول مفكرته، يتصفحها، يقرأ اسم المهندس طارق عبد العزيز، يتحسَّسه بالنطق كما يتحسَّس ضرسًا جديدًا نبت في فمه، غريبًا وزائدًا.

وبما تبقَّى له من ذاكرة الأمس، يقرِّر أن يتصل بـ«إسراء»، وبمجرد أن يسمع صوتها في الهاتف يقول في خفوت وضعف:

-أريد أن أراكِ.

تتنهد، حزينةً، وكأن ضعفه وحيرته اشتبكا بفلك حزنها:

-وأنا أيضًا.

-متى؟

-بعد الغداء؟

-في أي وقت من اليوم، رنِّي عليَّ وسأنتظرك على ناصية المطعم.

لكنه يخرج إلى الشارع قبل أن يرنَّ هاتفه، في الطريق يُنهي عدة مكالمات خاصة بعمله السابق: إجازة طويلة تحسبًا للأمور، واعتذار لمديره في العمل، يفتح طريقًا للعودة إلى عمله القديم.

وبينما ينتظر «إسراء» على ناصية الطريق تصطدم به الأكتاف ويحييه أشخاص لا يعرفهم وتفوح رائحة بول عطنة من جدار قريب خلفه، المارة مسرعون وكأنهم مشتعلون، تمر سيارة فضية اللون ويرى وجه «إسراء» يطل من نافذتها وهي تشير، يدلف إلى السيارة.

-هل تريد أن تذهب إلى مكان ما؟ (يهز رأسه بالنفي) إذًا سأختار أنا.

تحرِّك ذراعها المؤطَّرة بالدانتيل الذهبي فتدفع عصا الفتيس للأمام، وتنقل قدمها، ترتدي فستانًا من الحرير أسود اللون، تومض ركبتاها وهي تحرِّكهما في أثناء القيادة، امرأة فاتنة فقط تستطيع أن تحوِّل الأبيض والأسود إلى لوحة جميلة، امرأة لا تحتاج إلى الألوان. يشعر «عبد الرحمن» بارتياح، لكن العالَم لا يصير مبهجًا على الرغم من ذلك، رؤيته للمدينة آخذة في التبدُّل، وكأنه يرى قبحها للمرة الأولى، و«إسراء» تقود سيارة

مكيفة بزجاج مغلق وكأنها تتعمَّد أن تخوض به أسوأ الشوارع والأماكن، صناديق القمامة تطفح بما فيها وتعلوها القطط والكلاب الضالة وسحابات الذباب والبعوض، الشحَّاذون يدقون زجاج النافذة ويمدون أيديهم ويشتمون، التوقف في إشارة المرور كالتعثُّر على الوجه، يحيط بك باعة المناديل والآيات القرآنية المطبوعة على ورق متسخ، المحارم الحمراء ومعطر الجو، أكواز الذرة المشوية والتين الشوكي، في الشوارع الفرعية يتبوَّل الصغار ويتمخطون، الطوابير كائن واحد ملتصق برؤوس مطلة وأذرع متعددة، المتشردون يفتشون في صناديق القمامة على نواصي المطاعم، الواقفون على الرصيف بمجرد أن يروا ملابس «إسراء» يشيرون إلى «عبد الرحمن» ويرسمون قرنين فوق رؤوسهم، والأكثر جرأة يتحرشون بأصابعهم وإشارات معلنة إلى سَحَّابات سراويلهم، النساء يُرضعن أولادهن ذُبابًا ولبنًا، والأرصفة وأجزاء من الطريق محتلة بنصبات تبيع الفاكهة والخضراوات والأسماك، وطاولات الأكل التي تومض فوق أطباقها عيونٌ دامعة من فرط الجوع واللذة والغبار الخانق، والأيدي التي تمتد خلسة في الزحام فتسرق أو تتلصص باللمسات على أشد الأماكن خصوصية، الناس يأكلون ويشربون ويتجشَّؤون وهم واقفون أو يهرولون، المشهد صامت بسبب الزجاج، ورائحة البرفان الزاعق تهاجم أنف «عبد الرحمن» مع دفعات الهواء البارد الهيِّن، كل شيء يدخل من خلال

عينيه، الروائح والأصوات، يغلق عينيه ولا بد أنها رأته في المرآة ليأتيه صوتُها هامسًا مشفقًا:

-أتعرف ما مشكلة هذه المدينة؟

يقول، ليس على الفور، بعد قليل:

-مشكلة هذه المدينة أنها تثير رغبتنا في الانتقاد.

تضحك «إسراء» ضحكةً مختلفةً عن كل ضحكاتها السابقة:

-لقد رأيتُ هذه المدينة تتحوَّل أمام عينيَّ، سمعت عنها من أبي، وسمع أبي من جدي، نحن أبناء المدينة نعرف كيف كانت المدينة ولماذا انتهت إلى ما انتهت إليه.

-وما الذي انتهت إليه؟

-ما تراه، لكنَّك لا تريد أن ترى، وقد تصدِّق كلام الخبراء الذين يقولون إن الزيادة السكانية هي السبب، من دون أن يُدركوا أن احتلالها بالغرباء والفقراء والفلاحين وصيادي الفرص هو الذي أفسدها.

«إسراء» تسير بسرعة عادية في الشوارع الواسعة، وتنطلق في الشوارع الضيقة الممتلئة بالمارة، تدوس على أقدام ناس، وتكاد تحتكُّ بعربات خضار وفاكهة وتتلقَّى الشتائم واللعنات.

-على مهلك!

-آسفة، لكنِّي لا أطيق هذه الشوارع، لديَّ ذكريات سيئة خاصة بها.

-دعينا نجلس إذًا في مكان هادئ.

-لا يوجد مكان هادئ في هذه المدينة.

-أعرف مكانًا يمكن أن نذهب إليه.

-ليس الآن.

ليس الآن! و«عبد الرحمن» متحيِّر في «الآن» وما بعده، الآن الذي يعني النية المضمرة للحديث، بلا رغبة في الكلام، وبعد «الآن»؟ بعد أن يزول الماضي ويأتي الحاضر، هل سيتكلمان، ثم يقيمان الأفراح والليالي الملاح، احتفالًا بالشجاعة؟! وما الشجاعة؟! أن يقول لـ«إسراء» ما يريد أن يقوله، وأن تقول «إسراء» له ما أرادت من أجله أن تراه، لكنَّ الشجاعة فتيلٌ مبتلٌّ ولهبٌ مرتعِد، ولا توجد رغبة لإفساد اللحظة، ولا حتى إصلاحها.

***

الحكاية بدأت بذهاب أحد موظفي حي غرب الكبار في زيارة إلى سفارة دولة أجنبية، وعن طريق الصدفة وقع في يده دليلٌ بالأماكن السياحية الشهيرة، والأماكن التي يجب على السائح ألَّا يرتادها إلا تحت حماية، وكان مذكورًا من ضمنها حي غرب، لم يطلب نسخة من الدليل، وبشكل انتقامي مزَّق الورق ودسَّه في جيبه، الورق به خريطة إرشادية للمدينة، الأماكن والأوقات التي تنشط فيها الجريمة، التحرش والسرقة والشجارات بالسلاح الأبيض والدعارة والمخمورون ومدمنو المخدرات، حتى الشَّحاذة تم تصنيفُها كجريمة؛ فالفقر والحاجة بائسان للدرجة التي قد تصنع قاتلًا، في البداية قرر الموظف الكبير أن يحرق الخريطة، ثم تراجع عن قراره، وقام بتصويرها لزوجته وأولاده وقريباته، خلال أشهر تم تداول الخريطة في نطاق أوسع فأوسع، ثم ذاعت وطار ذكرها ونُسخت أكثر من مرة للدرجة التي دفعت دار نشر إلى أن تقوم بنسخها تجاريًا، وهنا استيقظت مؤسسات حي غرب، بعد توزيع هائل للخريطة مُنعت وأغلقوا دار النشر وقبضوا على صاحبها، لماذا مُنعت؟ هل هو اعترافٌ من الحكومة بعجزها عن السيطرة، أم راق للحكومة أن تذعر مواطنيها بالمنع؟! أيًا ما كانت نيتهم، المصادرة تعطي مصداقية، والخريطة صارت تُباع في السوق السوداء بمبلغ هائل، ومن بين مئات النسخ التي طُبعت تحت ضغط الطلب تاهت النسخة الأصلية، كل زوج محب وأب قلق، وكل

امرأة معتدة بنفسها، كل عاشق كان يبحث عنها بطرف إبرة، يشتريها ويهديها، واشترتها «إسراء» لنفسها.

ذات يوم تأخَّرَت، ولأنها تكره سيارات الأجرة استعملت الخريطة بدقة، تجاهلت شارعًا رئيسيًّا بناءً عليها، وفي الشارع الفرعي اعترضها بعض البائسين، لم يسرقوا حقيبتها ولم يغتصبوها، ولولا المُديُّ التي أشهروها في وجهها ما خالط تقزُّزها منهم قيد أنملة من فزع، كانوا خمسة، اجتمعوا حولها وأسقطوها وكشفوا عن ساقيها، لكنَّهم كانوا مرهقين جدًّا وبؤساء، تفوح منهم رائحة عرق وعفونة وخمر رخيصة لدرجةٍ لا تنهض بشجاعتهم، صرخت ففزعوا، وقبل أن يهربوا أخذوا يضعون علامات بالمُديِّ الحادة على ركبتيها، وكأنهم أرادوا أن يعاقبوها على العطر والبياض والجلد الرطب اللين.

طيلة سنوات، تناست «إسراء» هذه الحادثة، لم تحكِها إلا لزوجها مضطرة، لتبرِّر له خجلها من أن تتعرى أمامه بالكامل فيرى مكان الندوب التي صنعها السكِّيرون، لكنَّها حكت لـ«إسرا»، وبكت، بلَّلَت رموشها الطويلة بملح الدموع فأنبتت نظراتٍ أكثر حزنًا من حديثها، طلبت منه أن يساعدها على الفرار من المدينة، أن يقابل «عبد الرحمن» ويقنعه ببيع فرصته لزوجها، وتضرعت:

-لم أعد أحتمل رائحة الشوارع وأصوات الناس، وعلى الرغم من كراهيتي للسيارات اشتريت واحدةً ثم

بعثها، عندما أقود لا أستطيع مقاومة الرغبة في الانقضاض على السائرين.

«إسرا» الشارد قليلًا، الغارق في ورطته، في آلاف المعطيات والمدخلات، وبرهان واحد يريد إثباته هو لا غير، قال ببطء:

-حسنًا، سأقابله.

***

في مدن الفرص القريبة التي تنتظر مقتنصيها لا مكان للحب، لكنَّ «إسراء» تحب زوجها، ليس للدرجة التي تجعلها تغفر للمدينة وتنسى كراهيتها، بل تتولَّد الشجاعة من اجتماع الحب بالكراهية، وبعد أن كانت الشوارع أكثر مكان يثير فزعها صارت المكان الذي تستمد منه قوتها، كلما خارت استلفت سيارة زميلتها في المكتب وانطلقت، النوافذ مغلقة والقلب متأهب والقدمان حافيتان تتبادلان الحركة بين دوَّاستي الفرملة والبنزين كمعزوفة نحاسية للغضب.

بعد أن وعد «إسرا» موظفته الفاتنة بمقابلة «عبد الرحمن» استقلت المصعد إلى بهو الفندق، شبعى من البكاء وشاعرة بالخور الشديد بعد أن سحبت الدموع روحها، اتصلت بصديقتها واستلفت منها سيارتها وانطلقت في المدينة تدوس المخمورين والمتأخِّرين والمتسكعين، تكسر سيقانهم وتلطمهم وتسمع التدفق المريع للحم وهو يُدهس ويُسوى بالأسفلت، ثم عادت في أول الصباح متعرِّقة، تفوح منها رائحة الخوف،

وللمرة الأولى منذ زواجها، تحوَّل خجلها من إظهار ندوبها إلى شجاعة، بل شعرت برغبة شديدة في كشفها، أيقظت زوجها وتهيأت، وسمعته في فوضى مشاعرها وهو يقول بحماقة ودهشة:

- يالحقارتهم! كيف وصلوا إلى هذا المكان؟!

عندئذ انغلقت زهرتها، تحولت من اللون الأحمر إلى اللون الأسود، وتحوَّل عسلها الأبيض إلى قيح، وخوفها الشديد إلى كراهية، للرجل والمدينة والعالم.

***

منذ بداية التاريخ، ومنذ أن هبط «آدم» من الجنة، لا أحد يعرف كم امرأة ورجل خلعا ملابسهما حتى الورقة الأخيرة، ومع ذلك لم يتحررا من ورقة الماضي الثقيل ولا المستقبل المليء بالاحتمالات، ثقيلان، يغوصان في «الآن» وكأنهما حجران، فماذا لو كانا يرتديان الملابس وظلا حجرين، ينطلقان في سيارة سريعة وكأنهما حجران؟! بعد أن ترك «عبد الرحمن» اللحظة تسكن في آنها، بلا سؤال، وبحماقة، هل دار بخلده أن عدوه ليس النسيان فقط، ولا الفتنة، بل الجهل بالآخرين، حسن النية بهم، والحكايات التي تسكن شوارع المدينة وتتكرر لتنتج الأشخاص أنفسهم، مشوهين، وعدوانيين؟! «إسراء» مثلًا، هل عرف حكايتها؟ لا، ليست حكاية زواجها وعملها، ولا الوقت المتربص بعائلتها، بل تلك الحادثة التي ترقد عميقًا، أعمق من أن تظهر على الملامح أو التصرفات، هل كانت على استعداد أن تحكي

له، كما حكت لـ«إسرا»، «إسرا» الذي يتعرى الجميعُ أمامه، لكنَّه لا يتعرى أمام أحد؟

في «الآن» تنتبه «إسراء» وهي تقود أنها ارتدت هذا الفستان عندما طلب «عبد الرحمن» لقاءها، قصير جدًّا عندما ينحسر، ليكشف أولى الندبات المشوهة، كأنها أرادت منه أن يسألها السؤال نفسه وأن تجيبه: نعم، لقد وصلوا إلى هذا المكان، ولو كانت طعنات لثقبوا رحمي.

لكن «عبد الرحمن» لا يسأل، و«إسراء» لا تجيب، وكلما نظرت إليه جهرًا أو خلسة شعرت بحبٍّ من نوع غريب يتسلل إلى قلبها، متسلل قذر، لا يصطدم مع كراهيتها للمدينة، بل يتجانس معه، كونه ضحية مثلها.

و«عبد الرحمن»، غافلًا عن الصراع الذي بداخلها، كما يغفل جميع الرجال، بدأ الآن يتعرَّق ويتهته وهو يسمعها تقول في فوضى مشاعره:

- لقد تشاجرتُ مع زوجي.

-ماذا؟

-ولا أريده معي بعد الآن، لا هنا ولا هناك.

-لكن كيف؟ ولماذا؟ لقد كنتما أشبه بـ... وكنت سأوافق فقط لتكونا معًا.

-لأنك أحمق! هذه هي أوراقك، كاملة، بختم الطبيب، أريدك أن تذهب، يومًا ما سنلتقي هناك وأحكي لك كل شيء.

ثم قالت في يأس وبعينين دامعتين:

-هل تعتقد أن ثمة فائدة من كل هذا، وأن الأمور هناك ستكون أفضل؟

فيسألها في حيرة شديدة:

-لماذا تشاجرتِ مع زوجك؟!

***

تُوقف «إسراء» السيارةَ في ظل الكوبري الثالث، تجذب فرملة اليد كأنها ستخوض حديثًا طويلًا معه، وتخبره:

- هناك شرطي مرور عند مدخل الكوبري كما تعلم، ولو أنها سيارتي لقمتُ بتوصيلك وإنزالك على الرغم من المخالفة.

قال «عبد الرحمن» مبتسمًا:

- أتفهَّم ذلك.

-يمكنك أن تأخذ سيارة أجرة من هنا إلى داخل المدينة الجديدة.

يرد عليها مهونًا الأمر:

-لا، سأتمشَّى، المسافة بسيطة.

على الرغم من أنه في ناحية مدخل الكوبري فإنَّ عليه أن يعبر الأسفلت للناحية الأخرى، يعلِّق حقيبة ملابسه على كتفه، ويقبض على الأوراق التي أعطتها له «إسراء» في يده، ويعبر الطريق بسرعة، يصعد درجًا ضيقًا منحوتًا على جدار من الحجر الجرانيتي الخشن، ثم يسير بموازاة الطريق على رصيف الجدار، النفق على بُعد أمتار، يريبه أن الرصيف وبداية فتحة النفق خاويان، ليس كالأيام الخوالي، وعندما يهمُّ بنزول الدرج يدرك فداحة ما نسيه، النفق مغلق، أخبره «جاسر»، أو شخص ما، في مكالمة تليفونية كملاحظة عابرة، نسي، لكنه يعلم، ولم يتذكر ذلك إلا عندما وجد الجمالونات الإسمنتية تسد فتحة النفق، والكتابات بالاسبراي الملون

تتقاطع عليها: المعبر.. لقد تحوَّل المعبر من مجرد كلمة دالَّة على مكانٍ إلى حالة، خط اشتباك، في البداية كان الكوبري، ثم النفق، ومن يدري؟ لو استمر الحال، قد يمنعون المرور على أسفلت المشَّاية السفلى.. وهكذا.

تجمَّد «عبد الرحمن» مكانه بينما يحسب في ذهنه أجرة «التاكسي» الذي سيقله إلى الأسفلت العلوي، يفكِّر بآلية: لو أن «إسراء» أنزلتني هناك لكان أيسر لي! ثم فطن إلى أنها ولا بد لا تعرف أن النفق مغلق؛ فهذا خبزٌ ينتقل من فم إلى فم، وعلى الرغم من كونها ابنة المدينة المخضرمة فإنها لم تعبره من قبل، وقد لا تعبره طيلة حياتها، كأنَّ هناك طرقًا وأماكنَ موصومةً بأقدام الغرباء فقط!

يسمع «عبد الرحمن» خطواتٍ تأتي من خلفه تدق الدرج، وقبل أن يلتفت ينفلت بجواره رجلٌ قصير، ينزل سريعًا ومثل سمكة أنومة يمر من بين جمالونين خرسانيين، ويختفي في ظلمة النفق، يتسمَّر «عبد الرحمن» مكانه مندهشًا، ثم يأتي رجل ثانٍ فثالث، كلهم يمرون، لا يلقون التحية عليه ولا ينظرون خلفهم، يظل واقفًا في ترقُّب، ثم يقرر أن يكون رابعهم، أعدَّ كشاف هاتفه على وضع الإضاءة، ودسَّ أوراقه في حقيبته ومرَّ، تحسس أولى خطواته في النفق المظلم ثم اعتادت عيناه، وإذ يسير يسمع صدى خطواته مختلطًا بصدى الخطوات الأخرى التي تسبقه، وتلسع أنفه رائحة فضلاتٍ آدمية متحللة، يُدوِّر ضوء كشاف الهاتف على

الجدران فتلتمع ذرات الملح المتكلسة في نواقيس جافة من البول، أرضية النفق تخدها أخاديد من الماء القذر، ويتناثر عليها كثيرٌ من البلاط المخلوع، كأنَّ أحدًا ما نبش في الرمل أسفله، دفن خبيئةً ثم عاد واستردها من مدفنها، وعلى الجدران كتابات وأسهم بالاسبراي الملون الجاهز: الطريق إلى المعبر، شتائم للحكومة، وأسماء يخشى الناس أن يذكروها مشفوعة بالسوء في جلسة سرية، مرسومة الآن على الجدران برؤوس حيوانات وبسباب بذيء، «إسرا» نفسه، بالاسم الذي يعرفه الناس، كل الحقيقة هنا على الجدران في أشد الجرائد جرأة على الإطلاق في تاريخ حي غرب.

ثم أخذت الخطوات تُسرع أمامه أسرع، وسمع شخصًا ما يتنخم ويبصق، وصيحة شخص آخر يهدِّد من يحمل الضوء بالقتل، فأطفأ الكشاف على الفور وأعاد هاتفه إلى جيبه، فاح من الظلام أكثر روائح الفزع والسرية خنقًا، ولم يعُد «عبد الرحمن» يجد أصابعه ولا قدميه، مدَّ ذراعيه أمامه في العدم، وشحذ سمعه، همس يستحث، وسبة بذيئة وتأوُّهات وتغنُّجات، ثم صرخة امرأة كأنها طُعِنت، أطارت الصرخةُ صوابَه، حاول أن يسرع ولكن لم يعد في وسعه أن يسرع أكثر، كأنه يهرب في كابوس، يدوس على لحم طري، ويسمع أصواتًا تطارد الشخص الذي يجري أمامه، أو ربما الشخص الذي يأتي من خلفه، انغمدت أبجدية لسانه اللامعة الحادة والمثلومة في كلمتين فقط: النفق.. العبور، العبور من

النفق، عبور النفق، نهاية النفق، النجاة من النفق.. وبينما يجري لينجو من طعنة حاول أن يتذكَّر كيف كان النفق من قبل، الباعة والشحاذون، والبضائع، كيف بدا له حينها المكان سيئًا، وكيف يبدو الآن، مدركًا بمرارة أنه لا قاع للسوء الذي يمكن أن يصنعه الإنسان بالأشياء.

لم يرَ الضوء في نهاية النفق، بل اصطدم بالجدار، فيما بعدُ سيعرف أن الشخص الذي سبقه كان يمر فأغلق بجسده منفذ الضوء، لكنَّ إحساسه حينها كان غريبًا، ملتبسًا، أشد من ألم رأسه، أخذ يبحث بلهفة وكأن ذراعيه تحولتا إلى كائنين فزعين يزحفان على الجدار الذي صار لا نهائيًا في امتداده، فتحة الخروج كانت أضيق بكثير من فتحة الدخول، لكنَّه دفع جسده منها حثيثًا، وبإصرار جعله نادمًا على كل لقمة خبز تناولها في حياته. الخوف والتنفس غير المنتظم وأبعاد جسده غير المرتبة هي التي أضافت سُمكًا إلى جسده الضامر، سيعرف ذلك فيما بعد، لكنْ أنَّى له بالهدوء بينما ينتظر طعنة في جنبه أو جذبة لذراع حقيبته لتغيب بعدها في النفق إلى غير رجعة بملابسه وأوراقه؟! وعندما مرَّ أخيرًا تفهَّم فرحة الذين يتحسسون أجسادهم بعد النجاة.

صعد الدرج كأنه فارٌّ من مطاردة، لم ينظر خلفه، ولا حوله، واكتشف أنه - وهو يجري في النفق - سلك الاتجاه الأبعد، فخرج على بُعد شارعين من مدخل الكوبري، هدأت دقات قلبه وهو يسير ويبتعد، بينما

يحاول بالمشي الحثيث أن يدفع إحساسه الأسود بأن ما حدث في النفق ليس إلا كابوسًا ثقيلًا، يفتِّش عن أثر لقائه «إسراء»، الذي ذهب إلى زاوية بعيدة من قلبه، بالالتباس الغريب الذي سببته، قرارها المفاجئ، والوعد المضمر في حديثها وعينها، وبينما يمشي «عبد الرحمن» تذكر جوعه، فعرج على مطعم من المطاعم الكثيرة وابتاع شطائر فول ساخنة، جلس على مقهى وطلب شايًا، لكنَّه لم يستطِع أن يتناول الكثير، قام سريعًا متجهًا إلى الكوبري كأنه يفر من أشباح تطارده.

وهو يعبر الأسفلت، رأى شرطي المرور قابعًا في مكانه الأزلي في كشك مفتوح، جالسًا على مقعد وهو يملأ دفتر المخالفات بعينين لا تطرفان، فكَّر «عبد الرحمن»: من الجميل أن البشر لا يحملون أرقامًا كالسيارات!

***

يُعيده هواء النهر إلى طمأنينته، يسير «عبد الرحمن» وهو يغمس عينيه في الماء، يسمع صليلًا كأنه صليل الشعاع الذي يتكسر عليه ثم يتبيَّن مصدره، من الاتجاه المعاكس يأتي ناحيته شابٌّ، يقرع حديد سور الكوبري بعصا صغيرة معدنية ويصيح في المارة: ابتعد عن السور، ابتعد عن السور! يتوقف «عبد الرحمن» حائرًا فيسرع الشاب ناحيته، شاب أكرت، الشعر أسود ولكن الشمس لوَّحته وغيَّرت لونه، أنف نحيف ينبض في شهيق وزفير عنيفين، عينان معذبتان، وجسد مُرتخٍ على الرغم من عصبيته، يحمل وجهه تكشيرة رسمية، وبكلمات حادة أخذ يأمره بالحركة، يدفعه، يستحثه للسير بعيدًا عن سور الكوبري، قائلًا إنه مكلَّف من الحكومة، وإنه يخشى أن يقذف «عبد الرحمن» بنفسه في الماء، ويتوقف المارة ويُسدون النصيحة إلى «عبد الرحمن» وإلى الرجل:

-اتركه في حاله، لا تشتبك معه، سوف يستدعي الشرطة فتجيء وتحبسك.

لكن «عبد الرحمن» في دهشته لا يتحرك، ينظر في عين الرجل بينما يتساءل: هل هذا جنون من نوع جديد؟! ثم سمع المارة يقولون: «موظف الكوبري». فتذكَّر، لا بُدَّ أنه الرجل الذي يمنع الناس من أن يقذفوا أنفسهم. يبتسم له «عبد الرحمن» ليطمئنه فلا يزيد على أن يدفعه، منهمكًا في ذلك العداء الصامت يلاحظ موظف الكوبري، لا بُدَّ أنه لاحظ، لا يبتسم المنتحرون

عادةً، ترتاح ملامح وجهه قليلًا، تذبل حركة ذراعيه تدريجيًا.

-أنا مجرد عابر للجانب الآخر، لا تخَف.

-لا أحد يعبر الكوبري للجانب الآخر على قدميه، كل هؤلاء متسكعون.

-صدِّقني، لن أقفز.

يتذكَّر «عبد الرحمن» بقايا الشطائر في حقيبته، يخرجها ويدفعها إليه: خذ، يرفض موظف الكوبري.

-ليست رشوة، خُذْ، لا تخف! لست منتحرًا يرشوك ليغافلك ويقذف نفسه في الماء، هل يحمل المنتحرون طعامًا إلى الآخرة؟!

يشرح «عبد الرحمن» له، حتى المنتحر يشغله شكل الموت، حرصًا على مستقبله كمنتحر، ربما يشقون بطنه في المشرحة، ستكون مهزلة حينئذ، وقد تتحدث الصحف عن المنتحر المفجوع، ولأبعاد ذهنية أخرى يحرص المنتحر على تجويع نفسه قبل الانتحار، قد يسقط من هذا الارتفاع على بطنه في الماء فينفجر بطنه الممتلئ، لا يمكن التخمين، خاصةً مع تقلب الجسد في الهواء كل مسافة السقوط هذه على أي جانب ستسقط، إنها قطعة نرد معقدة، والماء بتلك السرعة في السقوط وعلى هذا الارتفاع يتلقَّى الأجساد كالحجارة الصلبة فيُستحسن ألا تتلقاه ببطنك، يبحث الناس من فوق الكوبري عن ميتة رومانسية، شعر ملتصق بالجبين وملامح زرقاء شبحية، الأعراض المعتادة لاسفكسيا

الغرق، لا تلك الفضيحة وانفجار الأحشاء.

هل الجوع أم الاقتناع هو الذي جعل موظف الكوبري يتناول بقايا الطعام من «عبد الرحمن»؟! وكأي صديقين، يفتِّش في جيوبه ويناوله حبة من حلوى النعناع، يأخذها «عبد الرحمن»، يلوكها في فمه، ترتخي ملامح موظف الكوبري، يدعوه للجلوس على رأس الكوبري، يندهش «عبد الرحمن» من لهجة دعوته، كأنه يدعوه للجلوس على كنبة فوتيه في بيته أو على مقعد في الجانب الآخر لمكتبه بالعمل.

جلس يتأمل ملامحه وهو يقضم قضمة تلو أخرى، ممعنًا في التفكير: ما الذي جعله يقتنع بهذه المهمة العجيبة؟ بماذا أخبروه: مهمة مقدسة، وظيفة دينية، بواب صارم على الباب غير الشرعي للآخرة؟!

يتنهَّد من الشبع وينفض يده من غبار الدقيق والنخالة، سأله «عبد الرحمن»:

-هل كنت في الطابور؟

يجيب بسرعة بصوت أجش بسبب اللقمة الأخيرة التي تعبر زوره في الوقت ذاته:

-لقد وقفت في طوابير كثيرة.

-أقصد الطابور الأخير.

ويحكي له «عبد الرحمن» من دون أن يطلب منه أن يحكي، يستمع موظف الكوبري من دون أن يقاطعه ثم يسأله متعجبًا:

-إذًا فقد حصلتَ على وظيفة من خلال طابور؟

-نعم.

-لم أسمع عن هذا الطابور.

-مع أن معظم موظفي الحكومة كانوا في الطابور معنا.

-عيب عليهم، يجب ألَّا يزاحموا العاطلين، لكنَّ الحال هكذا دائمًا، كالقرود على الشجرة، هذا يقفز من هنا لهناك فيخلو المكان فيضطرون لتنظيم طابور آخر لتعويض مكانه.. وهكذا.

-وأين العيب في هذا؟ اسمح لي، هذا تحسين معيشة.

أشاح موظف الكوبري بيده وكأن هذه الكلمة تضايقه:

-لا تحدِّثني عن تحسين المعيشة؛ فأنا منذ أتممت دراستي فوق المتوسطة تآكلت نعال خمسة أحذية في قدمي للبحث عن وظيفة حتى عثرت على هذا العمل.

أخذ هو الآخر يحكي.. كانت لديه مواهب وإمكانات بدأ يفقد الإيمان بجدواها رويدًا رويدًا، تبقَّى منها فقط الرغبة الهائلة في خدمة المجتمع من خلف مكتب أو ماكينة، سواء عنده، يحلم بالوظيفة كما تحلم الفتاة بفارسها المنتظر، عانس وظيفيًا، لا أكثر ولا أقل، يعيش مع أب ديوث وظيفيًا لا يفهم من العمل سوى أن يمتلئ جيبُه بالمال آخر النهار حتى لو كان سفاحًا، يسميه كلما رآه جالسًا كما تُسمَّى المومسات «المخروق» فيضيع مع

تسمية أبيه ما تبقَّى له من كرامته المهدرة أصلًا في بحثه المخزي عن عمل.

حياة صعبة، بَختٌ فَبَختٌ فَبَخت.. الوظائف الخاصة كبيوت الفئران، ضيقة ومعقَّدة وتنهار سريعًا، أما المصالح الحكومية فقلاع من العصور الوسطى، لم يحصل على وظيفته تلك إلا بالكثير من الجروح والندوب والطعنات والكوابيس النفسية التي لن تزول ولو بالأحماض الكاوية.

-عندما ذهبت لتسلُّم وظيفتي بدا وكأنني أعبر القنطرة إلى عالم الأحياء.

لكن في المصلحة الحكومية التي وظفوه فيها أخذ ينتقل بورقة تعيينه من مكتب إلى آخر..

وكأنهم نسوا لِماذا طلبوا تعيينه! أعطوه في النهاية وعلى مضض مكانًا، ليس ماكينة ولا مكتبًا، بل أعطوه كرسيًا صغيرًا بلا مسند، وضعوه بجوار مكتب لموظف قديم في صالة واسعة مليئة بمكاتب مثلها، يجلس عليها موظفون قدامى مثل جاره، لا يمتلك من المكتب – بحكم الجيرة لا الوظيفة - إلا مساحة واجب الضيافة، مساحة صغيرة يضع عليها كوعه عند التعب وكوب الشاي عندما يلسع أصابعه، يبرد فيشربه ثم يأخذه بنفسه، يغسله على الحوض من دون أدنى ممانعة من عامل البوفيه، المسافة بين الكرسيين سنتيمترات، كرسي صاحب المكتب والكرسي الخاص به، لكن على الحقيقة تفصل بينهما مسافة أجيال من

البشر الذين خرجوا فوجدوا أنفسهم مؤقتين خارج الحدود الطبيعية للوجود البشري الأقل من الطبيعي، متمسكين بالحافة قبل أن يقرروا اليأس فيسقطوا وتتحطم عظامهم، أجيال زمنية لا تستطيع قوة على الأرض اختصارها إلا قوة الواسطة أو الموت، لعبة الكراسي الموسيقية التي لا تُدق فيها الطبلة إلا بموت أحد الجالسين على المكاتب في صالة العالم ليحل محله أحد المحكوم عليهم بالوقوف الأبدي.

يضحك موظف الكوبري عاليًا فيلفت أنظار المارة، ويقول:

-أعتقد أن هذا هو أطول طابور يمكن أن يقف فيه إنسان، لا بُدَّ أن يموت أحد الواقفين في الطابور لتتقدم أنت خطوة.

يذهب كل يوم مع الموظفين، ينساب كل واحد منهم إلى مكتبه سريعًا عداه، يجلس عاري الصدر والذراعين والساقين من خشب مكتب يؤويه، يأكل ما أعدته له أمه من شطائر، يحتسي شايًا مراتٍ متتالية في مساحة الضيافة الضئيلة. متربصًا، في انتظار الموظف صاحب المكتب أن يركن رأسه على خشب المكتب لينام فيختلس مساحة ضيافته لينام مثله جالسًا، وعلى الرغم من جلوسه بلا عمل فِعليٍّ كان التعب يهده في نهاية اليوم، الأفكار المسممة للبدن، شهور تعرضَتْ فيها روحُه لكل عوامل التعرية، تصحُّرٍ روحيٍّ، وعلى الرغم من معاناته، كان يدرك أنه كان شهر عسل قصيرًا، قصيرًا

وخاليًا من المتعة، مثل عروس قضت شهر عسلها تتزيَّن أمام المرآة بينما يتجمد الجليد فوق ملاءة سريرها، لكنه شهر عسل على أي حال، وذات يوم انتهى.

كأن موظف الكوبري فيما مضى من عمر وظيفته القصير كان رجلًا خفيًا، لم يُبصره صاحب المكتب إلا فجأة صباح ذلك اليوم، صاحب المكتب العجوز الطيب الذي لاحظ - فجأةً أيضًا - المساحة التي يحتلها من مكتبه، وإلا ما معنى تلك الأفعال الغريبة التي بدأ في ممارستها بدأب؟! يزحزح أوراق عمله حتى تمس ذراع موظف الكوبري، أوراقه التي كان يقلِّبها كل فترة من دون عمل جدي كما يُقلب القمح المغسول لينال نصيبه من الشمس، كأنه يخشى على الورق من التعفن، أو طقس استدعاء سحري للزبائن، لاحظ أيضًا بتلك العين الميكروسكوبية التي وهبها الله له فجأة دائرة أثر مكان وضع كوب الشاي على خشب المكتب، الماء الذي غُسل به الكوب ولم يُجفَّف جيدًا فالتقط بعضًا من رحيق السكر عند التحلية، يرسم دائرة باهتة الملامح تصبح كيانًا باهتًا صائدًا للغبار المتطاير في فضاء المكتب، يُخرج الرجل العجوز، بعد بحثٍ يفتعل فيه الصخب، من دُرجِه سكينًا صغيرًا يستعمله في فتح الأظرف، يكحت بطرفه، بحرص شديد، يزيل أثر حواف الدائرة، ببطء أشد، بينما يرتسم الاستياء، يزداد لون الاستياء على جلده دكنة، مثل نوع من الحبر السري، كان يمكنه أن ينظفها بمنديل ورقي مبلل، أو يطلب منه شخصيًا أن

ينظفها، لو فعل لوجد منه كل ترحيب، كأنه يريد تعذيبه، بل ويتعمد إطالة فترة تعذيبه، يبطئ ويبطئ وهو يدفع أوراقه أكثر ليتمكَّن من رؤية كل الدوائر التي خلَّفتها أكواب الشاي خلال أشهر، يتكوَّن – بفعل الإهانة التي يُمعن في غرسه فيها - نتوء عند فك موظف الكوبري، كأنه يريد البكاء ولا يستطيع.

في دورات المياه كان يبكي، وكأنه يقيء، يقول في نفسه لو دخل أحدٌ الآن خلفه وسمع الصوت من خلف باب دورة المياه لظن أنه يقيء. يرتعش جسده بقوة مثل مِرجَل ماء تتصارع فيها حالتا البخار والماء المغلي، حالتا التشبث، وأن يترك الحافة تعبًا ويأسًا بينما تلوح له عينا صاحب المكتب، عينان قررتا إنهاء حيرته مثل قدمين تدوسان على أصابعه تفركانها وتستمتعان بفركها.

توقف موظف الكوبري عن الكلام عند تلك النقطة، نظر «عبد الرحمن» في عينه، لم يرَ دموعًا، لا يغالب دموعًا ولا يعتصرها، بدلًا من ذلك يعترف موظف الكوبري في شجاعة:

-كنت أعرف أنك لن تلقي بنفسك.

-حقًّا؟!

-نعم، لم أعد ساذجًا، أعترف أني في الأيام الأولى التي زاولتُ فيها ذلك العمل الغريب، تورطت في عشرات الأخطاء والاستدعاءات الخاطئة للشرطة، وكان هذا يسبِّب لي نوبات من التفكير الشديد التي تؤلم

رأسي كلما عدت إلى البيت، كيف يبدو المنتحر؟ عابسًا، متسخ الملابس لم يكوِها، حذاء منطفئ لم يلمعه منذ وقت بعيد!

يكتشف بخفوت وعيه، في نهاية كل نهار، أن لا شيء من هذا يمكن أن يشكِّل منطقًا، كل ما يمر به متشابه، تمر الأيام متشابهة، يمر الناس فوق الكوبري من الناحيتين متشابهين، الصنايعية والموظفون والمتشردون، وجوه متشابهة وملابس متشابهة، هموم لا بُدَّ أيضًا متشابهة فتصنع على الوجوه الكدر المتشابه نفسه، يسيرون بسرعة كأنهم يحاولون أن يدوسوا على الظلال التي تُلقيها أحزانهم أمام أعينهم، وعلى الرغم من أنهم أعطوه السُلطة، يستطيع أن يمسك أحد المارة ويذهب به إلى الشرطة: خذوا، كان سيُلقي بنفسه.. فتَّشوا في نواياه، اعرفوا إن كان مجنونًا أم يائسًا، لكنَّه مع الوقت اكتشف أنه لا يمسك إلا أناسًا عاديين محترمين، ريفيين، بعض السائرين الذين لا يملكون ما يدفعونه لسيارة الأجرة، دكاترة جامعة، أرباب بيوت مفلسين، أصحاب مهن مختلفة يعملون في المدينة الجديدة، طلابًا بوقت فراغ كبير يتسكَّعون، أناسًا في حالة انتظار لآخرين.. يصاب بالإرهاق، يأتي جزءٌ من النهار يفقد فيه قناعاته الواهية بمهمته المقدسة، فقط يصبح كل ما يهمه ألَّا يقذف أحدٌ ما نفسه من فوق الكوبري، ليذهبوا في أي داهية بعيدًا عنه، الكباري كثيرة، كما توجد طرق أخرى للانتحار، يرمون أنفسهم

تحت سيارة أو يبتلعون السم على أسِرَّتهم، إن كانوا لا يريدون إلا ضرر أنفسهم فلماذا يلحقون به الضرر أيضًا؟! سيخصمون من مرتبه إذا نجح أحدٌ ما في الانتحار!

يصاب بوسواس بعد كل مرة ينجح فيها أحدٌ بالانتحار، كلما اقترب أحدٌ من السور ونظر في الماء، يجري، يصطدم بالعابرين، ويصرخ: حاااااسب. يمسكه، يسوقه ليبتعد ويعبر الكوبري إلى الناحية الأخرى، بينما تنهمر من فمه التهديدات: لو رأيتك مرة أخرى هنا سأسلِّمك للشرطة ليحبسوك، لا تأتِ هنا مرة أخرى أحسن لك.. لا يمنعه أن يمسكه سوى خوفه أن ينتحر آخر في غيابه، وعندما يأتي ذلك الوقت من النهار الذي يفقد فيه قناعاته بقدسية مهنته ينظر إلى حذائه، ملابسه، يشعر بفراغ بطنه، لو تاه موظف آخر للكباري عن الكوبري الخاص به وجاء إلى هنا ليراقب مثله لربما أمسكه، له نفس صفات المنتحر الذي يبحث عنه، وربما قذف نفسه يومًا ما وانتحر.

-لكني الآن صرتُ أعرفهم، المنتحرون لا يقذفون أنفسهم دفعة واحدة، هم أكثر الناس ترددًا، كأنهم ينتظرون أن يلحق بهم أحد ويُثنيهم.

-إذًا لماذا دفعتني بعيدًا عن السور وأنت تعرف أنني لن ألقي بنفسي؟

ابتسم بخجل وقال:

-في الحقيقة، لا يبدو عليك التعجُّل، وكنت أودُّ أن

أتكلَّم معك، لديَّ دائمًا تلك الرغبة في الكلام، ولو إلى نفسي، وعندما أفكر في أننا لسنا إلا مجرد غبار في هذا العالم، وأحزاننا تافهة، تافهة جدًا، أقول: ما فائدة أن نخفي الحزن عن الناس؟

يمر أسفل الكوبري مركب كبير ذو دورين زاعق الأغاني مليء بالناس، يصبح الصوت أسفل الكوبري بصدى صوت مضاعف، يتذكَّر «عبد الرحمن» الأشجار على الطرق، تصنع صدى الصوت نفسه للسيارات المارة، الطرق، الأنهار، الممرات الكئيبة كابية الضوء في المباني الحكومية والمستشفيات، كلها تتشابه، المختلف هو عذابات البشر المارين عليها وفيها، لكنهم لا يضعون بين الأشجار على الطرق موظفين لمنع الناس من إلقاء أنفسهم تحت السيارات، توجد نسبة للقتل الخطأ على الطرق، عبور خاطئ، سائق نائم، مار غير منتبه، ألقى نفسه أمامي فجأة فلم أستطِع أن أتفاداه، مات مدهوسًا بكل سعادة، ليس أول مرة يُدهس في حياته التعسة، لكنها آخرها، وأسرعها.

ثم لطم موظف الكوبري بباطن كفه حديد السور:

-كان يجب أن أسألك أولًا: هل تود أن تسمع حكايتي؟ فما ذنبك لكي أصدع رأسك بها؟ لا توجد صيغة سؤال كهذه، وبصراحة وبكل صدق لا أعلم لماذا أحكي لك هذا، أنت بالذات؛ فأنت سعيد، حصلت على وظيفة من خلال طابور، ولا يبدو عليك الفضول، وأنا أكثر واحد في هذه المدينة صار يكره الفضول وأسئلة الناس، هل

جرَّبت أن تجيب عن أسئلة مثل: كم تقبض على هذا العمل؟ هل أنت موظف حكومي؟ هل تقف هنا حتى مجيء الليل؟ ولماذا لا ينتحر الناس في الليل مثلًا وأنت غائب؟.. وهكذا.

يبتسم «عبد الرحمن» محاولًا التخفيف عنه:

-أسئلة وجيهة.

-فعلًا، لكنَّ هذه الحياة على العكس من ظاهرها، لا تجعلني قويًا لأتحمَّل حتى الأسئلة الوجيهة، وإذ أتذكر جدي يصيبني الخجل من أنني احتقرت حياته في الريف، البيت والرجل الذي يشبه الديك أو ذكر البط، يدافع عن أنثاه بمنقاره ومخالبه، وعندما أتى أبي بنا إلى هنا قال لي نحن جئنا لنصبح موظفين وأقوياء وذوي حيثية، مخالبك الشرطة، والجيش سور بيتك، لكنْ على العكس، الحياة في المدن لا تجعلنا أقوياء، تصوَّر أنت أن شخصًا يمنع الناس من الموت، أو يشنقهم، أو يقبض أرواحهم، نزل إلى الشارع... ولماذا نذهب بعيدًا في كلامنا؟ منذ يومين فقط وأنا عائد لبيتي كان دماغي يغلي من الحرارة، اشتريتُ لنفسي زجاجة ماء غازية، جرعت الجرعة الأولى وإذا بشاب في نصف حجمي اقترب مني وشخط: هات هذه الزجاجة. فأعطيتُها له على الفور، صاحب البقالة ضحك وشتم الشاب وصرفه، ثم شكرني على حبي للخير، لكنِّي أعلم والبقال يعلم أنه ليس حبًا للخير، لقد أطار الولد لي صوابي بشخطته، ولا بد أن البقال حسبني موظفًا، هذا

ما فعلته بنا الوظيفة يا صديقي.

-المفاهيم تتغيَّر، ملك الموت قد يكون جميلًا ومترددًا مثلًا، لكنَّه مكلَّف بمهمة يؤديها.

-عندك حق، لكنِّي أخاف لو استمر الأمر هكذا أن يأتي شخصٌ في المستقبل ويقول هذه زوجتي وليست زوجتك فأصدقه.

قال «عبد الرحمن» مهونًا عليه:

-لا، لن يحدث هذا أبدًا، لا يمكن أن يحدث

-من قال ذلك؟ فأنا لم أكن أكذب قبل أن أتسلَّم العمل هنا، لكنِّي أكذب الآن ببساطة ويسر.

-الكذب موضوع آخر.

ضحك موظف الكوبري وقال:

- نعم، عندك حق، الكذب موضوع آخر.

ثم قال مبررًا:

-هل تعرف لماذا أكذب؟ لأن الناس فضوليون، وعندما يأتي أحدهم ويضع كل أصابع فضوله في عمق جرحي لا أجد مفرًا من أن أكذب، يقول مثلًا: هل هذا عمل تقبله؟ متوقعًا أن أكشف له عن كل شيء.

-لكنك بطل، نعم، لقد أحبَّني الناس على الرغم من أنهم دهسوني في الطابور، لا تعاند ضعفك، يجب عليك أن تكشف عن جروحك كما يكشف المحارب عن جروح صدره لأعدائه لينظروا كيف نكَّلوا به قبل أن يُجهزوا عليه تمامًا، ليريهم كم احتمل وكم قاتل وكم أصابوه.

نظر موظف الكوبري إلى «عبد الرحمن» متعجبًا:

-لا، لم يمنحني أحدٌ هذا الشرف في حياتي لأمنحه لنفسي أمام الناس، ولو كشفتُ نفسي على الحقيقة فلن أكون أكثر من مومس محترفة تكشف عن عورتها لزبونها من تحت الغطاء، انظر، ها أنا ذا فلا تكن فضوليًا، لستُ رجلًا، لم أكن رجلًا في لحظةٍ من حياتي، حتى عندما أجبروني على مزاولة هذا العمل.

قال «عبد الرحمن» وقد أصابه التشبيه بخيبة أمل:

-هذا في رأسك أنت فقط، ولعل هذا ما يجعلك تكذب عندما يسألونك.

-بالتأكيد، أستطيع أن أعطي لكل مارٍّ بهذا الكوبري حكاية مختلفة عن سبب وقوفي هنا، بعدد المارين على الكوبري أسباب، في السيارات وعلى أقدامهم، أنا مليء بالسخط على نفسي، وشخص مثلي كلما رأى أملًا أو مشهدًا جميلًا، شابًا يقول إنه عثر لنفسه عن عمل عن طريق طابور، أو امرأة فاتنة في سيارة تمر، في الواقع يجب أن أضحك، لكنّي لا أضحك بل أؤلف حكاية.

-إذًا أنت تؤلف لي حكاية الآن!

هز موظف الكوبري كتفيه:

-من يدري؟!

-كيف أتيت إلى هنا إذًا؟

قال موظف الكوبري ممازحًا وهو يشير إلى كشك المتراس:

-عندما طلبوا مني أن آتي إلى هنا جئتُ على الفور، أوقع حضورًا وانصرافًا في دفتر الحراس هناك.

-لا.. لا، أنت لم تفهم قصدي من السؤال، كيف أقنعوك بهذا العمل؟

-لا أريد أن أعطلك عن تسلُّم وظيفتك، الوقت سيتأخر، ربما في المرة المقبلة.

-أريد أن أعرف، كيف قبلت بهذا العمل؟

-أعلم أنك تسأل نفسك هذا السؤال منذ رأيتني، وكرامة للطعام الذي أعطيته لي..

ردَّ عليه «عبد الرحمن» بسرعة متودِّدًا:

-لم يكُن أكثر من طعام زائد.

-سأجيبك على أي حال، في اليوم الذي حرمني فيه صاحب المكتب العجوز من مساحة الضيافة، استدعاني مدير المصلحة، دخلت مطأطئ الرأس خائفًا لدرجة لم تسمح لي برؤية الورقة الوحيدة أمامه، مذكِّرة مرفوعة، دخل في الموضوع مباشرة، استدعاني، لا ليُلقي على سمعي - كما توقعتُ - محاضرةً عن البطالة المقنعة، كتمهيد نفسي، تمهيد لنتوءات بارزة بدأت تظهر في تكويني النفسي، وحُفَر، نعم، كنت مليئًا من الداخل بالحُفَر التي تنتظر الردم، لم يمهِّد للأمر، لم يحاول إقناعي، فقط أخبرني، وتركني لأتولَّى أمر تمهيد نفسي بنفسي، القبول أو العودة للكرسي الشاغر القاتل لكرامتي، قال لي: ستقف على الكوبري الثالث لتمنع المنتحرين من إلقاء أنفسهم.

بعد أن تركت المكتب وعدت للبيت لم أنَم، لساعاتٍ حاولت إقناع نفسي بهذه المهمة/ الوظيفة الغريبة، هل هي مهمة مؤقتة، أم دائمة؟ كيف سأؤديها؟! وفي اليوم التالي استدعاني المدير مرة أخرى وسألني: لماذا لم تذهب؟ فطرحت عليه أسئلتي، ومن ثَمَّ أخذ يلقنني مبادئ العمل الجديد: ستروح وتجيء كأي متنزه عادي، تُبصر نوايا الناس من حركاتهم البطيئة وملامح وجوههم، لا يرمي المنتحر نفسه دفعة واحدة، يتلكأ أو يفتش في جيبه عن رسالة تبرِّر انتحاره ليرميها على الرصيف، إذا شككت في أن هناك أحدًا ينوي أن يلقي بنفسه اتصل بالشرطة، سنعطيك خطًا مباشرًا معهم.

-هل هذه هي الحكاية الحقيقية؟

يسأله «عبد الرحمن» فيضحك موظف الكوبري ولا يرد، ثم يقف فيقف «عبد الرحمن» بدوره، ينفض بيديه مِقعدة سرواله، لا يفعل موظف الكوبري مثله، يدَّخر ذلك لوقت انصرافه الفعلي، يمد «عبد الرحمن» يده ليصافحه قبل أن يمشي، يقول له موظف الكوبري:

- شكرًا للطعام.

فيهتف:

-لا، لا.. لا تشكرني، لم يكُن أكثر من طعام زائد على حاجتي.

تشتبك اليدان، يهزانهما ببطء، ينتظران ذبول الود وذكرى الحزن القريبة التي تشاركاها، يفتِّش «عبد الرحمن» في رأسه في أثناء ذلك عن كلمات مناسبة

للوداع فلا يجد:

-كلما عبرت الكوبري سأمر عليك.

-ستشرفني، المهم ألَّا تلقي بنفسك.

لا يلتفت «عبد الرحمن» وهو يمعن بجسده بين الناس، عندما يتسلَّم وظيفته في حي شرق لن يعود أبدًا إلى بلدته البعيدة من خلال الكوبري، ولو عاد يومًا لن يمر إلا في سيارة، وسيغمض عينيه عندما يرى موظف الكوبري ولن يلقي التحية.

***

الفصل السادس

حبل مشنقة

مع الأيام، عرف «عبد الرحمن» أمرًا جوهريًا خاصًا بحالته، كلما كانت لحظة الاستيقاظ اعتيادية كانت فوضاها على ذاكرته القريبة خافتة، عندما يفتح عينيه يجب أن تكون كل الأشياء في أماكنها المعتادة: المنضدة والملابس، الهاتف القديم المهشَّم، سيستيقظ تمامًا وسيفهم، نعم، يبدو هذا كأزمة في الفهم وليس التذكُّر، لماذا أبدل هاتفه؟! لماذا لم يعد بإمكانه الذهاب للعمل؟! لا بُدَّ من إثبات حالة الوجود الأولى قبل أن يدرك ما الذي تغيَّر.

يستيقظ وهو متلبِّس بحالة العمل القديمة: اللحاق بالفترة الأولى من الصباح، وقبل أن يشتد القيظ لينجز أكبر ما بوسعه في العمل الذي كُلِّف به، يكون «جاسر» قد أفرط في شرب الكحوليات في الساعات الأولى من الليل وغرق في النوم، وجهه وشخيره من التفاصيل التي تجعل الأمر مألوفًا، النوافذ مغلقة والمكان شبه مظلم، يبحث «عبد الرحمن» عن زِرِّ الضوء في مكانه المعتاد فلا يجده، أُبَّهة المكان والملاءات الجديدة تجعله يتعثر بالأسئلة التي تثقل حركته وهو يرتدي ملابسه.

يبدأ التذكُّر بومضة، مشهد أو إحساس تمزَّق إلى مِئَة جزء ولم يتبقَّ منه إلا جزء واحد، قد تكون ابتسامةً في وجهِ عابر، أو جملة قيلت له أو أمامه، يصطاد عقلُه أبعد التفاصيل ليفسِّرها، ليحدد موقعها وزمانها، يمارس معه لعبة خبيثة أشبه بلعب الكبار مع الصغار عندما يقولون لغزًا ويخفون الجائزة، الجائزة هي الذاكرة، واللغز لا

علاقة له بحياته، متى رأى هذا الوجه؟ متى كانت هذه الابتسامة؟

لكنَّ أكثرَ شيءٍ يعيده إلى ذاكرته وصوابه هو رؤية وجهه في المرآة، ملامحه تخبره أن ثَمَّة شيئًا قد تغيَّر، الأنف هو الأنف، والفم والجبين، لكنَّ التجعدات انفردت، وأخذت بشرته طبقتها الاعتيادية من البياض لقلة تعرُّضه للشمس، وهناك دائمًا ثؤلول في جزءٍ ما من جسده، عادةً ما يكون وجهه، الثؤلول إشارة إلى أن وزنه في ازدياد كما تقول زوجته.

يبدأ في استعادة الخيوط الأساسية لما حدث، يتذكَّر الطابور، الدهس، التعويض، الطبيب، الكوبري، المعبر، المتراس، الأوراق، ثم يتبيَّن النهاية المميتة، الأوراق التي أعطتها له «إسراء» لم يكُن فيها ورقة الاستبيان، عندما أوقفه الحراس عند المتراس، وقال الضابط له:

-لا نستطيع أن نسمح لك بالعبور، لقد ألغوا تصريحك.

يعود ليتصفح هاتفه، رسائل وأرقام غريبة، رسائل كثيرة جدًا من «إسراء» و«جاسر»، ورسالة واحدة من المهندس «طارق»: «اثبت يا صديقي، إنها ألعوبة جديدة من (إسرا)». يتصفَّح مفكرته، على عكس ما يجب، بعد أن رفضوا تصريح الانتقال امتلأت أجندة المواعيد بأرقام الهواتف وأسماء محامين وإذاعيين وصحفيين، أنواع المهن التي تجتمع على مأساة متوسطة القيمة، لكنَّها تجلب الكثير من الدموع، واللعنات، كل الأرقام والمواعيد بخط «جاسر» الذي عاد

من بلدته مشمِّرًا عن صوته الرنَّان، مُصرًّا على تنفيذ رؤيته وأخذ الأمر كله على عاتقه، تفرَّغ تمامًا، وبفضل مجهوداته أصبح منع «عبد الرحمن» من العبور لحي شرق خبرًا يتنفسه الناس مع الهواء ثم يسعلونه مع كثيرٍ من الغضب والتعاطف، سافرا للعاصمة عدة مرات للظهور في برامج تليفزيونية، وفي كل مرة كانا يقيمان على حساب القناة في فندق مختلف.

استيقاظ «عبد الرحمن» في هذه الفنادق كان اللحظة الأسوأ في يومٍ سيمتلئ بالفوضى العارمة، التذكُّر يسبب له صدمة تفتح شهيته على الطعام، معظم مطاعم الفنادق كانت في الطابق العلوي، الترتيب نفسه، على اليمين أطباق الخزف البيضاء الفارغة، تليها الجبن والسلطات والخبز واللحوم الباردة والزبادي والمربى، البيض المسلوق وبابا غنوج، وفي صدر المطعم الطباخ بأوانيه اللامعة وابتسامته البيضاء ومغرفة يضع بها الأطعمة الساخنة في الأطباق الممدودة، القهوة واللبن والشاي على اليسار، والمخبوزات الأفرنجية في المنتصف مغطاة بنواقيس زجاجية، يملأ «عبد الرحمن» طبقًا تلو آخر ويأكل، يحذره «جاسر» من أطعمة الطباخ الساخنة:

-نقانق، هوت دوج، أي شيء في هذه الأواني مطبوخة بالخمر ودهن الخنزير.

يقول بينما يدخِّن ويحتسي شراب الشعير قابض الطعم ويحكي لـ«عبد الرحمن» – كإجراء احترازي - ما

حدث وما سيحدث وما ينبغي أن يحدث، وما لم يحدث لماذا لم يحدث:

-الضغط الإعلامي جاء بنتائج مبهرة، عرضوا تسويات كثيرة بديلة عن انتقالك، وظيفة مكتبية جيدة في حي غرب بمرتب مماثل لمرتبات حي شرق، لكنَّنا رفضنا، مرتب دائم «أقل» من دون عمل وحتى سن المعاش ستظل محتفظًا به حتى لو التحقت بعمل آخر، رفضناه أيضًا.

سكت «جاسر» قليلًا ثم تابع:

-وسنرفض أيَّ عرضٍ آخر؛ لأننا نلعب على عروض أفضل بكثير، كلما ثابرنا وحققنا معادلة جيدة بين الصبر والانفعال الإعلامي لحكايتك، حصلنا على عرض أفضل.

-وما العرض الأفضل؟

يدق على المنضدة في حماس وعيناه تلمعان:

-أولًا: يجب أن تدرك قوة موقفك؛ منعُك من الانتقال للعمل أو السكن إلى حي شرق بسبب طبقتك الاجتماعية أو انتمائك الفكري أو ديانتك انتهاكٌ لحقوقك.

-وبعد أن أدرك قوة موقفي؟

-ألَّا تتوقف حتى يعرف العالم كله حكايتك، وبعدها ستطلب اللجوء السياسي لك ولعائلتك إلى بلاد أفضل بكثير من حي شرق...

يقطع «عبد الرحمن» حماس «جاسر» بسكين ثلم،

في كل مرة يقطعه، بسؤال المتألم:

-ولكن، لماذا رفضوا انتقالي؟

يتنهَّد «جاسر»، يتمتم: «لماذا تنسى هذا دائمًا؟»:

-لقد رسبت في الاستبيان يا «عبد الرحمن»، حصلت على أقل من درجتين، وخسرت درجة الصدق الإضافية.

***

بعد الإفطار الثقيل وإن لم تكُن هناك برامج صباحية، ينزل «عبد الرحمن» إلى غرفته، يتجه «جاسر» إلى غرفة التدخين أو الشرفة لتناول المشروبات والتعرُّف إلى المقيمين والمقيمات، يغلق الباب خلفه، يجلس أو يرقد، ويأخذ في تصفح هاتفه وأوراق مفكرته بشغف لذيذ، مستكشفًا المنحنيات التي مرَّت بها علاقته بـ«إسراء»، الرسائل والمواعيد، الهمسات والضحكات، الكلمات والإيماءات، إشارات يدها الرقيقة عند عنقها، وطريقتها في ابتلاع ريقها، ونظرتها إليه عندما تجامله.

يتحادثان بالهاتف يوميًا، وإذا تمكَّنا من اللقاء يتناولان الغداء في مطعم السمك، يعيدان طقوس لقائهما الأول، لكنَّهما لا يخرجان للسير لكي لا يلفتا الأنظار، يتحدثان، ليس عن «إسرا»، ليس عن زوجها، ليس عن حي شرق أو حي غرب، ليس عن الزواج أو الانتقال، لكنَّهما مع ذلك يصبحان أفضل.

عندما يعود ينام فوزًا ليقبض على الذكرى في قلبه، وفي الصباح التالي إذ يستيقظ يعرف أن للذاكرة التي تدهورت فائدة أخرى غير نسيان التفاصيل الصغيرة،

يستيقظ بشعور مسبق، خافت للغاية، لون قميص أزرق وسروال أبيض، وغمازات تكشِّر وتضحك، وطريقة في السير تجعل القلب يلهث، تزيد البهجة مع التذكُّر، ثم تصبح السعادة مكتملة، طازجة، وقد لفحتها حرارة القلب فصارت قابلة للتناول من جديد.

يتصل بزوجته، يكون صوتها ناعسًا في الهاتف، قريبًا جدًا كالسماء عندما تمطر، به رنَّة معدنية محببة، دائمًا ما تنام بعد أن تُلبس «طه» ملابس المدرسة وتعد له شطائره ثم تودعه إلى مدرسته، وهي تنطق باسمه يراها تتقلَّب، يرى ساقها وقد خرج جزءٌ منها من أسفل الغطاء، شعرها المهوش، ويشم رائحة جلدها الخميرية من عرق الليل، ويشتاق إليها، يشتاق إلى أن يضيف إلى هذا العجين الأنثوي الشكري طعمًا لاذعًا، أن يجعله يفور فيدك فورانه لينزع منه هواءه وتردده، لقبلات الصباح طعم التين المقطوف لتوِّه من الشجر، وبدلًا من أن يتلمَّظ الرغبة يتدارك الأمر ويبتلع ريقه ويسألها عن «طه» ودراسته، يسألها عن إخوته، وزوجات إخوته، يخوض بها حديثًا مطولًا تزول فيه البحة المعدنية ويستعيد صوتُها ليونتَه، وتصبح امرأة عادية، لا خطر منها، يسألها عن أشياء أخرى كثيرة لا يتذكرها، تمهيدًا لسؤالها عن قميص النوم الأزرق القديم: هل لا يزال موجودًا هذا القميص؟ تقول: نعم.. وتبتهج، ويشعر أنه يخونها.

يغرق في النعاس وفي الذكرى، ملتذًّا، حتى يفتح

«جاسر» الباب ويصيح:

-صح النوم يا بطل، لدينا لقاء تليفزيوني بعد قليل.

***

في السيارة المكيفة، يعيد «جاسر» ترتيب أولوياتهما في حديثهما بالبرنامج، الإشارة إلى كتيبة من المحامين على استعداد لرفع قضية، لكنهما يسعيان إلى التسوية، التركيز على ما فقده «عبد الرحمن»، اليد التي ترتعد، مهنته كلحَّام وضياع لقمة العيش بسبب إصابته، وتلميح بوجود عرض مُغرٍ من إحدى الدول الأجنبية بطلب اللجوء السياسي..

-لا بُدَّ أن تتكلم عن الطابور، نعم، لا تنسَ، ذكِّر الناس بما حدث، الناس ينسون بسرعة...

يقاطعه «عبد الرحمن»:

-ولماذا لا نرفع قضية؟

-لأن المحامين يقولون إن فرصتنا ضعيفة، وأقصى أمل هو الحصول على تعويض مادي أو فرصة توظيف من الدرجة الثالثة.

-وما فائدة الاستمرار في طلب التسوية؟

-نريد أن نُخرجهم من جُحورهم، مثلًا عن طريق اتصال على الهواء أو المطالبة بمناظرة علنية بيننا وبين أحد موظفي الانتقال في حي شرق، نستدرجهم ونحصل على تصريح موثَّق منه واعتراف بأنهم ألزموا أنفسهم بتعويضك.

-والتسعة عشر شابًا، أين هم؟ أليسوا شهودًا معتبرين؟

-ببساطة يرفضون الكلام، يائسون، أو تمت رشوتهم، يرفضون الظهور، أنت وحدك يا صديقي.

في رسائل المهندس «طارق» التي حذفها «عبد الرحمن» ولم تبقَ منها إلا رسالة واحدة، يتبدَّى إيمانه العظيم بـ«إسرا»، على الرغم من كراهيته له: ألَّا يُمسَّ بكلمة، لا تشتبك مع «إسرا»، ليس هو عدوك، عدوك الحكومة ورجال الحكومة، اجعل «إسرا» طوق نجاتك الأخير، ثِق به وسيعوِّضك، لقد وقَّع على انتقالك، لكنَّ الاستبيان رفضك، رجال الحكومة هم الذين ملؤوا الاستبيان بالعلامات الحمراء، فأنت عندهم متعصب مجنون مجرم حتى لو دهسك الناس في طابور وأهانوك، لا تحكِ لـ«جاسر» عن «إسرا»، هذا الفتى يريد أن يستفيد من الموقف ولو بخردلة.

«جاسر» وسيم أمام الكاميرا، لا يهتز، مناضل حقيقي، لكن «عبد الرحمن» لم يعتَد على الضوء المبهر بعدُ، تدمع عيناه، وربما يتعمَّد المصوِّر أن يسلِّط الضوء على عينيه لتدمعا، ليصبح ضحية مكتملة الأركان.

يمهِّد «جاسر» لثورة شعبية، يتحدث عن حي شرق:

-لا يوجد مَن يناقِش في أن «عبد الرحمن» يمتلك حق انتقال حقيقيًا، ونحن جميعًا متعاطفون معه، لكنْ ماذا بعد التعاطف؟! الحكومة ترفض انتقاله على الرغم من أنهم مجرد موظفي تنفيذ، إن كانت تنقصهم

الشجاعة لنجعل انتقاله استفتاءً شعبيًا، أو مسيرة حاشدة، ونعبر به الكوبري ونضعه هناك قسرًا، الانتقال إلى هناك حق لكل مواطن.

يسأله مقدم البرنامج:

-ولماذا لا تقبلون بالتسوية؟

-لأن حكومة حي شرق تناقض نفسها، أما نحن فلا، إنهم يطلبون مواطنًا عزيز النفس لا يقبل بالمهانة، بينما يُخضعون الناس بالتسويات والذل.

تعيدهما السيارة إلى الفندق، يحملان الحقائب، ويسلمان مفاتيح الغرفتين، وينطلقان إلى السكن. خلال الطريق، لا يفتر «جاسر» عن التحدث في هاتفه مرتِّبًا أمر الإقامة للرحلة التالية:

-يجب أن تكون سيارة خاصة ومكيفة، وبما أنك لا تريدني أن أرشح لك أسماء فنادق، حسنًا، نعم، يجب أن يطل على النهر، ليس أقل من أربع نجوم، وألَّا تكون النجمة الناقصة في تقديم الكحوليات والخمور، نحن فلاحون صحيح لكننا نشرب، الإفطار على حساب الفندق، وكذلك المشروبات.

ترى «إسراء» أن الطريقة التي يتعامل بها «جاسر» مع الموقف طفولية، وأن المواقف لا تُحل بالثورات والكلمات العنترية، بل تعقُّدها، تقول لـ«عبد الرحمن» في قلق شديد:

-عليك أن تقبل بالتسوية وتستمر في حياتك قبل أن يتعقد الموقف.

يدرك «عبد الرحمن» أن «إسراء» بدأت تكره الطريقة التي يظهر بها على الشاشات، تكره ضعفه، هو أيضًا بدأ يكرهه، خاصةً تلك الفقرة شبه الثابتة، عندما يسألونه عن بعض ما حدث معه بعد الدهس، يفتح المفكرة الورقية التي لا تفارقه على التاريخ ويبدأ في الحديث، يتكلم بحذر، متفاديًا ألغام الأمور التي يجب ألَّا يذكرها، حولها دوائر بالحبر الأحمر للتنبيه، كلمة «إسرا» مطموسة تمامًا بالأحمر، هذا يسبِّب له نوعًا من الالتياث والتهتهة، يبدو أمام الكاميرا والمذيع الواثق إنسانًا جديرًا بالشفقة، بعد انتهاء التسجيل يتفادى أن يشاهد الإعادة لكي لا يكره نفسه أكثر، لكنَّه يعلم أن بعض اللقطات يتم تبطيئها وكتابة بيانات عن طبيعة مرضه على الشاشة وتُبث موسيقى حزينة.

***

يتملَّك «عبد الرحمن» شعورٌ قويٌّ في وسط هذا كله، أقرب للإلهام، الأمور تسير في الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه وإن كانت الطريقة لا تعجبه، تحمله الأحداث كما يحمل رجلٌ قويٌّ ولدًا صغيرًا خائفًا، يقفز به في نهر واسع، من فوق الجنادل، في الظلام الموحش، يضحك في الوجوه المفزعة، حتى إذا أوصله إلى بر الأمان أنزله من فوق كتفه ليرى المكان الذي وصل إليه، ولن يخلو المكان الأخير من «إسراء».. هكذا كان يقينه.

بعد أن يصل إلى السكن يتصل بـ«إسراء»، يرتب لقاءً، سيكون كل شيء على ما يرام إن لم يتكلما عن

المستقبل، وإن كان الحديث حتميًا يشرد «عبد الرحمن»، يفكر كم أن المدينة لا تكون بهذا السوء الذي نظنه إلا عندما يفكران في حي شرق، الرائحة والجو يعطيان انطباعًا بأول الحكاية عندما كان الجميع سُعَداء، كان هو سعيدًا بالفرصة التي هبطت من السماء وكانت هي سعيدة بالرجل الذي سيبيع لها فرصته.

لكن «إسراء» مختلفة هذه المرة، تخفي النظرات، وعندما تضطر للنظر تجاهه ترمي بنظراتها بعيدًا من فوق كتفه، يسألها:

-ماذا بك؟

ينكشف لثام المخبوء في نظراتها بمجرد السؤال، فتطرق برأسها:

-قاموا بفصلي من العمل يا «عبد الرحمن»، آخر يوم في الشهر سيكون آخر يوم لي في المكتب.

صاح «عبد الرحمن»:

-لماذا؟

-يقولون لأنني أعطيتك الورق مختومًا من دون إذن مديري في العمل، لكنَّها ليست الحقيقة.

-ما الحقيقة إذًا؟

-الحقيقة أن الزملاء عندما يقتربون من خمس سنوات خدمة يتم فصلهم بسبب ومن دون سبب، لا أحد أتم المدة لنهايتها بحيث يستحق الانتقال، كل هذا كان يحدث أمام عينيَّ طول الوقت، لكني لم أرغب في

رؤيته.

الغريب أنها لم تكُن حزينة، بل مندهشة، وارتدَّت دهشتها بداخل «عبد الرحمن» فخلقت إحساسًا عجيبًا: ما الذي يحدث للعالم؟ هل ينهار فوقنا، أم أننا نخرج من تحت أنقاضه؟! قال مخذولًا:

-وهل اتصلتِ بـ«إسرا»، لا بُدَّ أنه...

-«إسرا» هو الذي وقَّع على ورقة الفصل.

تنهَّد «عبد الرحمن» وكأنه يقول «لا غرابة»:

-وما الذي ستفعلينه الآن؟

-لا أعرف، لم أخبر زوجي، والمال المدخر لدينا قد يكفينا لعام، خطتي البسيطة تقول إنني سأخرج كل يوم في هذا العام في ميعاد العمل وأعود في ميعاد العودة، وأستغل هذا الوقت في البحث عن عمل آخر.

-ولماذا لا تخبرينه؟

أفلتت منها نظرة كأنها تلومه، وسألته:

-هل تنصحني بهذا حقًّا؟ الأمر برمته جنوني؛ لهذا فلا أستطيع أن أتخذ قرارًا سليمًا.

ثم ثبَّتت نظراتها إليه كأنها تتضرع:

-هل تنصحني فعلًا أن أخبره؟

-يجب أن تتشاركا المشكلة باعتباره زوجك.

كررت بدهشة:

-باعتباره زوجي؟!

ثم سألته:

-هل تفعل هذا أنت؟ أقصد: أنت عاطل الآن، مثلي، هل تتشارك المشكلة مع زوجتك؟

-لا.

-لماذا؟

-لأنني الرجل، أتحمل المسؤولية كاملة.

-تمام، أنا أيضًا أتحمل المسؤولية كاملة، لكنَّنا نختلف عنكم حقًّا، هل فكرت في طلاق زوجتك؟ لا، طبعًا. عندما يفقد الرجل عمله لا يفكر في الانفصال، وهو ما أفكِّر فيه الآن بجدية.

-يمكنكما أن تبدآ من جديد، تضعا القواعد، هو الرجل، عليه أن يتحمَّل المسؤولية، أن يخرج للبحث عن عمل...

قاطعته في ضيق:

-لا تحكِ لي عن أساطير.

قالت وتشاغلت بتقليب الثلج بالماصة في كوب الليمون، محاولة تخفيف ضيقها وتبريد حدة نظراتها بإمعان النظر في مكعبات الثلج، بينما «عبد الرحمن» منشغل بكُلِّيَّته في مراقبتها، كانت جميلة كصورة زيتية، كل لون في مكانه العبقري، كل صوت يصدر منها، وسوسة حُليِّها، خشخشة الثلج وهو يتقلَّب، انسحاب العصير في الماصة إذ تلقمها جزءًا من فمها، تنهيدة خافتة، كل صوت يضع جملة في حكاية لا يمل «عبد الرحمن» من تخيُّلِها، تأخذ عيناه جزءًا من ملامحها في رقصة خيالية فوق السحاب، وتعودان لتصطحبا ملمحًا

آخر، لتنسجا حكايةَ حياةٍ لن تكتمل، لا الآن ولا فيما بعد، لم يتبقَّ إلا عيناها اللتان رفعتهما إلى «عبد الرحمن» لتدرك كم هو محب، كم هو مسكين بحبها، وكم هو يائس ومتورط ولا يريد النجاة، فعضَّتها الرغبةُ السيئة المعتادة لمعشوقة أن تعطيه أي شيء: لمسة يد، تربيتة على وجهه، قبلة على أصابعها، لتزيد حريقه اشتعالًا، لتحتفظ بتأججه، لكنها لم ترغب، عادت لتقليب الثلج في كوب الليمون، بلا رغبة حتى في أن تُحدث كلامًا آخر حتى نهاية اللقاء.

على باب المطعم، كان الربيع ينتظرهما، هبَّة ساخنة مرَّت بشجرة فل، وأحاسيس مباغتة نفذت إلى ما تحت إبط «عبد الرحمن» مباشرةً، نفذت بلا ألم، مثل قرصة، لكنها مثيرة للبهجة والشجن، عاصفة من الألوان والذكريات. والغريب أن «إسراء» لم تكن بعيدة عن ذكرياته، بل بدا له وجهها مألوفًا، راسخًا، وكأنه أحبها في حياة سابقة، عندما كانت بإمكان الكلمات أن تأخذ وضعها الطبيعي والحقيقي في القلوب، بلا شرح ولا دليل، وعاش معها حياة مليئة بالقش والحصاد والمطر والقبلات المشتاقة.. وببساطة، كان يحفظ كل تفاصيلها، أين ينتهي النمش في عنقها، ومتى تغضب، وكيف تبتسم.. تاريخ كامل كان بحوزته عنهما، ومنذ الطابور – بل منذ فُطم عن أمه - لم يعِش لحظةً أجمل من هذه اللحظة، وكان يود أن تستمر، لكنه يعلم بغريزته أنها لو استمرت لفسدت، لو أمعن فيها لنفذ الى الفراغ والعدم،

نظر الى «إسراء» وابتسم، وابتسمت هي أيضًا بطريقة خلبت لُبَّه، تصافحا، وافترقا على الرصيف كأي غريبين.

***

عرف «جاسر» الخبر في مساء اليوم التالي، اتصل به أحد معدي البرامج الحوارية واتفق معه لاستغلاله قبل أن ينتشر، في العادة خبر كهذا كان سيسبب له غصة وشجنًا، ما يجعل الشرب مستساغًا، لكنْ لم يكُن بمقدوره أن يشرب، أو يسهر، بل نام مبكرًا جدًّا واستيقظ برأس مصدع، ارتدى ملابسه ونزل ليشتري الجرائد، لم يتصدر الخبر الصفحة الأولى، انزوى في صفحة الحوادث، بوصف سريع، وصور أرشيفية، حبل مشنقة وجسد مسجى تحت ملاءة بيضاء، وعنوان اعتيادي يجذب جمهورًا متوسطًا لأن يقرأ: «الأب العاطل يقتل ابنه وزوجته خنقًا وينتحر».

حرص «جاسر» على ألَّا يوقظ «عبد الرحمن»، تركه يوغل في نومه، فكلما نال قسطه من النوم سيكون أقدر على تحمُّل الصدمة، استيقظ «عبد الرحمن» واغتسل وتناول إفطاره، وتشاغل «جاسر» بالتحدث في هاتفه بالشرفة، الجرائد على منضدة الأكل الصغيرة، كل جريدة تحتوي على لغم يمكن أن ينسف صباح «عبد الرحمن» بلا هوادة، لكنْ بينما يتناول إفطاره لا يدفعه الفضول للتصفُّح، لا يلفت انتباهه حتى عناوين الصفحة الأولى، عاد «جاسر» من الشرفة فأخذ الجرائد، دخل غرفته وأغلق عليها دولاب ملابسه.

بعد دقائق، خرج إلى الصالة وصاح:

- تجهَّز يا بطل، عندنا لقاء الآن على الهواء.

قال «جاسر» الجملة بنفس مقادير الحماس والبهجة،

لكنَّ اللهجة مختلفة، ولأن «عبد الرحمن» يعرف أن مشاعر صديقه لا تخلو من مدٍّ وجزْر فلم يأبه.

بعد ربع ساعة، وصلت سيارة القناة، ارتديا ملابسهما على عجل، في أثناء نزولهما التقت عينا «جاسر» عينيه، وأدرك «عبد الرحمن» أنه يُخفي سرًّا.

***

تخللت الإعلانات الفقرات الأولى للبرنامج، قام المذيع خلالها بالترحيب بهما وتقديمهما، وبعد الأسئلة الاعتيادية جاءت الفقرة الحاسمة، سأل مقدم البرنامج «عبد الرحمن»:

-هل تعرف موظفة في مكتب الانتقال اسمها إسراء ناظم؟

للوهلة الأولى فوجئ «عبد الرحمن» بالسؤال، اعتقادًا أن هناك من سرَّب أخبارًا عن علاقته بها، لكنَّه عاد فاطمأنَّ، السبب أن «جاسر» يراجع محتوى الأسئلة مع معد البرنامج ولا يمكن أن يتورَّط في شيء يشينه، قال «عبد الرحمن»:

-نعم، أعرفها.

-ما الذي تعرفه عنها؟

أخذ «عبد الرحمن» يصفها بصفات لا تضرها ولا تشي بحبه لها: الموظفة النشيطة، السيدة الطيبة.. لم يذكر تفاصيل كثيرة، وليبعد الشبهة ذكر موضوع الصور التي نسي إحضارها معه عند تقديم أوراقه واتصالها به ولقائهما، كذريعة لو كان في السؤال ما يشير إلى علاقة بينهما، رتَّب كذبته جيدًا، وفي أثناء ذلك تلوَّن وجهه عدة مرات بألوان مختلفة؛ لأنه لم يكُن كاذبًا جيدًا، وعند ذكر «إسراء» أو الإشارة إليها يفلت قلبه من قبضة الشعور ويصبح أشبه بشعاع الشمس المولود في صباح شتائي مليء بالضباب.. في أثناء حديثهما تتابعت تترات القناة مسجلة الحادثة: مقتل موظفة مكتب

الانتقال إسراء ناظم على يد زوجها، مع بعض الصور الحقيقية التي تمكَّن مصوِّر القناة من التقاطها قبل نقل الجثث الثلاثة إلى المشرحة:

سأل المذيع «عبد الرحمن» بلهجة اعتيادية تمامًا:

-ما تعليقك على الحادث؟ وهل تعتقد أن له علاقة بمنع انتقالك إلى حي شرق؟

-أي حادث؟

-مقتلها، الموظفة، السيدة إسراء ناظم!

أفلتت من فم «عبد الرحمن» ضحكة قصيرة مذهولة، هيستيرية تمامًا، أشبه بصرخة، وكأن مصراع نافذة انغلق على جناح طائر، وتململ في مقعده، وبدا عليه جليًا أنه همَّ بالانصراف، لكنَّه تذكر أنه في استوديو، وأنه في برنامج على الهواء، وما بين فجيعته ورغبته في إخفائها تذكَّر موظف الكوبري وهو يقول له: «لكني أخاف لو استمر الأمر هنا أن يأتي شخص في المستقبل ويقول هذه زوجتي وليست زوجتك فأصدقه». كان الحوار الذي خاضه مع مقدم البرنامج غبيًا، مليئًا بالفقرات الصامتة والدهشة والنظرات المتبادَلة بين «جاسر» و«عبد الرحمن»، (صحيح! ماذا تقول؟ هل تمزح؟ متى؟ لا بُدَّ أنك تمزح! هل قتلها حقًّا؟! وانتحر أيضًا!).. في أثناء الحوار الدائر أحس «عبد الرحمن» بتنميل غريب في مؤخرة رأسه، يزحف على أذنيه فيصمهما، وعلى لسانه فيعقده كليًا، وعلى رؤيته فيجعلها تزيغ، في النهاية صار عاجزًا عن الكلام وعن

السماع.

في هذا السكون الأسود، حاول السيطرة على مظاهر حزنه، كان هذا أكبر مكاسبه التي ظل متمسكًا بها، لكنّ ليس للنهاية. ببطءٍ وضع «عبد الرحمن» يده على فمه ورفع رأسه عاليًا ليمنع دموعه من الظهور، على وعيٍ أنه يهدي إليهم انهياره بلا ثمن، ولا حتى التعاطف، لكنَّ الصراع بين جَيَشان قلبه ورغبته في الخروج بأقل الخسائر ظلَّ مؤلمًا، غشاء الدموع أخذ يتخثَّر تدريجيًا، يزداد سُمكه، يرى صورة نقية لسقف الاستوديو واللمبات المضيئة، حتى أعشاش عناكب «أبو شبت» وفضلات الذباب، بمفعول عينيه الجديدتين، بالدموع التي صنعت عدسة مقعرة، وبدأت تتجمَّع على جانب واحد من عينيه وتنفصل وتسقط، يسأله المذيع و«جاسر» ماذا به، لكنَّه لا يجيب، سيتمزَّق قلبه إن لم يبكِ الآن حالًا، أن تمنع عينًا من البكاء أشبه بجذب قطار مندفع إلى الخلف، فقط بأسنانك.

***

فيما بعدُ ستُقص لقطة فجيعة «عبد الرحمن» ويتم تداولها آلاف المرات تحت عناوين مختلفة، لا تخلو من اسمه، بعد ذلك بكثير، بعد أن تنتهي الحكاية ونقلب الصفحات الأخيرة لن يصبح لذكر «عبد الرحمن» معنى، سينساه الناس وينسون ما كان يمثِّله، ستصبح لقطة عادية عن فجيعة رجلٍ تلقَّى خبر موتِ حبيبته على الهواء، لقطة مناسبة لموسيقى الكمان الحزينة وخطب الوعظ، لاحقًا سيجد أحدهم أن لفظ الحبيبة لا يليق، يستبدل بها ابنته، أو أمه، أو أباه، وعندما تفقد الأسبابُ معناها ستصبح لحظة بكاء عادية، لحظة إنسانية تمامًا، بلا أسباب، مهداة لمن يريدون البكاء لأسبابهم الخاصة.

لقطة قصيرة لا تتجاوز نصف دقيقة، يظهر فيها «عبد الرحمن» وهو يرفع رأسه، تقترب الكاميرا أكثر، يتنهَّد ويزفر، ثم يشهق، وفي محاولته لمنع البكاء يتحوَّل وجهه إلى كتلة من الإفرازات التي يفقد السيطرة عليها تدريجيًا، ثم ينهار وجهه كسدٍّ وجسده كبناء ضعيف، ينحني ويغلق ذراعيه على وجهه، وينخرط في النشيج، بينما المذيع يرسم تعبيرًا حزينًا جاهزًا، و«جاسر» معقود الحاجبين يتأمَّل رفيق سكنه، بلا مشاعر تقريبًا، بنوعٍ من التصميم، وكأنَّه كان يتوقَّع كلَّ هذا، يخدع نفسه بأنه توقَّع كلَّ هذا، والخسائر التي ستنتج عنه كلها مقبولة عنده.

لكنَّ الحقيقة أن «جاسر» لم يتوقَّع، بذيله الذي لم يخلُ يومًا من بصبصة، وقلبه الذي صار داعرًا من كثرة

ما مرَّرَ به من نساء، لم يلاحظ أن «عبد الرحمن» عاشق، وأن فجيعته ستصل إلى الحد الذي لن يستطيع أن يقيم معه حوارًا فيه جملة واحدة، معتزلًا إياه في غرفته، حتى في خروجه أحيانًا ليفرغ مثانته، مثل شبح، يسمع «جاسر» خرير البول، فيخرج من غرفته مسرعًا وينتظره في الصالة، يمر به «عبد الرحمن» كأنه لا يراه، جاف الوجه شاحب الملامح وكأنه غمس وجهه في الماضي، وكأنه يلوك يوميًا وجبة سيئة الهضم من أفكار قديمة، أفكار لم يستعملها حتى فات تاريخ صلاحيتها ففتحها وأخذ يلوكها، ليسمم أعصابه، وليصل إلى الجنون.

أحيانًا كان «جاسر» يسمع رنة هاتف «عبد الرحمن»، ثم ينقطع الصوت ويسمع صوته الخافت المتعب وهو يرد على المتصل: «نعم، أنا بخير، جيد، صدقني». مرة بعد مرة يقول ذلك حتى احتاج إلى أن يثبت ذلك لنفسه فنزل إلى الشارع، سار حتى آلمته ساقاه، وانخرط في الزحام وضغط جسده حتى تفككت الأزرار العلوية لقميصه، ولم تمنع كل هذه العصبية والجمود حادثة فردية فضحت تهافُت قلبه، فبينما هو سائر ربت مارٌّ على كتفه فاندفع يبكي.

في طريق عودته، اشترى الجرائد التي أوصى بها عند نزوله، الجرائد التي ذكرت الحادثة باستفاضة وبإيجاز، دفع مبلغًا مضاعفًا ليحصل عليها، ليعيد تجميع الصورة، كيف خنق الزوج المجنون زوجته من الأمام وهو ينظر

إلى وجهها، بعد انصراف فتاها الصغير في باص المدرسة، مرتدية ملابس خروجها، دهمها وأطبق بكفيه على أنفها وفمها ورأسها من الخلف، منع هواء التنفُّس من الدخول، ونظر إلى عينيها يراقب بتصميم كيف تتبدَّل النظرة من الدهشة إلى اليقين إلى الغضب إلى الاستعطاف إلى الذبول، ثم تسقط شجرة النظرات التي كانت مقدرة لها في الأبد الأصم، كسر اللؤلؤتين الساحرتين اللتين طالما سحرتاه وحوَّلهما إلى زجاج معتم، سجَّاها وغطَّاها كما يُغطَّى النائم، أغلق النوافذ وأطفأ الإضاءة وجلس في الظلام، منتظرًا عودة الطفل، ما بين مقتل الأم وابنها أربع ساعات، وبالطريقة نفسها: الخنق، لكنْ من الخلف هذه المرة، تربَّص الأب بطفله في جانب وعندما دخل هجم وخنقه، مانعًا إياه من أن يستدير فيرى وجه قاتله، لكي لا يسيء الظن بأبيه في آخر لحظات حياته، ثم بحث عن طريقة مناسبة ليقتل نفسه: سلك كهرباء يلفه حول عنقه من دون أن ينقطع في اللحظة الحاسمة، سلسلة النجفة.. لا، لا شيء يصلح، اضطر لاختراع طريقة، نبش بالمثقاب الكهربائي فوق عارضة باب غرفة النوم وقام بتمرير ستارة من القماش ضفَّرها عدة ضفيرات حتى تتحمل ثقله، من ذا الذي ينخرط في عمل يدوي كهذا قبل انتحاره إلا إذا كانت أشد الأفكار جنونًا تدور برأسه؟ كأنه يريد أن يموت بلا دم ولا قيء، بلا أثر، من دون أن يهشِّم جسده، بلا تنكيل، عندما ربط العقدة جعلها قريبة جدًا من سقف

العارضة لكي لا تلمس قدماه الأرض عنما يقفز فتفشل العملية، لكنَّ حساباته كانت خاطئة، وهو يختنق كان بين أصابع قدميه والأرض أكثر من ٢٠ سنتيمترًا، وبسبب طريقته في التعليق تخبَّط كثيرًا بعارضة الباب ونتجت عن ذلك سحجات وكدمات في أعلى رأسه، ميتة سيئة، وعلى الأرض كتب خطابًا فيه عبارة واحدة:

- لنفترق الآن أفضل.

قتلهما خوفًا من فراق لن يحدث، لم يكن يعلم أن زوجته فُصلت.

***

الفصل السابع
المكمورة

نفثة من بخاخ مبيد حشري أو معطِّر جو أفزعت «عبد الرحمن» وأيقظته، وجد نفسه نائمًا على كنبة في ممر، الكنبة من النوع الجلدي الفاخر، جلد أبيض، حقيبته إلى الجوار، انتفاخها والزوايا التي تظهر منها توحي بأن بها كل ملابسه وأشيائه، مفتوحة جزئيًا ومدسوس فيها مفكرته والقلم.

ممر وليس غرفة، السقف عالٍ، ما من نوافذ، لكنَّه يعلم أن الممر بالدور الأرضي من مبنى كبير، الوقت ليل، الإضاءة خافتة، وهذا يعني أنه بعد منتصف الليل، يعلم هذا من دون أن يعلم كيف يعلمه، وهذا يعني أنه هنا منذ وقت طويل، ينام ويستيقظ في المكان نفسه، لكنَّه بدأ يعتاد على الألم الذي ينشأ من النوم الموميائي، على جانب واحد وفي مساحة صغيرة، لا يتقلَّب، على كتفيه غطاء أحمر بمستطيلات خضراء، يشعر تجاه لونه ورائحته بالألفة ولا يعلم إن كانت الألفة تدل على امتنانٍ أم تعوُّد.

عندما اعتدل جالسًا رأى أمامه صالة واسعة في نهاية الممر، كنبة تشبه الكنبة التي يجلس عليها، أمامها منضدة، بابًا زجاجيًا يجلس خلفه حارسٌ على مقعد خشبي صغير، يبدو الحارس صغيرًا إلى جوار نجفة السقف الهائلة التي تضوي كريستالاتها مع أقل تغيُّر للضوء. يعرف «عبد الرحمن» عدد هذه الكريستالات، تزيد أو تنقص واحدة؛ لأنه جلس قبالتها وقتًا طويلًا، ولا يوجد الكثير من الأشياء التي يمكن أن يفعلها في

مساحة صغيرة غير أن يتعذَّب بحركة الناس، ويراقب الشكل الذي يتخذه ضوء الشمس الساقط من الباب الرئيسي، متغيِّرًا خلال النهار، حثيثًا من دقيقة لأخرى، وغير عدٍّ الأشياء: عدد الكريستالات في النجفة الرئيسية، المربعات على قميص زبون يجلس بجانبه، عدد قَرصات البعوض على وجه الحارس، الخطوط الطولية في السجادة أمام السلم الداخلي، نقاط الإضاءة بالسقف.

التقط مفكرته، وعلى الضوء الخافت أخذ يتصفحها: لقاء المطعم، فصل «إسراء» من العمل، تريد أن تطلق زوجها. بالصفحات التالية عبارات كثيرة مشطوبٌ عليها، عبارات تدلُّ على الحيرة والموت والفقد والسخط والكراهية، اعتصرت الفجيعة قلبه عندما وجد هذه العبارات مشطوبًا عليها، ثم تذكَّر أنَّه هو من شطبها، ربما لينسى، على الرغم من أن نسيانها متعذِّر، مكتوب في الصفحة الجديدة: أسعى إلى مقابلة «إسرا»، يرفض، باقٍ في الفندق حتى يقابلني.

إذًا فـ«عبد الرحمن» في الفندق الأبيض الشهير.

عندئذ، يرتسم في خيال «عبد الرحمن» حاجز من الرخام الفاخر بالجزء الذي لا يظهر من خلال الممر، خلفه موظف الاستقبال، يتذكَّر وجه الموظف الليلي، يمتاز عن الموظف النهاري بامتلاء محبب في وجهه ولهجة فخمة وهالات خفيفة حول العينين، ولا يميل إلى المهاترات، أما موظف الاستقبال النهاري فيمكنه أن

يجيبك عن سؤال واحد مِئَة مرة من دون أن يتذمَّر، عندما دخل «عبد الرحمن» الفندق وتوجَّه إليه وطلب لقاء «إسرا» سأله:

-رقم الغرفة؟

-لا أعرف رقم الغرفة، لكنَّه يقيم بجناح كامل في الدور السابع، له شرفة تطل على الكورنيش.

-هل أتيت بناءً على ميعاد سابق؟

-لا.

سجَّل موظف الاستقبال اسمه على ورقة، وطلب منه أن يستريح حتى يُجري الاتصال، ظل «عبد الرحمن» واقفًا لم يتأخر خطوة، التقط موظف الاستقبال سماعة الهاتف الذي يصله بالغرف، ضرب رقمًا على الأزرار، وتحدَّث بصوت هامس ثم أغلق وقال مبتسمًا:

-يؤسفني يا سيدي أن أبلغك أن السيد لا يعرف الاسم ولا يريد مقابلتك.

-أرجوك أخبره أنني سأمكث هنا في الاستقبال حتى يوافق على مقابلتي.

-هذا مخالف يا سيدي.

-يمكنكم أن تطردوني بالقوة ولكني سأعود.

هذا الحوار نفسه تكرَّر عدة مرات بصيغ مختلفة وبمناورات جديدة:

-أريد أن أقابل السيد «إسرا» لو سمحت.

-هل لديك ميعاد معه؟

-لا، لكنَّه قال لي آخر مرة عندما كنت هنا تستطيع أن تأتيني في أي وقت.

-عفوًا، قانون الفندق لا يسمح لنا بالاتصال بالمقيمين من دون ميعاد سابق.

-لكنك اتصلت به بالأمس.

-ليس أنا يا سيدي.

***

-صباح الخير يا سيدي، السيد «إسرا» ينتظرني.

-حسنًا، سأتصل به، أرجو أن تستريح.

-الأمر عاجل، لا يمكنني الانتظار.

يتصل ثم يخبره بلباقة أن السيد «إسرا» غير موجود بغرفته.

-لكنني هنا منذ أيام، لو خرج لرأيته.

-هاتف غرفته لا يرد يا سيدي.

-يمكنك أن ترسل أحد العمال إلى غرفته لترى..

-قمنا بذلك فعلًا، على الباب لافتة عدم الإزعاج.

-إذًا هو موجود!

-نعم، لكنَّه لا يرد.

وهكذا، في كل مرة كان «عبد الرحمن» ينهي الحوار غاضبًا ويعود ليجلس على الكنبة التي تتصدَّر القاعة، حقيبته أسفل قدمه، أمامه منضدة عليها بعض الكتب والمجلات المصوَّرة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، عندما بدأ بتصفحها انتظروا حتى ذهب

لدورة المياه فجمعوها وأخذوها، كان هذا أول إشارة لاعتراضهم على وجوده، يأتي الوافدون الجدد ويجلسون بجانبه فيُقدَّم لهم كوب الكركديه البارد لحين إتمام إجراءاتهم، كان جائعًا، لكنه خشي أن يخرج لشراء الطعام فيمنعوه من الدخول، وعندما اشتد الجوع عليه حزن أنه لا جرأة عنده ليشرب ثمالات أكواب الزبائن.

يغمض عينيه فيغفو غفوات سريعة متتالية ويستيقظ منها مفزوعًا، تتبدَّل وردية الخدمة، ولا تتغيَّر طريقة التعامل معه، عندما ينتصف الليل يخلو البهو إلا من الأصوات الليلية، رنات هواتف ودقات جرس نحاسي صغير مجلجل لاستدعاء النادل، وطرقعات الأقدام على السلالم وهي تصعد وتنزل.

في الليلة الأولى دخل رجل وامرأة، لا يحملان حقائب، خطوات الرجل غير متزنة وزرَّان من قميصه مفكوكان، ما يوحي ببدايات سُكر شنيعة، قاما بحجز غرفة، وعند صعودهما مع خادم صالة الاستقبال مال الرجل على المرأة وأسرَّ لها بكلمة فطرَّزت السكون المهيب بضحكة كدانتيل وردي على قميص نوم أزرق، ابتسم موظف الاستقبال المتجهِّم وأشاح الحارس بوجهه المحتقن للناحية الأخرى، وساد بين الرجال الموجودين بدايات شجن، وأخذ «عبد الرحمن» يفكِّر في كلمات «جاسر» عن الفرصة، المرادف الدارج لقفزات القدر، وأنها لا تفرِّق بين مستيقظ ونائم، بين مجتهد وعاطل، بين رجل سكر سكرًا شنيعًا ورجل جالس في

بهو فندق فاخر لا يجد شربةَ ماء بارد؛ فالرجل والمرأة اللذان مرًا من أمامه الآن، يطوِّحهما السُكرُ، لم يُدهسا في طابور، لم تُقتل حبيبتهما، ولم تَضِع فرصتهما في حياة أفضل أو يفقدا حياتهما السابقة، وعلى الرغم من أنهما لا يريدان مقابلة «إسرا»، على الرغم من ذلك يستطيعان الآنَ أن يدقَّا الباب على «إسرا» فيفتح لهما ويتحدث معهما، وأوحى له الموقف بالفكرة. ذهب إلى موظف الاستقبال وطلب منه حجز غرفة، قال من دون أن ينظر في دفاتره:

- آخر غرفة شُغلت للتو.

وقبل أن يردَّ «عبد الرحمن»، كان موظف الاستقبال قد التفت بوجهه عنه.

في الصباح، أيقظه الضجيج وصوت المكنسة الكهربائية، فتح عينيه بسرعة، متفاجئًا، فضرب الصداع عمق رأسه من الخلف، كانوا قد وضعوا «كرفان» من الخشب شبيهًا بشيش النوافذ ليواروه عن الأنظار، مشى بثقل إلى دورة المياه، قضى حاجته وغسل وجهه ورقبته وجرع ماءً ساخنًا من الصنبور مباشرة، لكن العطش جعله مستساغًا.

ازدحم الفندق قبل الظهيرة، يأتي زُوَّاد الفندق وزائروهم فيجلسون إلى جانبه، يتجرعون الكركديه البارد وينصرفون، يقاوم «عبد الرحمن» النظر إلى المشروب الأحمر، إلى أعناقهم وهي تتحرَّك، يقاوم حثالات الأكواب وهي تدعوه، وعندما يفشل في

المقاومة يذهب سريعًا إلى دورة المياه، يعب من ماء الصنبور، ويشعر بدويٍّ السائل وهو يتخبَّط حتى يستقرَّ في قاع المعدة الفارغة، وعندما عاد وجدهم قد حرَّكوا الكنبة التي يجلس عليها إلى ممرِّ غرفة ملابس العاملين.

استقبل مصيره بصدر رحب، وأتاح له المكان الجديد عزلة أكبر، قريبًا من مكان المطبخ الصغير، بعيدًا عن الكاميرا أيضًا، ما يُتيح للعاملين التعاطف معه وإظهار غضبهم من «إسرا»، كلما ذهب إلى دورة المياه وعاد وجدهم قد وضعوا شيئًا جديدًا: كوب ماء بارد، كوب كركديه يتذكر طعمه الحلو للغاية، كأنهم يتعمَّدون إضافة ملاعق سكر زائدة لبثِّ بعض الطاقة في جلده البارد، شطيرة جبن ملفوفة في ورقة جرائد، موز، وبقسماط، شاي فاتر باللبن، قطعتا شيكولاتة، وثمرة تفاح أخضر وبرتقالة، شطيرتان من اللانشون. وعندما خلد للنوم في اليوم الثالث أو الثاني - لا يتذكَّر - شعر بيد تضع غطاءً فوقه، احتفظ بالغطاء بعدها، يطويه ويفرده عند النوم.

وحتى عندما نفدت بطارية هاتفه مع ازدياد وتيرة الاتصالات الكثيرة والرسائل المتتالية، وأخذت تطلق صفارة إنذار خافتة متكررة، عندما ذهب لدورة المياه وعاد وجد هاتفه متصلًا بشاحن، فيشة أرضية قريبة من الكنبة، هذا آخر ما يتذكره من عطايا موظفي الفندق.

عاد «عبد الرحمن» للنوم، لم يُلقِ نظرةً على قائمة

اتصالات اليوم الأخير، كانت قائمة تنبئ عن حدوث مصيبة: «جاسر» ٩ مرات، زوجة «عبد الرحمن» ١٣٢ مرة، أخوه الأكبر ٢٣ مرة، الأرقام الغريبة ٩٦ مرة اتصالًا، المهندس «طارق» ٧ مرات، عندما عاد للنوم لم يكُن يعلم ما حدث بالخارج، وأن «جاسر» أبلغ وسائل الإعلام باختفائه (أو اختطافه)، قال إنه خرج منذ سبعة أيام، لم يعُد إلى السكن، لم يذهب إلى بيته، ولا يرد على هاتفه.

في الوقت الذي خلد فيه إلى النوم، كان «إسرا» جالسًا في شرفته المطلة على شوارع حي غرب الفارغة، عازمًا على استدعاء «عبد الرحمن» لإنهاء الأمر، سيستمع إليه جيدًا، ليس بوسعه أن يقوم بما هو أكثر من ذلك، وهذا لا يقلقه، لقد بنى مدينة كاملة، كم شخصٍ ذُكر في التاريخ أنه بنى مدينة وذكر معه أنه لم يفلح في مواساة رجل مجهول!

نادل الفندق الليلي أتي عدة مرات ووضع على منضدة «إسرا» ما يأكله ويشربه شخصان، لا شخص واحد، كوبين، طبقين، ملعقتين، كأسين.. وفي كل مرة يعود في صمت ليرفع الأشياء سريعًا، وينصرف، نصفها فارغ، والنصف الآخر كما هو، وجد «إسرا» الحماس ليأكل، لكنَّه لم يجد الجرأة لمقابلة «عبد الرحمن»، وعندما جاء الفجر شعر «إسرا» أن الوقت مناسب جدًّا لبداية الشتاء.

***

هناك أشياء كثيرة في القدر لم يعد بوسع سكان حي غرب الإيمان بها: الاستيقاظ ببال صافٍ، الحصول على رغيف خبز جيد، الجلوس على مقعد في المواصلات العامة في ساعة الذروة، والوصول إلى العمل في الميعاد؛ لهذا يكون الصباح الذي يتحوَّل فيه الصيف إلى شتاء هو أغرب صباح يمكن أن يعيشوه خلال العام، ينامون والنوافذ مفتوحة فيستيقظون بنوبة برد سيئة، تغيُّر الفصول يذكِّرهم بأن هناك في الأعلى أشياءَ تتغيَّر مثل تلك التي تتغيَّر على الأرض: خط أتوبيس، شارع مغلق، إلغاء خط ترام بالكامل.. في هذا الصباح، يفكر الناس في تغيير حياتهم بشكل جذري، يتخذون قرارات سيئة، سريعة، ويدفعهم البؤس والشجن إلى تنفيذها على الفور.

في الثالثة صباحًا نزل البرد من السماء، نفخ في باب الفندق المفتوح ففرك حارس الباب يديه وجذب ياقة قميصه لأعلى قليلًا، دق موظف الاستقبال الجرس للخادم الليلي فجاء بعينين حمراوين، أشار إليه مبتسمًا طالبًا كوب شرابٍ دافئ، أي شراب دافئ بشرط أن يضع ثلاث ملاعق من السكر، قال هذا من دون كلمة، بإصبعين رسم الكوب وبثلاث أصابع عدَّ ملاعق السكر، في أثناء توجُّه الخادم للمطبخ عابرًا الممر خافت الإضاءة رأى «عبد الرحمن» يرتعد بشدة، سقط الغطاء عن خصره وكتفيه، تمَّم على تغطيته، لم يدرك أن «عبد الرحمن» لا يرتجف من البرد، بل من أثر الحلم، طار به

الحلم ساعتين في الزمن، ليس بعيدًا جدًا، في الخامسة صباحًا، لكنْ في بيته، في هذا الوقت يستيقظ على صوت المكمورة في الغيطان البعيدة، تطحن الذرة الخضراء بأعوادها وكيزانها، مع ندى الصباح وطراوة الليل، يتقلَّب ويطيش بذراعه فتعثر على جسد زوجته النائم إلى جواره، يجعله هذا سعيدًا، متوائمًا، وكأنه عثر على اللحظة المناسبة، لكنه لم يعثر على الفعل المناسب، تظل اللحظة مفتوحة، مشرعة، حتى يتقلَّب ويقبِّل زوجته في أذنها، لم تعتَد بعدُ على وجوده الدائم، وهي تعلم – في الحلم - أنه أحبَّ امرأةً غيرها، لكن السعادة الغامرة بوجوده وعودته لا تترك مكانًا للأسى، سعادة تجعل لمسات شفتيه لأذنها بالغة اللذة، وكأنَّها استحالت إلى كائن من سكر سماوي يذوب في الفم بالرؤية واللمس لا بالتذوُّق، ينحسر الضجيج من جسده وتصير الحواس مرهفة كحد الموسى، صوت المكمورة يشبه أزيز نحلة عملاقة ركَّزها أحدهم في الأفق بدبُّوس، يقترب الأفق، أو تقترب المكمورة، وكأنهما صارا عودين أخضرين من أعواد الذرة ينتظران دورهما جنبًا إلى جنب.

استيقظ «عبد الرحمن»، اعتدل وجلس، تلقَّى أول لفحة برد للشتاء الوليد مثل ضربة في الأنف، رعاف من الروائح المختزنة من الشتاء السابق، تذكَّر أنه لم يعد إلى بيته منذ فبراير، وها هو الآن في أكتوبر، طوى الغطاء، حمل حقيبته على كتفه، واتخذ طريقه إلى

الخارج، ترك الهواء البارد يقرس جلده من تحت ملابسه الصيفية وهو يسير على قدميه حتى خرج إلى الكورنيش، تدق رسالة المهندس «طارق» في جيب سرواله: «قابلني الساعة الثامنة في مقهى السعادة»، لكنه لا يأبه بتصفحها، مستمعًا لصدى خطواته وهو يسير محاذيًا للكورنيش، يرن الصدى تحت ظلال أشجار الفيكس، حيث الأرض الزلقة وأعقاب السجائر وزجاجات التسلا الفارغة والمهشَّمة، نصف ساعة من السير المتواصل وصلَ به إلى الكوبري الثالث، لا أحد يسير على قدميه في هذا الوقت، كل عابري الكوبري يستقلون سياراتهم الخاصة، أو سيارات أجرة، النوافذ مغلقة على هواء النهر ظنًّا أنه بارد، لكنَّ نسمات الهواء دافئة تحمل الروح الآتية من أعماق القارة الاستوائية، الحرية التي يورثها النهر للأفيال والثيران والنمور والضباع، خليط لا يمكن مقاومته، قادر على انتزاع زئير من الصدر.

يأتي موظف الكوبري دون أن يقرع الحاجز بعصاه ويشير إليه بالتحية:

-لقد أتيت أخيرًا! أين كنت كل هذا الوقت؟

تبادلا ابتسامة محايدة، ثم سأله موظف الكوبري في لهجة عجيبة تجمع السخرية مع الشفقة:

-ذاهب لتسلُّم وظيفة أخرى؟

-لا، لم يكونوا صادقين في المرة السابقة.

-أخيرًا فهمت! لن يكونوا صادقين أبدًا، لا يمكن الفوز

بوظيفة عن طريق الطابور يا صديقي.

-نعم، فهمت في النهاية.

-كنت أعدُّ الأيام وأراهن نفسي، عندما أخبرتني بحصولك على عمل هناك عرفت أنَّك تتعرَّض للنصب، لكنَّ الأمرَ بسيطٌ، في المرة المقبلة لا تُصدِّق إلا بعد أن تقبض راتبك الأول.

ابتسم «عبد الرحمن»، أما موظف الكوبري فتنهَّد وهو يتذكر، عندما ذهب إلى المصلحة الحكومية ليقبض راتبه في نهاية الشهر الأول كان يشك أنهم ما زالوا يتذكرونه، لم يسلموه الراتب على الفور، بل كلَّفوه بأن يملأ تقريرًا يعرف جيدًا أنهم لن يهتموا بقراءته إلا عند حدوث انتحار، وعندما تسلَّم راتبه طلب المديرُ مقابلتَه، ذهب إلى المكتب الذي يحفظ مكانه جيدًا، دقَّ الباب ودخل، كان حريصًا على أن يُظهر استياءه وهو يصافحه، فقط ليعلم أن وظيفة منع الناس من الانتحار فوق الكوبري مرهقة، طلب منه المدير أن يصبر ويجتهد، وأخبره أن وضعه مؤقَّت ولن يدوم الحال، وأنه في يومٍ ما سيعود إلى المصلحة عودةَ الفاتحين، فسأله: متى؟ قال: عندما نجد شخصًا غيرك. فغاص بيأسه في العدم القاتل، كان يعلم أنه ينبغي عليه بعد مقابلة المدير أن ينصرف، لا يريد براهين أكثر على هشاشة وضعه، لكنَّه عاند الخوف، سار في المصلحة يلقي التحية يمينًا ويسارًا كأنه يؤكد أنه صاحب بيت، ومرَّ ضمنَ ما مر على صالة المكاتب، صافح زملاءه

القدامى واحدًا واحدًا، صافح مضيفه أيضًا، لاحظ أن الكرسي الخاص به تحوَّل إلى منضدة لفازة مليئة بالورود الصناعية؛ فالورود الصناعية لا تشرب الماء كالبشر الذين يشربون الشاي ويصنعون دوائر متسخة، نظر في وجوههم خلسة، لا وجه جديدًا، لم يمُت أحد، لم تدق الطبلة بعدُ في لعبة الكراسي.

أفاق على صوت «عبد الرحمن» وهو يسأله:

-أين رحت؟

-إلى المصلحة، كلامنا عن قبض الراتب جعلني أتذكَّر اليوم الذي قبضت فيه راتبي.

-أنت هنا الآن، خرجت من الطابور، ولم تعد معهم.

-فعلًا، خرجت، وبأعجب طريقة، ومن يدري؟ ربما يتحوَّل هذا الجنون إلى قاعدة، يُنشئون لي إدارة مكافحة الانتحار، يمتد نطاق عملها إلى مراقبة القطارات الكهربية والطرق السريعة وأعلى مباني المدينة.

ثم ضحك ونظر إلى «عبد الرحمن» متحسسًا أثر أطروحته، ثم قال:

-عندما دخلت صالة المكاتب بدت لي ضيقة جدًّا، لا أعرف كيف كنت أحتمل البقاء هناك كل هذا الوقت من دون أن أختنق، لا عجب أنهم لا يشيخون بسرعة، لكن هنا، سيكون الموتُ سريعًا، هذا هو الأمل الوحيد في العمل المجهد.

-إذًا، أنت لا تفكر في العودة!

-لا، ولا أخفي عليك سرًا، قبل أن أخرج من المصلحة انتحى بي أحدهم جانبًا وهمس لي: تستطيع أن تعود، فقط شكوى بسيطة يزكيها عضو لمجلس الشعب.. لكن تعرف؟ لن أسعى إلى ذلك، ولا تأتيني الرغبة في العودة لصالة المكاتب إلا عندما يتوقَّف الناس عن رمي أنفسهم، أحزن وأفرح و...

قاطعه «عبد الرحمن» مندهشًا:

-تحزن وتفرح؟!

-نعم، أحزن لأن الموت محزن، وأفرح لأن قتل الناس أنفسهم هنا هو ما يجعل لبقائي مبررًا.

ثم ضحك موظف الكوبري، ورنَّت ضحكته أسفل الكوبري بصدى متشنج:

-أليس هذا هو العبث؟ وفي هذا العبث نعيش، موت إنسان يجعل لوجودي الوظيفي معنى، لكنِّي لم أعُد قلقًا مثل أول أيام لي هنا؛ فمن وقت لآخر سينجح أحدٌ في الانتحار، حي غرب مدينة قديمة، مغلقة على نفسها، ومحتقنة بضغط نفسي أكبر مما يتحمله سكانها، في ليلة واحدة يرتفع عشرات الرجال ويسقط عشرات مثلهم، وكل هذا بفعل الوهم.

نظر «عبد الرحمن» عندئذ إلى حي غرب، فرآه وهو يكتسي بالحركة، والصباح الجديد يتنفس فيه، نقيًا بهيًا، بكل ما سينتج عنه من مفاجآت، ومآسٍ، وبكائيات، وأفراح صغيرة، وكل نأمة تنمُّ عن استيقاظ في

شوارعها، والكورنيش، والشوارع المتاخمة، والبعيدة، الضيقة والواسعة، تُفتح النوافذ بصخب، وتتحرك الأتوبيسات، والموظفون المبكرون وطوابير الخبز والكلاب الضالة، تنتصب طاولات الطعام والكتابات على الجدران وروائح برك البول في الأزقَّة، والحواجز والمتاريس، وإشارات المرور التالفة، والطيش والجنون، كلها هناك.. وفي لحظة فهم نادرة، أدرك «عبد الرحمن» أن «إسرا» على حق، وقال هامسًا بما فاض من خواطره على لسانه:

-هل من المعقول أنهم يقتلون أنفسهم من أجل حي شرق؟

لكن موظف الكوبري سمعه وقال من دون أن يدرك أن «عبد الرحمن» يُحدث نفسه لا أكثر:

-لقد سمعت أنا أيضًا هذا الكلام، لكنِّي لا أهتم، كيف ينتحر الناس من أجل مدينة لم تكتمل تمامًا بعدُ؟ منذ بدؤوا بناء حي شرق وأكثر من الشائعات التي يمكن أن تُقال قيلت، سيبنون سورًا، والأغنياء سيملكونه، ورجال الشرطة والجيش، وموظفو الحكومة الكبار، والأجانب، والشواذ، واليهود، والفضائيون، لكنْ عندما تُفتح المدينة، ومثل أي مدينة أخرى، لن يمر وقت طويل حتى يملأها الموظفون وجامعو القمامة ورجال المرور والشحاذون، وستصبح أسوأ من حي غرب، وسيضطر الأغنياء إلى بناء مدينة أخرى أبعد وأبعد، وهكذا، ما هو ممنوع ومحرم يصبح بعدها مباحًا وحلالًا، البقاء للفقراء، للملح

والتراب.

قال «عبد الرحمن» مندهشًا:

-ولماذا يُطلقون الشائعات إذًا؟

-لأنها تفيد الذين يتربَّحون منها، سمعت عن الرجل الذي يقيم في الدور السابع في الفندق القديم، وسمعت عن الآخر الذي شنق نفسه، والراقصة التي اشترت شقة بعشرين رقصة في عشرين ليلة، المدينة تتغذَّى على الأوهام.

قال «عبد الرحمن» معاندًا:

-وما يدريك أنها ليست الحقيقة؟

بدا على موظف الكوبري الاستياء الشديد، على الرغم من محاولاته إخفاء ذلك عن «عبد الرحمن»؛ إذ إن ما قاله «عبد الرحمن» يعني أن حوادث الانتحار حالة طارئة، ستنتهي بمجرد أن تُفتح المدينة وتكتمل:

-ليست الحقيقة، لأنني ذهبت إلى هناك بنفسي ورأيت، لا يوجد سور ولا مشروع سور حتى، والسكان عاديون تمامًا، إلا أنهم ودودون.

-ذهبت إلى هناك؟

-نعم، عبرت ثم عُدت.

-ولم يوقفوك!

-لا، يوقفون فقط من يقدِّمون الأوراق ويتمسَّكون بالشكليات.

-بهذه البساطة؟

-بهذه البساطة، جرب أن تسير إلى هناك وألَّا تنظر إلى الحراس، ستجد نفسك تمر.

-وماذا رأيت عندما عبرت لحي شرق؟

-كل شيء جميل هناك، ستكون مدينة رائعة، على الرغم من أن السكان قلة والشوارع شبه خالية، اشتريت سجائر من كشك الصنايعية عند أول الكوبري، وعدتُ، لم يكلمني أحد.

ثم ضحك موظف الكوبري وسأل «عبد الرحمن» بخبث، مشيرًا إلى جهة حي شرق:

-هل تريد أن تجرِّب؟ هيا جرِّب.

لبثا دقيقة صامتَين، ثم وقف «عبد الرحمن» وحمل حقيبته فوق كتفه، مد يده ليصافح موظف الكوبري فصاح به:

-لا، لا.. من دون حقيبة، أعطِها لي، سأحفظها لك حتى تعود، ولا تنظر إلى الحُرَّاس عند مرورك، جرِّب أن تهرول كأنك تمارس رياضة صباحية، أهل حي شرق يفعلون ذلك دائمًا ويمرون أحيانًا من هنا، اكذب, جرِّب أن تكذب كما نكذب كلنا.

أعطاه «عبد الرحمن» حقيبته، لكنه لم يستطِع أن ينفِّذ نصيحته بخصوص الهرولة، بل سار بخطوات مترددة، متجهًا إلى المتراس الذي أقاموه في الثلث الثاني من الكوبري لتنظيم المرور، ليس أكثر من كشك لتحرير السلسلة التي ترهن حاجزًا حديديًا على هيئة رافعة ترتفع بذاتيةِ ثقلها الخلفي، وفي الجانب الآخر

للكوبري المكتب الذي يجلس فيه الضابط والجنود، معظم جدرانه من الزجاج المعتم. «توقف. شرطة حي شرق»، عبارة مكتوبة بالجير الملون على جدران المكتب والأسفلت والرصيف، ونافذة صغيرة تطل منها ذراع بشرية تأخذ التصريحات وتسجِّلها وتختمها وتعيدها وتسمح بالمرور.

«وما الذي سأخسره؟».. هكذا قال لنفسه، ثم وجد نفسه يمشي بخطوات أوسع، خطوات أوثق، كان يمرُّ على المتراس وهو يشير بالتحية من دون أن ينظر، ولا يعرف هل رد أحدٌ التحية أم لا، لكنه رأى بجانب عينه ظلالهم من خلف الزجاج وهم يتحرَّكون، يشربون ويتحادثون، سمع صوتًا فلم يلتفت، تخيَّل نفسه أحد سكان حي شرق، سار مثلهم فصار في الناحية الأخرى، مشى خطوة بعد خطوة، منتشيًا بانتصاره الصغير، فرحًا بالهواء الجديد، أخذ يبطئ، مخترقًا جسد الهواء الليِّن فوق فدادين الماء الشاسعة، يبطئ ويتحمَّم، يترك الروائح المميزة تتخلله مثل بخور فائق الجودة، وكلما خطا خطوة تخلص أكثر، كنبيٍّ معذَّب يتأهَّب ليسير على الماء بعيدًا عن الزهم والتلوُّث، وتذكَّر «إسراء» وما قالته له ذات يوم، تذكَّر كل ما قالته، وتذكَّر كيف سممته المدينة، كيف أتلفت قلبه، وكيف جعلت منه إنسانًا مدهوسًا بائسًا خائفًا، كيف تألم من توقي الضربات أكثر من وقع الضربات نفسها، كيف تاجروا به، وكيف اشترك معهم في الاتجار بنفسه.. وعندما رأى البيوت في الضفة

الأخرى غامت عيناه وخفق قلبه بشدة، ثم توقف، وعاد ليسير، تذكَّر الأيام التي قضاها في الفندق ليقابل «إسرا»، واستيقاظه هذا الصباح وهو لا يفهم كيف سعى إلى لقاء «إسرا» بعد كل ما فعله به! ما الذي أراده منه؟ وما الذي تغيَّر ليتراجع عن رغبته الصلبة؟ هل وصل للفهم أم نسي؟!

عاودته روح الصباح، الشتاء يقلب الصفحة، وسرعان ما سيكون كل ما مر به مجرد ماضٍ، ويكون مضطرًا لأن يعيش فيه طول فصل المطر الطويل، لكنْ في مكان آخر، هل بإمكانه تجاوز الحب واليأس والإحباط والأمل ببضع خطوات يمشيها في الجغرافيا؟ وهل بضع خطوات أخرى ستمكِّنه من النسيان واستبدال قلب جديد بقلبه؟ سيكون حريصًا على أن يُقسِّيه هذه المرة؛ لأن لا شيء تغير، أو سيتغير، المدينة خلفه لا تزال كما هي، و«إسراء» لم تعد فيها، «إسرا» فقط، الذي يحب النهر والحجر والشجر أكثر مما يحب مواطني حي غرب، «إسرا» فقط، بقدرته الهائلة على القبض والمنع، يرفض لقاء ضحاياه ويغضب إن ذكروه في لعناتهم ويحرمهم من اللاشيء، ما الذي تغيَّر في حي غرب ليتغيَّر قلبه؟

اقترب «عبد الرحمن» من سور الكوبري، أخذ يصعد السور ممسكًا بالعوارض الحديدية الأفقية مستعملًا إياها كدرجات سلم رأسي، يضع قدمًا ويمسك بيد، رآه أحد الحراس وأدرك نيته فصرخ، خرجوا سريعًا، لكنه

وصل إلى القمة، وبدأ النزول للناحية الأخرى قبل أن يصلوا إليه، ليحصل على رؤية، ويحدد النقطة التي سيلقي بنفسه تجاهها، من دون أن تصطدم ذراعه أو ساقه أو رأسه بأحد أساسات الكوبري فيتهشَّم، يريد موتًا هادئًا، طويلًا، اسفكسيا الغرق، ولا يعرف إن كان تهشُّم أحد أعضائه سيُسرع بخروج روحه أم سيطيل المعاناة.

قبل أن يقفز، كانوا قد وصلوا إليه، رمى أحد الحراس بنفسه على الأرض ومرر يده من العوارض وأمسك بقدمي «عبد الرحمن»، مدُّ آخرُ ذراعيه واحتضنه من الخلف، وثالث ورابع.. كلهم يكبِّلون حركته، حتى موظف الكوبري صعد على الحديد وانحنى ووضع يده على عيني «عبد الرحمن» لكي لا يرى الماء ويفزع فيختطفه النهر، وتحسَّس الأخير منهم جيب «عبد الرحمن» وانتزع منه هاتفه وانطلق يتصل بآخر الأرقام، المهندس «طارق»، مهندس المدينة المفلس الذي لم يعد يملك إلا ثمن كوب شاي، لكن المهندس «طارق» لم يرد، اتصل الحارس بالرقم التالي: هاتف «إسراء» في كيس الحرز الجنائي بجانب هاتف زوجها، رنَّ طويلًا في القاعة المحمية بالقضبان والأكياس المليئة بالأزرار والملابس المدممة والتسجيلات وبقايا الموتى، ثم اتصل على رقم أخيه الأكبر، لكنه كان نائمًا، الرقم الرابع ردَّ منه أخيرًا صوت ناعس، قلق، ملهوف، صوت زوجته يقول:

- أين كنت يا «عبد الرحمن»؟ أوقعت قلبي عليك،

لماذا لا ترد على هاتفك؟

انطلق الحارس يبكي ويحكي ما يحدث.

أما «عبد الرحمن» فأدرك أنه لم يكُن قويًا في لحظة من حياته، لكنَّه في هذه اللحظة أحس بالقوة، عندما شعر أنه مُجرد من صفاته، عندما أصبحت قيمة حياته هي ما يملكه بالفعل: الجسد، ولم يعد بوسع الناس أن يتوقعوا منه غير ما يمكن لهذا الجسد أن يقدمه، مثل بطل رياضي، أو امرأة حسناء، وأن ما يعطيه الجلد واللحم والعظام والشعر صار ذا قيمة، من دون بطولة، أن تُداس إذا دُفعت وسقطت، وأن تشتعل إذا أُضرمت فيك النار، وأن تغرق إذا ألقيت بنفسك من فوق كوبري، بل أكثر من ذلك، يصبح هذا حدثًا، وله ثمن، لا ينكر أنه شعر بالسعادة تثبّت قلبه، لقد منحه حي غرب هذه السعادة، ولم يعد يهمه الآن، إن كلّت أيديهم وتركته ليسقط، مستمتعًا بثواني الحرية القليلة والهواء المفضض الناعم، كله له، له وحده.